بلوغ المرام في أحداث ووقائع رمضان

(من ذاكرة التاريخ)

ديــوان العــرب للنشــر والتــوزيع

عنـــوان الكتاب: بلوغ المرام في أحداث ووقائع رمضان
اســـم المـؤلف: د. محمد فتحي عبد العال
التصنيف الأدبي: (من ذاكرة التاريخ)

رقـم الإيـــداع: 25915 / 2024

الترقيـم الدولي: 7 - 271 - 998 - 977 – 978





التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

تـصميم الغلاف: هـبـة عـمـاد

التنسيق الداخلي: محمد وجـيــه

رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع ـ مصر – بورسعيد

تليفون: 00201030502390
dewanalarabegypt@gmail.com

بلوغ المرام في أحداث ووقائع رمضان

(من ذاكرة التاريخ)

د. محمد فتحي عبد العال

ديوان العرب للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى روح والدتي الغالية السيدة: ناريمان عبد الفتاح أحمد زردق
وإلى روح أخي العزيز الأستاذ: أحمد فتحي عبد العال

وقد شاء الله أن يكون موعد رحيلهما في نفس اليوم من شعبان لعامين متتاليين.
أهدي هذا الكتاب متمنياً أن يكون صدقةً جاريةً على روحيهما .
عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له) .

د. محمد فتحي عبد العال

****

"ستكون مفاخر ماضينا وتراثنا الخالد خير عون لنا في بعث وطننا من جديد، وفي التقدم به نحو الكمال الإنساني، ذلك الكمال الذي ظلّ - على تناحر الشعوب، واختلاف الفلاسفة في الأقطار والأزمان - مُذ كان أرسطو حتى تولستوي -حلم العصور الكثيرة المتعاقبة. والمنارة اللامعة المغرية في آفاق البشرية السامية"

الملك أحمد فؤاد الأول

"وعشنا بخيرٍ في الحياة وقبلنا.. أصابَ المنايا رهطَ كسرى وتبّعا
وكنا كندماني جذيمةَ حقبةً.. من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تَفَرّقنا كأنّي ومالكاً.. لطول اجتماعٍ لم نَبت ليلةً معا"

متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي

" من كبُرَتْ همته كثُرَتْ قيمته. لا تثق بالدولة؛ فإنّها ظلٌّ زائلٌ، ولا تعتمد على النعمة؛ فإنّها ضيفٌ راحلٌ. فإنَّ الدنيا لا تصفو لشاربٍ ولا تفي لصاحب."

(عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي)

"ليس لي من وراء ما أكتب هدف إلا أن أشيّع الحق؛ فيعرفه أصحابه، وأنبه إلى الواجب فيؤديه أصحابه".

الشيخ محمد عبده

مقدمة

دائماً ما يحوطني شهر رمضان بمسؤولية الكتابة التاريخية، التي أتنفسها وأنا أمر بين جنبات التراث الإسلاميّ الثريّ والمتنوع في مصر.. حكايات شيّقة وطريفة لا تنتهي عملت على إبرازها وبلورتها وربطها بالواقع، وصبغها بالعلم الحديث لتحليلها على الوجه السديد، وتقديم صورة أكثر منطقية للحدث وتفرداً واحترافية في المعالجة ..

كما وجدت نفسي وأنا أعد الحلقات الرمضانية لهذا العام لعديد من الصحف المصرية والعربية أسرع الخطى لأرشيف الصحافة المصرية، أنهل من معينه الذي لا ينضب؛ لأعيد اكتشاف حوادث ووقائع شهر رمضان في القرن الماضي، فضلاً عن الكتب التاريخية النادرة والتراثية، وهي مهمة صعب إنجازها في كتاب واحد، بل تحتاج إلى مجلدات، لكنّني أجد فيما قمت بوضعه في هذا المبحث وما سبقه من تأريخٍ للصفوة والعوام على السواء خطوات لا بأس بها على الطريق القويم، أتبعها بمزيد من الخطوات المستقبلية عبر سلاسل كتبي الرمضانية القادمة في قوالب متنوعة ما بين المقال والقصة لدفع الملل عن القارئ، وجذب شرائح من غير المهتمين بالتاريخ ليكونوا معنا في الركب نفسه وعلى الدرب نفسه بإذن الله .

وأتمنى أن ينال كتابي هذا مع الجهد المبذول في إخراجه على أفضل صورة مكانته اللائقة في المكتبة العربية، وأن يلبي فضول القراء وتطلعاتهم ويطرح أمامهم تصورات ودروس الماضي بجلاء.

والله من وراء القصد.

د. محمد فتحي عبد العال - كاتب وباحث وروائي مصري

القسم الأول

حدث في رمضان

أ- عرس بوران

يحفل التاريخ الإسلامي بقصص وحكايات مثيرة تصقل أبوابه ترتقي أحياناً لمصاف الخيال عن احتفالات وأفراح وعزائم زيّنت أزمنة مضت، لكنّها بقيت في ذاكرة التاريخ تعزف على أوتاره طرائف أبطالها وتشدو بما فيها من مظاهر بذخ وفخامة مفرطة، خاصة ما يتصل منها بحفلات الزفاف التي يقيمها أولو الأمر، ينشدون منها تعضيداً لمكانة الملك ومقامه، وتعظيماً لهيبته وسلطانه . ولعلّ خير مثال على هذا النوع من الحفلات والأفراح التي لم يعهد مثلها في العصور الغابرة ما جرى في زفاف "خديجة بنت الحسن بن سهل السرخسي" فارسية الأصل، ولقبها "بوران (أصله "باران" أي المطر)" بأمِير اَلْمُؤْمِنِين وَخَلِيفَة المُسْلِمِين الإمَامُ اَلْعَالِم "أَبُو اَلْعَبّاس عَبْدُ اَللَّهْ اَلْمَأْمُون بن هَارُونْ اَلرّشِيد بن مُحَمّد اَلْمَهْدِي بن عَبْدِ اَللَّهْ اَلْمَنْصُور اَلْعَبّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ" المعروف بعَبد الله المأمُون أو اختصاراً "المأمُون" سابع خلفاء بني العباس.. في اليوم الثامن من رمضان سنة **210** هـ (دِيسَمْبَر **825** م) بعد فترة خطبة دامت سبعَ سنوات، بلغت في غضونها الفتاة الثامنةَ عشرةَ من عُمرِها، وأصبحت مكتملة الأنوثة.. أقيم حفل الزفاف في منازل أهل العروس بضيعتهم في "فم الصلح" بالقرب من مدينة واسط، وقدم الخليفة في موكب نهري بديع يعكس القوة العسكرية العباسية وبصحبته قواد الدولة وأجنادها في كامل هيئتهم الرسمية، وعلى رأسهم العباس بن المأمون ووصل عددهم لأربعة مائة ألف فارس وثلاث مائة ألف رجل.. أظهر الحسن وزير المأمون ووالد العروس من صنوف البذخ والفخامة ما يفوق الوصف ولا يضاهيه كسرى وقيصر

في فخامته؛ فشيد للمأمون قصراً خصيصاً لإقامته، وهو المعروف بالحسنى بالجانب الشرقي، وراح ينثر من فوق سطح بيته على رؤوس المدعوين من الهاشميين والقادة العباسيين والوجهاء بنادق مسك، بها رقاع بأسماء ضياع وصفات دواب وأسماء جوارٍ(جمع جارية)، وأثواب من ديباج، وأوراق بمبالغ مالية، فإذا وقعت البندقة في يد سعيد الحظ وقرأ ما في الرقعة من هدية دفع بها للوكيل المنوط به التسليم وحصل على ما فيها، سواء أكان ضيعةً، أو دابةً، أو مملوكاً، أو جاريةً، أو ثياباً، أو مالاً.. عامة الناس أيضاً نالهم من الحظ نصيب أيضاً، فنثرت عليهم الدنانير والدراهم ونوافج المسك (أوعيته في شكل ظباء) والعنبر.. كما أسبغ الحسن على مولاه المأمون وحاشيته ما لا عينٌ رأت ولا سمعت من بذخ، إمعاناً في إكرامه ورغبةً في رضاه؛ ففرش للمأمون وعروسه بوران حصيراً منسوجاً من خيوط الذهب الأحمر، وحينما وقف عليه نثرت عند قدميه لآلئ كثيرة، وأضفت حبات اللؤلؤ مع أضواء شموع العنبر _التي لا تنطفئ ليلاً أو نهاراً، ووزنها مائة رطل_ مشهداً بديعاً وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نُثِرت على النساء الحاضرات ومنهنَّ زوجة أبيه "زبيدة بنت جعفر" أم الأمين وأخته "حمدونة بنت الرشيد" فلم يمسَسْنَ الدر ويصل عدده ثلاثمائة لؤلؤة، وزن كلّ واحدة مثقال، فأمرهن "المأمون" بتشريف الرجل وبدأ بنفسه، فمد يده وأخذ واحدة، فمدت كل واحدة منهن يدها وأخذت درة، ولمّا وقع بصر "المأمون" على الدرر وهي تتلألأ على الحصير الذهبي استدعى هذا المشهد من ذاكرته قول "أبي نواس" في وصف الخمر: "كَأَنَّ صُغرى وَكُبرى مِن فَواقِعِها... حَصباءُ دُرَّ عَلى أَرضٍ مِنَ الذَهَبِ "(من البيوت الشعرية الطريفة التي أثارت خلاف النحويين حيث اعتبر البعض في البيت لحناً وأنّ

الشاعر أخطأ في قوله "صغرى وكبرى" لأنّها من أفعل التفضيل وكان عليه أن يقول: "أصغر وأكبر" فيما يرى الآخرون عدم وجود خطأ في البيت لأنّ الشاعر أراد معنى الصفة المشبهة لا معنى التفضيل) وأقام "المأمون" لديه تسعة عشر يوماً (وقيل سبعة عشر يوماً) بلغت مبلغ النفقة عليه ورجاله خمسين ألف درهم وخدم في الاحتفال ستة وثلاثون ألفاً وكان "الحسن" يذبح في مطبخه يومياً ثلاثين ألف رأس من الغنم، ومثلها من الدجاج وأربعمائة بقرة وفرس وجمل مدة مقامهم.. ولمّا نفدَ الحطب ذات يوم أوقدوا تحت القدور خيشاً مغموساً في الزيت.

وحينما دخل "المأمون" على عروسه في الليلة الثالثة من وصوله نثرت عليها جدتها "أم الفضل والحسن" من صينية ذهبية ألف درة فأمر "المأمون" أن تجمع مرة أخرى منكراً هذا الإسراف، فقيل له: "يا أمير المؤمنين إنما نثرناه لتتلقطه الجواري" فقال "المأمون": "لا أنا أعوضهن خيراً من ذلك"، ثم سأل عن عدد الدرر؟! فقالت: ألف حبة فوضعها في حجرعروسه قائلاً: "هذه نحلتك (أي مهرك وفريضتك) وسلي حوائجك" فسكتت حياءً فقالت لها جدتها: "كلمي سيدك فقد أمرك" فاستغلت "بوران" وأهلها الفرصة وطلبت العفو عن "إبراهيم بن المهدي" عمه وكان "المأمون" قد قبض عليه وهمّ بقتله، فعفا عنه كما طلبت السماح للسيدة "زبيدة بنت جعفر" زوجة أبيه وأم "الأمين" بالحج وقد كانت ممنوعة منه، في أعقاب الفتنة التي كانت مشتعلة بين "المأمون" وابنها "الأمين" فأذن لها وألبستها "زبيدة" بذلتها الأميرية تعبيراً عن امتنانها كما أوقدوا في تلك الليلة شمعة وزنها أربعين مناً (المَنُّ من المنا الذي يوزن به ومقداره رطلان) في فانوس أو تور من ذهب (شبيه بالطست أو أصغر).. وكأنّ المبالغة في مظاهر الاحتفاء بلغت أوجه غير مقبولة، مما

دفع "المأمون" إلى إنكار ما يراه مرة أخرى بالقول: "هذا إسراف".. الطريف أنّ جواب "الحسن" دائماً عن حجم الإنفاق الطائل والإسراف في هذا الحفل: "لا سرف في الخير، كما لا خير في السرف"..

ومما يروى أنّ "المأمون" حينما اختلى ببوران ومن هول الموقف وهيبة زوجها الخليفة حاضت في غير وقت الحيض، فقالت له: (أتى أمر الله فلا تستعجلو...). وحذفت الهاء لئلا تكون آية كاملة، فأعجب "المأمون" بفطنتها وخرج من عندها منشداً :

"فارِسٌ مَاضٍ بِحَـربـتِـهِ ... عَارِفٌ بِالطَّعنِ في الظُّلَمِ
رَامَ يُدْمِـي فَـرِيسَـتَـهُ ... فَاتَّقَـتْـهُ مِـنْ دمٍ بِـدَمِ"

ومن أطرف ما قاله الشعراء في هذا الزفاف قول "محمد بن حازم الباهلي": "بارك الله للحسن. ولبوران في الختن.. يا إمام الهدى ظفرت ولكن ببنت من".

فلما سمع "المأمون" بهذا الشعر قال: "والله ما ندري أخيراً أراد أم شراً؟!" ذلك أنّ قوله "ببنت من" تحتمل الرفعة أو الحقارة.

انفضّ العرس وتأهبت الزوجة لترافق زوجها الخليفة لدار الخلافة وأمر "المأمون" للحسن بعشرة آلاف ألف درهم، من مال فارس وأقطعه فم الخليج وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز لمدة عام ولكثرة ما تجمع للحسن من مال فقد أمر بتوزيعها بين قواده وخدمه وحشمه وأصحابه.. كما أنشأ المأمون "حير الوحش أو حير الوحوش (حديقة للحيوانات)" بمناسبة زواجه من "بوران" ليضفي مزيداً من أجواء البهجة على العرس.

وكان لهذا الحفل صدى كبير في المشرق والمغرب، حيث أرسل مِلِك البَنِغال "ديفابالا بن دهارمابالا" بهدية للحسن بن سهل لتهنئته على زواج ابنته من الخليفة.

كان زواج الخليفة "المأمون" من "بوران" هو الزيجة الثانية بعد زواجه من ابنة عمه الأميرة "أم عيسى بنت موسى الهادي" وهو في عمر الثامنة عشر، وكان ذلك برغبة من والده "هارون الرشيد" وأنجب منها محمد الأصغر وعبد الله .

كانت دوافع "المأمون" للزواج من "بوران" سياسية في المقام الأول، إذ خشي من ثورة الفرس عليه وقد كانوا من أهم داعمي دولته بعد أن تخلص من أحد أكبر رجالاتهم وهو "الفضل بن سهل" واستعمل مكانه شقيقه "الحسن بن سهل" ليخمد هذه الفتنة في مهدها وفي سبيل تطيب خاطره وصرف نظره عن الانتقام لمقتل أخيه تزوج بابنته "بوران" وحقق له بهذه المصاهرة ولآل سهل ما لم يتحقق للبرامكة في أوج عصرهم الذهبي مع هارون الرشيد وأمهرها المأمون ألف ألف دينار .

كان للفضل بن سهل فضل كبير على "المأمون" خلال فترة صراعه مع أخيه "الأمين" حتى استتبّ له الأمر؛ فأطلق يده في إدارة شؤون البلاد دون حسيب أو رقيب ولقب بذي الرياستين لجمعه بين السيف والقلم، وجعل من خراسان مركزاً منيعاً لحكمه وحتى يحتفظ الفضل بأوراق الحكم جميعاً في قبضته، فقد عيّن أقاربه وأصهاره من آل سهل ولاة وحكاماً يأتمرون بأمره ومنهم شقيقه "الحسن" على بغداد ونجح في إبعاد القائدين البارزين "طاهر بن الحسين" و"هرثمة بن أعين" اللذين لولاهما لما انتصر "المأمون" في صراعه العسكري مع "الأمين" وعلاوة على ذلك

فرض سياجاً من العزلة التامة من حول "المأمون" في مقر إقامته في "مَرُو (من أشهر مدن خراسان ويطلق عليها مرو الشاهجان، تمييزاً لها عن مرو الروذ وشاع عن أهلها البخل، وفي الأمثال يقولون: إنّك من أهل مرو كناية عن البخل)" مبتعداً عن "بغداد" مركز الخلافة وهذا من أخطاء "المأمون" الاستراتيجية والتي مكنت "الفضل" من أن يخفي عنه ما يشاء فأخفى عنه أمر ثورة "السُّريّ بن مَنْصُور الشّيْبانِيّ" المعرُوف باسم أبُو السّرايا في الكوفة والذي بايع "مُحَمّد بن إبراهيم طباطبا (سمي بذلك لأنه يلفظ "القاف" طاءً، للثغة في لسانه، ولذلك كان يلفظ "قَبا" "طَبا" ويكررها) بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي الحسنيّ العلويّ" المعروف بابن طباطبا خليفة ومن بعده "مُحَمّد بن مُحَمّد بن زيد بن عليّ زَيْن العابِدين بن الحسين بن علي الحُسينيّ العلويّ" لإضفاء الشرعية على حكمه.. حاول "الفضل" التصدي لهذه الثورة منفرداً ودون إعلام "المأمون" ذلك أن سياسته في توسيع رقعة التمكين لقومه من الفرس من آل سهل وحجبه للمأمون واستبداده بالحكم من دونه كان أحد أهم أسبابها واستفحال أمرها.. هزائم "الفضل" المتتالية أمام "أبي السرايا" ونجاح الأخير في تدعيم مركزه بأن صكّ الدراهِم، ووجّه وُلاةً عَنه وأرسل كسوة الكعبة باسمه جعلت "الفضل" يلجأ للقائد العسكريّ "هرثُمة بنُ أعيُن" متوسلاً، والذي قبل على مضض وقال قولته الشهيرة: "نوطئ نحن الخلافة ونمهد لهم أكتافها، ثمّ يستبدون بالأمور ويستأثرون بالتدابير علينا فإذا انفتق عليهم فتق بسوء تدبيرهم وإضاعتهم الأمور أرادوا أن يصلحوه بنا، لا والله ولا كرامة حتى يعرف أمير المؤمنين سوء آثارهم وقبح أفعالهم" واستطاع هزيمة "أبي السّرايا" وكان الأخير من غلمانه في الماضي، وقُتل الكثير من أصحابِه، ثمّ قبض عليه بعد ذلك،

وأرسل للحسن بن سهل والذي ضرب عنقه وأرسلها إلى المأمون... تلا ذلك محاولة من "هرثُمة بنُ أعيُن" لمقابلة المأمون وشرح ما خفى عليه من أسباب الفتنة؛ فأسرع "الفضل" يجهض هذه المحاولة وأقنع "المأمون" أنّ هرثُمة هو من حثّ "أبا السّرايا" على شق عصا الطاعة من البداية، وهو من أعانه على الهرب، وكان باستطاعته اعتقاله في التوّ.. ولفرط ثقة "المأمون" بالفضل صدّق روايته وضرب "هرثُمة" وأهين في قصر المأمون، ثمّ أوكل أمره للفضل والذي سجنه حتى مات قيل بالسم وقيل بالقتل... لكن "الفضل" وبنصحه للمأمون في تعيين الإمام "علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق الحُسيني الهاشِميّ" الملقب بالرضا، وكان زاهداً كولي عهد ومن ثمّ نزع السواد شارة العباسيين الشهيرة وإلباس الناس الخضرة وتزويج المأمون ابنته "أُم حَبِيب زَيْنَب" لعلي الرضا في الثّاني من رَمَضان **201** هـ/ الثّالِث والعُشْرُون مِن مارس **817** م وابنته الأخرى " أُمُّ الفَضْل" على ابنهِ "مُحَمد الجَواد" طمعاً في كسب ود العلويين والتخفيف من ثوراتهم قد أوقعه في كارثة مع البيت العباسي عصب دولته الذي رأى أنّ "المأمون" قد جنّ أو سحر في هذه الخطوة التي من شأنها أن تنقل دفة الحكم للعلويين على طبق من ذهب وتنهي الحكم العباسي في المستقبل القريب، مما أحدث شرخاً كبيراً في صفوف تأييد العباسيين لاستمرار حكمه، فأقدموا من فورهم على خلعه ونصّبوا بدلاً منه عمه "أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي بن عبد الله المنصور، العباسي الهاشمي القرشي (أخو هارون الرشيد وكان مغرماً بالغناء والطرب والعزف على الآلات الموسيقية)" ولقب بالمبارك.. كلّ هذه التطورات أخفاها "الفضل" عن "المأمون" .. جنّ جنون "المأمون" واستشاط غضباً حينما عرف بما أخفاه "الفضل" من اضطراب أحوال دولته وذلك

من "علي الرضا" الذي أخبره أنّ عمه "إبراهيم بن المهدي" قد بويع بالخلافة وأنَّ حرباً ضروساً تدور رحاها بينه وبين "الحسن بن سهل".. تفتّق ذهن "المأمون" أنّ خير سبيل لاستعادة تماسك دولته مرة أخرى هو التخلص من وزيره وولي عهده الاثنين معاً؛ فقتل "الفضل" في حمام سرخس (من بلاد خراسان) غيلة ولم يعر لسلامة نواياه تجاهه وإخلاصه له انتباهاً، فالسياسة لا تعرف العواطف وكذلك مات "علي الرضا" فجأة قيل من عنب مسموم، وكان طعامه الأثير وقيل من الإجهاد والتعب.. وكما يقولون في المثل: "يقتل القتيل ويمشي في جنازته" والجليّ أنّ "المأمون" كان يتقن أداء هذا الدور إلى حدٍ بعيدٍ، حيث رصد جائزةً ماليةً قدرها عشرةُ آلافِ دينار لمن يقبض على قتلة "الفضل" وكانوا أربعة من عرقيات مختلفة ليضيع دم "الفضل" هباء وهم: "غالب المسعوديُّ الأسْوَد، وقِسْطَنْطين الرُّوميّ، وفَرَج الدّيْلَمي، ومُوفّق الصّقلُبي" فلما جيء بهم ومثلوا بين الخليفة قالوا: "أنت أمرتنا بقتلِه" فأمر بهم فضربت أعناقهم.. وإزاء موت "علي الرضا" أظهر "المأمون" حزناً شديداً عليه وبقي أياماً لا يأكل ولا يشرب، وأمر أن يدفن بجوار أبيه "هارون الرشيد" وصلى عليه.. بوفاة الاثنين أرسل بالخبر إلى العراق داعياً بني العباس وأهل بغداد إلى دخول في طاعته ومع توارد أنباء عن قرب دخول "المأمون" بغداد بجيش ضخم فرّ "إبراهيم بن المهدي" إذ أيقن أن لا قبل له بملاقاة ابن أخيه "المأمون" وأنّ الجميع قد تخلوا عنه، ثمّ قُبض عليه مُتخفيًا في زيّ امرأةٍ مُنقّبةٍ مع امرأتين وعفا عنه "المأمون" وعيّن على شرطة بغداد "طاهر بن الحسين" وقد كان قتله للأمين شقيق "المأمون" من أعظم أخطائه التي جعلته في الظلّ، إذ أوجد ذلك جداراً من جفاء في نفس "المأمون" الذي لم يغفر له هذه الفعلة الشنعاء، وقد كان المأمون يريد

العفو عن أخيه، وقيل إنّ نهاية "طاهر" كانت بدسّ السّمّ له في "الكامخ ويعني المُخَلّلات المُشَهِّيَة".. طبيعة شخصية "المأمون" الغامضة والمتناقضة جعلت المؤرخين في حيرة لحسم مسؤولية "المأمون" عن حوادث القتل هذه بين مؤيد لضلوعه فيها ومعارض لها، ولكن يبقى هو الطرف الوحيد المستفيد منها بشكل مباشر ومؤكد.. فالمأمون في كتابات المؤرخين هو الخليفة الحافظ للقرآن بعد الخليفة الراشد "عثمان بن عفان" وكان في شهر رمضان يتلو ثلاثاً وثلاثين ختمة، وجلس يوماً لإملاء الحديث فاجتمع حوله القاضي المقرب منه "يحي بن أكثم" وجماعة فأملى عليهم من حفظه ثلاثين حديثاً.. كما كان يتبرك بأيّ أثر للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولو قطعة من العود أو خشبة يزعم صاحبها أنّ النبي مسها أو وضع يده عليها.. وكان يقدم العقل على النقل ومذهبه "أبو حنيفة النعمان".. سجايا كهذه كانت كفيلة برفع مقام صاحبها إلى منزلة رفيعة لدى العلماء المسلمين، ولكن العكس كان هو الصحيح إذ أقحم "المأمون" نفسه في مسألة "خلق القرآن" وكان في غنى عن كل ما آثارته هذه المسألة من خلاف بين العلماء، فاختار المواجهة على غير عاداته في امتصاص الغضب عبر المهادنة والاحتواء ومسك العصا من المنتصف ..

نعود للمأمون مرة أخرى وقصته مع "الحسن".. جهود "المأمون" لم تفلح في إسلال سخيمة قلب "الحسن بن سهل" المجزوع على فراق أخيه "الفضل"، فقد أصيب بمرض "السوداء" وتغير لون وجهه وعقله حتى شد في الحديد وحبس في بيت (ربما كان المقصود بهذا المرض السوداوية الأوبيّة (ميلانخوليا) أو الاكتئاب التراجعي، ومن أعراضه القلق والأرق وفقدان الشهية وفقد الوزن والمخاوف) مما اضطره إلى

اعتزال الوزارة والبقاء في منزله فكلف "المأمون" "أحمد بن أبي خالد" بدلاً منه وعلى الرغم من ذلك بقي "الحسن" أعلى الناس مكانة لدى "المأمون" يشاركه مجالسه في شرب نبيذ التمر بالقدر الذي لا يسكر (مذهب أبو حنيفة) كما كان الوزير الجديد يقصد خدمته في كل حين ..

من طرائف حياة "المأمون" الخاصة جواريه اللاتي اقترنَّ باسمه على الرغم من عدم توسعه في اقتناء الجواري واللاتي وصل عددهن لمئتين تقريباً في بعض الروايات وهو عدد متواضع إذا ما قورن بسابقيه ومنهن "عريب المأمونية" ويقال إنّها ابنة سرية لجعفر بن يحى البرمكي من إحدى جواريه تدعى "فاطمة" بيعت وهي صغيرة قيل من جانب أمها وقد عجزت عن تدبير نفقتها وقيل بعد وفاة أمها، وقيل من جانب امرأة أودعها لديها أبوها قبل نكبته وقومه من البرامكة وصارت جارية ذائعة الصيت تقرض الشعر وتغني بصوتها العذب وتجيد الضرب على العود في قصور الخلفاء العباسيين بداية من "الأمين" انتقالاً إلى "المأمون" ولما مات بيعت في ميراثه، ولم يُبَع له عبدٌ ولا أَمَةٌ غيرها، فاشتراها "المعتصم" بمئة ألف درهم وأعتقها ورغم ذلك ظلت تنتقل من خليفة إلى آخر من "المعتصم" إلى "الواثق" وبعده "المتوكل"، ولكن أبقت اسمها "عريب المأمونية" ومما يروى أن قلبها كان معلقاً برجل يدعى "محمد أو جعفر بن حامد" أحد جلساء "المأمون" فزوجها إليه وأمهرها عنه أربعمائة درهم، وولدت له بنت وقيل إنها كانت تعشق صالحاً المنذري، وتزوجته سراً في عهد "المتوكل".. ومن جواري "المأمون" أيضاً "مؤنسة المأمونية" وكانت رومية الأصل ويرجح أنها وصلت لقصره من خلال غزواته ببلاد الروم وحدث أن غضب منها "المأمون" ذات مرة فاعتذرت إليه بأبيات شعر تقول :

"قد كان عَتْبُك مَرّةً مكتوما
فاليومَ أصبحَ ظاهِرًا معلوما
نالَ الأعادي سُؤْلَهُم لا هُنِّئوا
لمّا رأونا ظاعِنًا ومُقيما
هَبْني أسأتُ فَعادَةٌ لكَ أن تُرى
مُتجاوِزًا مُتَفَضِلًا مَظلوما".

ويقال إنّ الغضب كان نابعاً من الرغبة الجنسية العارمة لمؤنسة وضعف "المأمون"، وأنها أنشدت ذات مرة: "ألا يا قصر(دار) كم تحوي (تحوين) من (ن.) ومن غلمه (تعني شهوة وشبق).. متى يرقع طيان ضعيف. مئتي ثلمه (تعني منكسر)" فواقعها المأمون..

استجابة الخليفة لمثل هذا الابتزاز الجنسي لو صحت الرواية تفتح الباب على مصراعيه لما يمكن أن يندرج تحت مسمى "المازوخيَّة الجنسيَّة **Sexual masochism** " واستحثاث الإثارة الجنسية عبر توجيه الإهانات ..

وإذا عارض البعض هذه الوجهة استناداً لرواية أحد النخاسين حول شروط "المأمون" الأدبية في انتقاء الجواري بقوله :"عرضتُ على المأمُون جارية شاعِرة فصيحة مُتأدِّبة شَطَرَنْجِيّة، فساومتُه في ثمنها بألفي دينار"، فاشترط المأمُون عليه قبل ذلك شُروطًا قائلًا: "إن هي أجازت بيتًا أقولهُ ببيتٍ من عندها اشتريتُها بما تقول وزُدتُك"، فنظر المأمُون إلى الجارية وقال في امتِحانها بالشِّعر:

"ماذا تقولين فيمن شَفّهُ أَرَقٌ
من جهد حُبّكِ حتى صار حَيْرانًا؟"

فأجابتهُ الجارية ببلاغتِها قائلة:

"إذا وجدنا مُحِبًا قد أضرّ بِهِ
داءُ الصّبابَة أوْلَيْناهُ إحسانًا"

فيا ترى ضم "المأمون" لجارية بقصره مثل "مؤنسة المأمونية" هل كان يخضع لمثل هذه المعايير؟! بالطبع لا وهي تصلح أن تضاف لمتناقضات "المأمون" العديدة.

توفي "المأمون" متأثراً بالحمى في **18** رَجَب **218** ه(**9** أُغُسْطُس **833** م) ورثته زوجته "بوران" ولا يعرف إن كانت أنجبت من "المأمون" أم لا قائلة :

"أسعداني على البُكا مُقْلَتيّا
صِرتُ بعدَ الإمامِ لِلهمّ فيّا
كُنتُ أسطو على الزّمانِ فلمّا
ماتَ صار الزّمانِ يَسطو عليّا".

ب- أغرب حوادث رمضان

تضمن السجل التاريخي لرمضان عبر الحقب الزمنية المختلفة حوادث ووقائع شديدة الطرافة والغرابة تتباين في جسامتها وتتنوع في وقع تأثيراتها على مراكز الحكم ورجال الدين وحياة العوام ونورد منها:

1-طائر يدعو للتقوى

أورد "عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح" في كتابه "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ومثله "عُمَرْ بْنْ أَحْمَدْ بْنْ هِبَةَ اَللَّهْ بْنْ أَحْمَدْ بِنْ يَحْيَ بْنْ زُهَيْرْ بْنْ أَبِي جَرَادَةَ اَلْعَقِيلِي اَلْمعروف بِابْنِ اَلْعَدِيم" في كتاب "زبدة الحلب في تاريخ حلب": أنّ طائراً أبيض (دون الرخمة أي النسر وفوق الغراب) وقع في "دلبة" بحلب فصاح: "يا معشر الناس، اتقوا الله.. الله.. الله "حتى صاح أربعين صوتاً ومثلهم في اليوم الثاني وكتب صاحب البريد بذلك مدعماً ذلك بشهادة خمسمائة إنسان سمعه . وذلك في يوم **7** رمضان **242** هوحتى نحكم على مثل هذا الحدث في سياق العلم فيمكن تفسيره في ضوء قدرة بعض الطيور على ترديد كلام وجمل البشر كالببغاوات وربما لجأ أحد المشايخ أو الصالحين لهذه الحيلة لجذب الناس ولفت الانتباه إلى ضرورة العودة لطريق الله وتقواه .وهذه الببغاوات كان لها وجود في حواضر العالم الإسلامي وقديماً قال أحد الشعراء عن الخليفةِ "أَبي العَبّاس أحمَد المُسْتعين بالله بن مُحَمّد المُعْتَصِم بن هارُون الرّشيد بن مُحَمّد المِهديّ اَلْعَبّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ" الذي سيطر عليه "بغا الكبير أبو موسى التركي": "خليفةٌ في قفصٍ بين وصيف وبغا ** يقول ما قالا له كما يقولُ البَبَّغا." في وصف له بالببغاء وزمن الخليفة "المستعين" لا يبتعد كثيراً عن زمن هذه الواقعة والتي

حدثت في زمن سلفه الخليفةِ "أَبِي جَعْفَر مُحَمّد المُنتَصِر بالله بن جَعْفَر المُتوكِّل بن مُحَمّد المُعْتَصِم بن هارُون الرّشيد اَلْعَبّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ". كما كان للببغاوات تواجد في بستان الخليفة القاهر بالله بفسحة جريب (أي مساحة فدان) مع عدد من الأطيار الأخرى المجلوبة من الأمصار كالقماري والدباسي والشمارير.

حديثاً فسر العلماء في جامعة "ديوك" الأميركية، من أنّ السر في قدرة الببغاوات الفريدة على تقليد أصوات البشر مقارنة بغيرها من الطيور تكمن في "الخلايا العصبية في القشرة المحيطة بالمراكز الصوتية في مخ الببغاء"والتي تساعد الببغاوات في التعلم السريع ومهارة أداء الأصوات.

لذا دائماً ما أقول "إذا حضر العلم فهم السبب وبطل العجب".

2-تكبيرات المأمون

في يوم الجمعة **14** رمضان عام **216**هـ، شهدَ جامعًا "بغداد" و"الرصافة" أول استحداث للتكبيرات الثلاث عقب الصلوات الخمس بأمر الخليفةِ العباسيّ "أبي اَلْعَبّاس عَبْدُ اَللّهْ اَلْمَأْمُون بن هَارُونْ اَلرّشِيد بن مُحَمّد اَلْمَهْدِي بن عَبْدِ اَللّهْ اَلْمَنْصُور اَلْعَبّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ" (قبل عامين من وفاته) والذي بعثه لنائبه على بغداد "إسحاق بن إبراهيم" .

وقد نقل "الحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي" في كتابه "البداية والنهاية" صدى هذه الخطوة غير المسبوقة وانقسام آراء العلماء حول هذه البدعة المستحدثة التي سنها "المأمون" بين مستحسن لها وأنّ لها ما يؤيدها بينما الجمع الأعظم رفضها لعدم استنادها لأي مسوغ شرعيّ .

يقول ابن كثير: "وهذه بدعة أحدثها المأمون أيضاً بلا مستند ولا دليل ولا معتمد، فإنّ هذا لم يفعله قبله أحد، ولكن ثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رفع

الصوت بالذكر كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم حين ينصرف الناس من المكتوبة، وقد استحبّ هذا طائفةٌ من العلماء كابن حزم وغيره. وقال ابن بطال: المذاهب الأربعة على عدم استحبابه. قال النووي: وقد روي عن الشافعيّ أنّه قال: إنما كان ذلك ليعلم الناس أنّ الذكر بعد الصلوات مشروع، فلما علم ذلك لم يبقَّ للجهر معنى. وهذا كما روي عن ابن عباس أنّه كان يجهر في الفاتحة في صلاة الجنازة ليعلم الناس أنها سنة، ولهذا نظائر، والله أعلم. وأما هذه البدعة التي أمر بها المأمون فإنّها بدعة محدثة لم يعمل بها أحد من السلف."

3-التسمي بملك الملوك

في رمضان عام **429** هـ، تلقب أمير البويهيين في العراق "جلال الدولة البويهي أبو طاهر بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي"، بشاهنشاه الأعظم أي "ملك الملوك" وذلك بأمرٍ من الخليفةِ العباسيِّ "أبي جَعْفَر عَبدُ الله القائِم بأمر الله بن أحْمَد القادِر بالله بن إسْحاق بن جَعْفَر المُقْتَدِر بن أحْمَد المُعْتَضِد بن طَلحة المُوفّق اَلْعَبّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ " الذي تردد في البداية في سابقة ظاهرة البطلان من الشرع إذ ورد في صحيحي البخاري ومسلم النهي عن هذه التسمية ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ". زادَ ابنُ أَبِي شيبَةَ في رِوايَتِهِ "لا مالِكَ إِلَّا اللَّهُ عزَّ وجلَّ". وعن أبي هريرة وابن عباس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اشْتَدَّ غضبُ اللهِ على من زعم أنّه ملِكُ الأملاكِ، لا ملِكَ إلا اللهُ".

وعلى هذا استند "أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي" في رفضه الإفتاء بذلك كما أثار هذا الأمر الاستياء بين العامة وقذفوا بالآجر الخطباء الذين امتثلوا لأمره بالخطبة له على المنابر باللقب الجديد .

لكن "جلال الدولة "استطاع تمرير لقبه الجديد عبر الحصول على آراء فقهية تعضد موقفه. جاءت الآراء المساندة لجلال الدولة تستند للقياس والتأويلات اللغوية للالتفاف على الأدلة المباشرة التي تتصادم مع رغبة "جلال الدولة"، وبحسب ما جاء في كتاب "المنتظم في تاريخ الأمم والملوك" لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي فقد كتبَ "أبو عبد الله الصيمري الحنفي": "أنّ هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية، وقد قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا)الآية **247** سورة البقرة وقال تعالى: (وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ) الآية **18** سورة الكهف، وإذا كان في الأرض طول جاز أن يكون بعضهم فوق بعض لتفاضلهم في القوة والإمكان، وجائز أن يكون بعضهم أعظم من بعض، وليس فيما يوجب التكبر ولا المماثلة بين الخالق والمخلوقين."

وجاء رأي "أبو الطيب الطبري": "أنّ إطلاق ملك الملوك جائز ويكون معناه ملك ملوك الأرض فإذا جاز أن يقال كافي الكفاة وقاضي القضاة جاز ملك الملوك فإذا كان في اللفظ ما يدل على أن المراد به ملوك الأرض زالت الشبهة، وفيه قولهم: اللَّهمّ أصلح الملك فينصرف الكلام إلى المخلوقين".

خشي "المارودي" على نفسه وكان قريب الصلة بجلال الدولة فانقطع عنه لكن "جلال الدولة" أبدى تسامحاً تجاه موقفه واستدعاه يوم العيد وقال له: "أنا أتحقق أنّك لو حابيت أحداً لحابيتني لما بيني وبينك مع كونك أكثر الفقهاء مالاً وأوفاهم جاهاً

وحالاً وما حملك على مخالفتي إلا الدين، وقد قربك ذلك مني وزاد محلك في قلبي، وقدمتك على نظائرك عندي".

وحتى نفهم هذا الحدث الغريب ومغزاه ومقدماته حريٌ بنا أن نبحر في سفينة التاريخ وأن نقترب بها من تاريخ البويهيين، و"البويهيون" طائفة حلت محل القادة الترك في بلاط الخلافة العباسية ويقال إنّ أصولهم من الفرس وقيل تحديداً من الساسانيين (نسبة إلى "بهرام جور بن يزدجرد بن سابور" شاه الفرس الساسانيين أو "بهرام جور بن يزدجرد بن سابور" أو "يزدجرد بن شهريار") وقيل من "العرب الديلم" من بني ضبة (نسبة إلى "بهرام بن الضحاك بن الأبيض بن معاوية بن الديلم بن باسل بن ضبة بن أد").

قامت الدولة البويهية أو دَوْلَةُ بَني بُوَيه في الشطر الغربي من "فارس (إيران)" على أكتاف ثلاثة أشقاء من أسرة بني بويه (كلمة فارسية تعني الأمل أو الرغبة) هم: "علي والحسن وأحمد". وكان الأب صياداً وهذا كل مصدر رزقه.. علوّ شأن هذه الأسرة بدأ مع التحاق أكبر الأشقاء "علي بن بويه" بالجندية ونظراً لشجاعته وكفايته الإدارية صار زعيماً لإحدى قبائل الديلم المهاجرة "شيرذيل أوندان" واستوطن إقليم فارس ودخل في خدمة ملك الدولة الزيارية "مرداويج" وقلده الأخير ولاية "الكرج" وهي ولاية صغيرة في أقصى الجنوب تقع بين "همذان" و"أصبهان" وبمرور الوقت أصبحت معقلاً للهجرة البويهية في المنطقة، لكن لا شيء يبقى على حاله ساكناً لمدة طويلة في عالم الحكم والسياسة، إذ سرعان ما دبّ الخلاف بين "علي" و"مرداويج" ففرّ "علي" إلى "أصفهان" ثم "شيراز" التي استقر فيها وجعلها قاعدة لتمدد حكمه بمفازاة عن القوى الكبرى السائدة في زمنه

(العباسيين والسامانيين والزياريين) وفي غفلة منهم ضم إقليم "كرمان" و"الأهواز" ثمّ طلب من الخلافة العباسية أن تمنحه الصفة الشرعية كحاكم للمناطق التي افتتحها مقابل ألف ألف درهم تدفع لخزانة الخلافة التي كانت في حاجة ماسة للمال وما أن تسلّم التقليد واللواء والخلع حتى قلب للخلافة ظهر المجن، ولم يعطهم ما اتفق عليه من مال فثارت ثائرة الخليفة ووجه جيشه لحدود "فارس" لتقع واقعة "أورجان" عام **323**هـ(**934**م) وينسحب الجيش العباسي ويخرج "علي بن بويه" أقوى وأمضى من ذي قبل .

كان وضع الخلافة العباسية في بغداد على أسوأ ما يكون.. القادة الأتراك في أيديهم السلطة الفعلية في شقاق والخلفاء العباسيين في الواجهة ليس لهم من الأمر شيء، والخزائن خاوية بعد استقلال الولاة بولاياتهم وامتناعهم عن دفع ما عليهم والبلاد في أزمة حقيقية على كافة الأصعدة .

وجد الخليفة العباسي "الراضي بالله" أنّ اختيار الأقوى من بين الأمراء المتصارعين على النفوذ وجعل دفة الأمور بيديه كفيل بكبح جموح الآخرين، فإذا بالعكس هو ما حدث تماماً .

إذ استعان الخليفة "الراضي بالله" بمحمد بن رائق والي "واسط" عام **324**هـ(**935**م) وجعله "أمير الأمراء"، فكانت من أولى قراراته إبطال الوزارة والدواوين وتولى هو وكاتبه كل الصلاحيات، كما غرق حتى أذنيه في صراع مع "أبي عبد الله الحسن البريدي" صاحب "الأهواز" انتهى بفرار الأخير إلى البويهيين بفارس بعدها بعام .

لكن لم يهنأ "ابن رائق" طويلاً بهذا الانتصار إذ سرعان ما انقلب عليه "أبو الحسين بجكم (تعني ذيل الفَرَس) المكاني" وتولى إمرة الأمراء وكان غريب الأطوار

يدفن الأموال الكثيرة في صناديق بالصحراء، ثمّ ينسى مكانها! وبعد وفاته عاد الصراع مجدداً مع عودة "البريدي" لمسرح الأحداث ومحاولته السيطرة على دار الخلافة، لكنّ الجند الديالمة حسموا الموقف لصالح قائدهم "كورتكين" والذي أصبح أمير الأمراء ليندلع صراع مرير بينهم وبين الأتراك، مما سهّل العودة لابن رائق ليصبح أمير الأمراء مجدداً.. لك أن تتخيل معي عزيزي القارئ سنة واحدة **329**هـ(**940**م) يتلاعب فيها أربعة قادة بمصير الخلافة التي أصبحت في أشدّ حالات الوهن وتحتاج إلى طوق نجاة ممثلاً في قائد قوي يعيد لها هيبتها وهو ما تحقق حيث خاطب قواد بغداد "أحمد بن بويه" للمسير لبغداد فدخلها دون مقاومة تذكر عام **334**هـ(**945**م) وخرج الخليفة "أَبُو القاسِمِ عَبدُ الله المُسْتَكفِي بالله بن عَلِيّ المُكْتَفِي بن أَحمَد المُعْتَضِد بن طَلحة المُوفّق بن جَعْفَر المُتَوكِّل اَلْعَبَّاسِي اَلْهَاشِمِيّ اَلْقُرَشِيّ " للترحاب به وخلع عليه ولقبه بمعز الدولة وأطلق على أخويه "علي" "عماد الدولة" و"الحسن" "ركن الدولة" لكن هذا لم يشفع للمستكفي إذ بعد أربعين يوماً من دخول البويهيين بغداد خلعوا الخليفة المستكفي بشكلٍ مذلٍ، حيث حضر معز الدولة "أحمد" ومعه اثنان من الديلم، وبينما يمد الخليفة يده لهم ظناً أنهم اقتربوا منه لتقبيلها حمله الرجلان وأنزلاه عن كرسيه وسحباه في قوة جعلت عمامته في حلقه واعتقل في دار معز الدولة وتم تولية "أبي القاسم الفضل بن المقتدر".

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل الخلافة العباسية في ظل سيطرة "البويهيين" الذين استلوا من الخلفاء كل امتيازاتهم وجعلوا حكمهم وراثياً كالخلافة سواء بسواء، وعسكروا مؤسسات الدولة وأصبحت أسماؤهم بجوار أسماء الخلفاء

في خطبة الجمعة، وكذلك السكة وفي قرع الطبول على أبوابهم في أوقات الصلوات الخمس كدار الخلافة، وأصبح الخلفاءُ العباسيون في ظلّ هذه الهيمنة التامة والمذلة، أصحاب سلطة اسمية ليس لهم من الأمر شيء، تحدد رواتبهم الشهرية من جانب البويهيين ولا سلطة لهم على بيت المال ولا على تعيين الوزراء ولا حتى الكتاب!

كما تلقّب الأمراء البويهيون بألقابٍ ملكيةٍ تضاهي لقب الخلافة وتعلوه مثل "شاهنشاه" أي "ملك الملوك" في تعظيمٍ جليٍّ لأصولهم الفارسية، وإحياء لأبهة الإمبراطورية الفارسية الغابرة وألقاب ملوكها ..

نأتي على ذكر محور خبرنا الرمضاني ألا وهو "جلال الدولة"، وقد كان الأضعف رأياً والأسوأ تدبيراً مقارنة بسابقيه، وهو ما يتجلى حتى في إرهاصات حكمه فحينما بويع بعد أخيه "شرف الدين" كان وقتها في البصرة، فلما طلب الجيش حضوره لبغداد امتنع فانقلبوا عليه وبايعوا ابن أخيه "أبي كاليجار بن سلطان الدولة" ملك فارس.. هنا سارع "جلال الدولة" للسيطرة على بغداد واستعادة حكمه وخرج الخليفة لاستقباله، وكانت فترته مليئة بالقلاقل خاصة مع العناصر التركية بالجيش الذي حاصر داره في بغداد عام **419**هـ، مطالبين برواتبهم وقطعوا عنه الماء حتى اضطر لبيع ثيابه وحلي نسائه وأعطاهم أثمانها.. ثمّ عادوا وثاروا عليه مرة أخرى عام **422**هـ، ونهبوا قصره، ففرّ إلى "عكبرا"، وبايع الأتراك "أبو كاليجار بن سلطان الدولة" مجدداً وكان بالأهواز، لكنه خذلهم فعادوا يعتذرون لجلال الدولة ويطالبونه بالعودة لبغداد، فعاد بعد ثلاثة وأربعين يوماً ..

في ظلّ هذا الوضع الفوضوي كان طبيعياً أن تكون "بغداد" حاضرة الخلافة ومركزها عرضة للسلب والنهب، فاستشرى لصوص الأعراب وقطاع الطرق في القرى، وحتى أطراف بغداد حتى وصلوا جامع "المنصور" وسرقوا ثياب النساء في المقابر، كما تمكّن الأكراد من نهب مزرعة الخليفة "القائم بأمر الله" وسرقة دواب الجنود وقد كانت علاقته بالخليفة في جفاء متصل لأنه أخذ منه أموالاً كانت مقررة للخلفاء من قبله. كما احتدم الصراع حول السيطرة على البصرة في عهده بينه وبين "أبي كاليجار بن سلطان الدولة".

ورغم كلّ هذا الضعف والوهن والتخبط استمر حكمه ست عشرة سنة وأحد عشر شهراً، وتسمى بملك الملوك كما أسلفنا! وتوفي "جلال الدولة" عام **435**هـ.

4-علامة كتابية خاصة بالخليفة

في رمضان عام **561**هـ، اعتمد الخليفة "أبو يعقوبَ يوسفُ بن عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي" صاحب المغرب وحاكم الموحدين بالأندلس علامة خاصة بالخلافة بخط يده للعمل بمقتضاها في خطوة أشبه بالعلامات المائية في زماننا ومن بعدها "الباركود" ونصها "والحمد لله وحده"، وجاءت أول رسالة في الثالث من رمضان من الوزير الكاتب "أبي الحسن بن عياش" ممهورة بعلامة الخلافة وموجهة إلى أخي الخليفة "السيد أبي سعيد" والطلبة بقرطبة وتنسخ إلى مختلف الأرجاء يوصي فيها الخليفة بأن تقيد الأحكام بالعدل وأن ترفع أحكام الإعدام له متضمنة أقوال المتهمين، سواء أكانوا ظالمين أو مظلومين، وحججهم واعترافاتهم وشهادة الشهود والعدول، وكذلك الحال في سائر المعاملات كاستحقاق الأموال والمناكحات (النكاح) واسترقاق الرقاب أو عتقها فألزم في البت فيها المطالعة والتدقيق للوقوف

على وجه الحق فيها. فلا يُراق دم ولا تُستباح أموال وحرمات إلا بوجه صحيح من الاستناد على النصوص والأحكام.

وقد اشتهر عن الخليفةِ "أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن" أنّه كان أديباً فصيح اللغة وحافظاً للقرآن وصحيح البخاري، وفقيهاً في المذاهب متحدثاً عنها ومفاضلاً بين أقوال أصحابها من الكتاب والسنة وكان دائم الغزو، وكانت له رسالة في فضل الجهاد في سبيل الله.

وكان أيضاً مهتماً بالفلسفة ومصاحباً لأبي بكر محمد بن طفيل الفيلسوف، ومناقشاً لأبي الوليد بن رشد في آراء الفلاسفة اليونان مثل: "أَرِسْطُوطَالِيس" و"أفلاطون" وردود أهل الإسلام عليهم، وقد استشهد في معركة "شنترين" متأثراً بجراح بالغة أصيب بها في ١٢ ربيع الأول ٥٨٠هـ(٢٤ يوليو سنة ١١٨٤م) وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاماً ودفن في مسقط رأسه "تينمل".

5- جزاء الملتزم وعاقبة شاهد الزور

من كتاب "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" لعبد الرحمن الجبرتي وتحديداً في اليوم الثالث عشر من رمضان عام **1109**هـ(**1697**م)، ثار الجند على الوالي العثماني "إسماعيل باشا" في مصر مطالبين بتسليمهم "ياسف" اليهودي ذلك أنه كان ملتزماً بدار الضرب في دولة "علي باشا المنفصل (في الأغلب المقصود "على باشا خازندار" الوالي السابق المعزول من قبل الباب العالي لسوء تصرفه أثناء المجاعة التي ألمت بالمصريين عام **1695**م، ودفعتهم للصعود للقلعة والصراخ حولها ورميها بالحجارة، فعمل على حجب السلع الأساسية فشحت في الأسواق وارتفعت أثمانها مما ضاعف من معاناة المصريين؛ فأكلوا الجيف ومات الكثير من الضعفاء من شدة

الجوع وراح الناس يتخطفون الخبز من الأسواق والأفران)، "ثم استدعي إلى إسلامبول (إسطنبول) لسؤاله عن الأحوال بمصر ومدى إمكانية زيادة الأموال المقررة والواضح أن "ياسف" ورط الخزينة المصرية في التعهد بتحصيلات أكثر من المعتاد وهو ما يعني فرضَ مزيدٍ من الضرائب وحضر إلى الديوان لمقابلة الوالي "إسماعيل باشا" محملاً بالأوامر السلطانية الجديدة الخاصة بالتحصيلات التي كان السبب فيها فأقره الوالي كالعادة المتبعة وتم النداء بذلك فاغتم الناس جميعاً وذهب التجار والأعيان للأمراء ناقلين شكواهم فصعد الأمراء والصناجق مطالبين بتسليمهم "ياسف" لعقابه، ولما حاول الوالي جدالهم ورفض تسليمه واكتفى بوضعه في "العرقانة (تعني السجن والترسيم)" ريثما يتخذ قراراً بشأنه فمضوا إلى السجن وأخرجوه وقتلوه ومثلوا بجثته حرقاً في الرميلة، وفي ذلك أنشد الشيخ "حسن البدري الحجازي" وهو بالمناسبة من علماء الأزهر المشتغلين بالتصوف، وكان يدرِّس عند الدكة القديمة لا يفارقه التشاؤم ويسيء الظن بالناس، ففرض على نفسه سياجاً من العزلة مع الناس عوضه بما كان يقرضه من الشعر للتأريخ للأحداث، ويمكن أن نعتبره "فاجومي" العصر المملوكي بحق فيقول في هذه الواقعة:

"بمصر حل يهودي.. قضى عليه الإله
فظ غليظ عنيف.. سوء كريه لقاه
بعشر صوم أتانا.. له جواد علاه
والناس تشتد سعيا.. أمامه ووراه
ومعه أمر وفيه.. ما قاده لرداه
من أن دينار مصر.. يغيرون حلاه

والقرش يبدل نقش.. فيه بنقش سواه
ليأخذ المال قهرا.. بالنقص مما حواه
فحين قص عليهم.. ما قصّ قصوا قفاه
بصارم ذى مقال.. أزال عنه عناه
وبعد ذا أحرقوه.. والعالمون تراه
حتى استحال رمادا.. فيه الهباء حكاه
يا بئس ذاك اليهودى.. يا بئس ما قد نحاه
يا نعم ما فعلوه.. به على ما جناه
يا نعم قوما عليه.. غاروا وحلوا عراه
لو افتلوه علانا.. واجتاحنا بوباه
وكان ثالث عشر.. من صومنا ما دهاه
بجمعة عطلوها.. في قلعة من بلاه
وموته أرخوه.. قد ذاق ما قد بناه
وقال ذا حسن من.. إلى الحجاز انتماه"

كما استدعى "إسماعيل باشا" الشيخ "محمد الزرقاني" أحد شهود المحكمة لأنه كتب حجة وقف لمنزل آل لبيت المال وأمر بحلق لحيته وتشهيره بالأسواق على جمل والمنادي ينادي قائلاً: "هذا جزاء من يكتب الحجج الزور"، ثمّ أمر بنفيه إلى جزيرة الطينة.

6-مدعي النبوة

في أوائل رمضان **1147**هـ(**25**يناير **1735** م تقريباً) ظهر رجل تكروري (نسبة لمملكة التكرور غرب أفريقيا) بالجامع الأزهر يدعي النبوة، وأنّ جبريل عليه

السلام نزل عليه في "شربين" وعرج به ليلة السابع وعشرين من رجب إلى السماء، حيث صلى بالملائكة ركعتين وقد أذن للصلاة جبريل وبعد أن انتهى من الصلاة أعطاه الأخير ورقة وأسر إليه أنه نبي مرسل وعليه تبليغ الرسالة وإظهار المعجزة. وبحسب رواية "الجبرتي" فقد عرض الرجل على الشيخ "أحمد العماوي" في البداية فاتهمه بالجنون وأمر بضربه والخروج من الجامع وبعدها عرض على "عثمان كتخدا" فأمر بإيداعه المارستان لكن الناس أخفوه فلما استدعاه الباشا أمر بحبسه ثلاثة أيام في "العرقانة"، ثمّ جمع العلماء في منتصف الشهر الفضيل ليستتاب فصمم على ما هو عليه من ضلال فأمر الوالي العثماني "عثمان باشا الحلبي" بتوقيع عقوبة القتل عليه (حد الردة) فقتل بحوش الديوان وهو يقول: "فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل" ثمّ ألقي به في الرميلة ثلاثة أيام.

وفي ذلك أنشد أحد الشعراء بقوله:

"واحد ظهر وادعى أنو نبي من حق.. وأنو عرج للسما وأنو اجتمع بالحق. وإبليس ضلو وصدو عن طريق الحق.. قم يا وزير البلد واحكم على قتله. أهل العلوم أرخوا هذا كفر بالحق"

7-فتنة الرجل الرومي

في العاشر من رمضان عام **1123** هـ(أكتوبر **1711**م تقريباً) جلس للناس بجامع "المؤيد" واعظ "رومي (تركي)" راح يستحث الناس على ترك البدع كزيارة قبور الأولياء وتعظيمها ووضع النذور بها وإيقاد الشموع وإشعال القناديل على هذه الأضرحة وتقبيل الأعتاب لما في ذلك من منكر داعياً ولاة الأمر لتحمل مسؤولياتهم في إبطال ذلك، كما انتقد ما ذهب له الإمام "الشعراني" في طبقاته من أنّ بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ وهو ما لا يعقل قبوله عقلاً، إذ إنّ

الأنبياء أنفسهم بمن فيهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يطلعوا عليه فما بالنا بالأولياء؟ ومع إعجاب الناس به والتفافهم حوله خاصة الأتراك راح يرفع سقف مطالبه بضرورة هدم هذه القباب وسرعة أن يضطلع ولاة الأمر بذلك لكن جمهوره لم ينتظر رأي أولي الأمر، بل ربما قطعوا به بأنه سيكون ضد دعوة واعظهم فقاموا من تلقاء أنفسهم بعد صلاة التراويح حاملين النبابيت والسلاح وانهالوا ضرباً على الفقراء البسطاء حاملي الشموع عند باب زويلة وقطعوا الجوخ والأكر المعلقة متحدين أن يتصدى لهم الأولياء.

بعد هذا الصدام لم تكن لتهدأ الأمور دون تصعيد مضاد من جانب العامة الذين ذهبوا لعلماء الأزهر حاملين ما قاله الواعظ الرومي، فاجتمع علماء المذاهب الأربعة: الشيخ "أحمد النفراوي" من المالكية، و"السيد علي" من الحنفية، والشيخ "أحمد الخليفي"، والشيخ "عبده الدوي" من الشافعية على أنّ كرامات الأولياء حق لا تنقطع بالموت وأنّ إنكاره إطلاع الأنبياء والأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز، وينبغي على ولي الأمر زجره وقتله.

ذهب الناس بفتوى العلماء ليواجهوا الواعظ في مجلسه ووسط أنصاره لتتقارع الحجج عياناً بياناً فاغتاظ الواعظ وقرر أن يحولها لمظاهرة مسلحة وصاح في جموعه ومؤيديه قائلاً: "يا أيها الناس إن علماء بلدكم أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم، وإني أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم في مجلس قاضي العسكر، فهل منكم من يساعدني على ذلك وينصر الحق؟" فردوا في نفس واحد: "نحن معك لا نفارقك"، فنزل عن الكرسي وخرج في حشوده التي زادت عن ألف شخص عصر التاسع عشر من رمضان قاصدين بيت القاضي الذي انزعج من المشهد وسألهم عن سبب

حضورهم فقدموا له الفتوى وطلبوا منه إحضار المفتين لإجراء مناظرة معهم حول فتواهم.. طلب القاضي أولاً صرف الجموع والتهدئة ومن ثم استدعاء المفتين.. طبعاً خشي المتظاهرون من تفرقة الحشود قبل أن يحصلوا على مبتغاهم، وطلبوا من القاضي رأيه في الفتوى.. طبعاً ليس أمام القاضي وسط تظاهرة كهذا سوى خيار واحد لا ثانٍ له وهو أن يجيب أن الفتوى باطلة، فطلبوا منه أن يكتب ذلك فحاول التنصل منهم قائلاً: "إنّ الوقت ضاق والشهود ذهبوا إلى منازلهم" فاعتدوا على ترجمانه؛ ففرّ القاضي واختبأ لدى حريمه وخشي نائبه على نفسه فكتب لهم ما أرادوا..

فلما كان اليوم التالي ولم يجدوا الواعظ في مكانه بجامع "المؤيد" انطلق مؤيدوه في مظاهرة ثانية لمجلس القاضي؛ ففرّ من في المحكمة ولم يبقَ غير القاضي الذي حملوه معهم مكرهاً للديوان لمقابلة الوالي العثماني "ولي باشا" فلما علم الوالي بأمرهم وأمر الواعظ وإكراه القاضي عى كتابة الحجة (الفتوى لصالحهم) فصرفهم الوالي على وعدٍ بإجابة مطالبهم، فيما دبر في قرارة نفسه أمراً آخرَ إذ وجد فيما حدثَ _من اعتداءٍ وتهديدٍ للقاضي_ تعدٍ سافرٌ على ركنٍ من أركان السلطة المركزية في البلاد، فدعا قادة العسكر واجتمع بالآغوات والصناجق في بيت الدفتردار واتفقوا على نفي الواعظ خارج البلاد، والقبض على أنصاره وعلى كل من تسول له نفسه الاعتراض على القرار والتجمهر ضده. وانتهت الفتنة بشكلٍ كاملٍ بعد اختفاء الواعظ بشكلٍ غامضٍ، وفي ذلك قال الشيخ "حسن الحجازي" "فاجومي" العصر المملوكي الذي أشرنا له آنفاً مؤرخاً لهذه الحادثة:

"مصر قد حلّ بها واعظ .. عن منهج صدق قد أعرض

أبدي جهلاً فيها قولاً .. منه الحبلي حالا تجهض
فأساء الظن بسادات .. أحكام الدين بهم تنهض
إذ قال لنا من أين لكم .. ختم بالخير لهم يفرض؟
وكرامات لهم انقطعت .. بالموت زيارتهم ترفض
وتهد جميع قبابهم .. ومرتبهم كلا ينقض
وعلى اللوح المحفوظ فما .. للهادي مطلع يعرض
وخرافات شتي الألسن .. بها إن فاهت شرعاً تقرض
وغلا واستوغل واستعلى .. وعلينا العسكر قد حرض
وإلى القاضي ذهبوا جهرا .. كي يكتب ما فيه فقبض
وبه نحو الباشا انطلقوا .. فارتاع وما عنهم أعرض
ولهم أمضى ما قد طلبوا .. أن يبقى الواعظ واستنهض
في الحال صناجق والأمرا .. في قمع أولئك واستحضض
فإذن قاموا معه صدقا .. وأزالوا كل من استعرض
والـواعـظ فـر وقـيـل قـتـل .. وعليه الخزي قد استربض
وكفانا الله مؤنته .. وله أرخ عيب أمرض
والبدري من يسمى حسنا .. يدعو من نافق أو يرفض
رمضان به ذا كان فلا .. بعدان يرمض من أبعض "

8-شكوى شعرية من أجل الحلوى

في رمضان عام **917**هـ(أي بين عامي **1511**م و**1512**م) والسلطان "قنصوه الغوري" على أريكة الحكم في مصر.. نظم المصريون شكوى للمحتسب من الارتفاع المبالغ فيه بأسعار الحلوى في هيئة قصيدة هزلية ضعيفة البناء لكن

قوية الدلالات والمعاني تعكس حب المصريين لأشكال الحلوى الرمضانية المتنوعة في زمانهم كالمشبك وأصابع زينب وست الحسن والكعك والكنافة والقطايف.. تقول:

"لقد جاد بالبركات فضل زماننا
بأنواع حلوى نشرها يتضوع
حكتها شفاه الغانيات حلاوة
ألم ترني من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيها غير أن محبها
يبدد فيها ماله ويضيع
فكم (ست حسن) مع (أصابع زينب)
بها كل ما تهوى النفوس مضيع
وكم كعكة تحكي أساور فضة
وكم عقد حلت بها البسط أجمع
وكم قد حلا في مصر من (قاهرية)
كذاك (المشبك) وصله ليس يقطع
وفي ثوبه المنقوش جاء برونق
فيا حبذا أنواره حين تسطع
وقد صرت في وصف (القطائف) هائماً
تراني لأبواب (الكنافة) أقرع
فيا قاضياً محتسباً عسى

ترخص لنا الحلوى تطيب ونرتع!!"

هذا الهوس بالحلوى له ما يبرره علمياً، فطعم السكر يعمل على إفراز "الإندورفين" الذي يمنح شعوراً بالراحة واعتدال المزاج، كما يعمل السكر على تحفيز الدماغ لإفراز "السيروتونين" و"الدوبامين" مما يعطي إحساساً بالنشوة والسعادة وبلوغ المكافأة ..

الكنافة تحديداً كانت ساحرة المعد وطعامها الأثير منذ أن قدمت للمرة الأولى لوالي الشام وقتئذ "معاوية بن أبي سفيان" وكان يعاني الجوع في رمضان (كان مريضاً بالسكري وكان شرهاً للطعام) فأشار عليه طبيبه "محمد بن آثال" بأكلها عند السحور (وصفة كارثية من الناحية الصحية إذ تؤدي لزيادة معدل السكر التراكمي لاحتوائها على نسبة عالية من السكريات والكربوهيدرات) .

وفي حب "القطايف" كانت تغزل الأشعار وتصنف الأحاجي وتوضع الألغاز ولعلّ أطرف هذه الألغاز عنها ما جاء في رسالة القاضي "زين الدين أبي كثير زيد بن عبد الرحمن المغربي إلى صلاح الدين الصفدي ":

"يا مولانا أثقل الله بفواضلك الكوامل، وأجمل بفضائلك الأوايل من الفضائل إن أمكنك أن تلمح هذا اللغز اللطيف، وتعطيه حظاً من سيال فكرك الشريف، تقلد المملوك بدماثة الفكر العميم، وتحل بورود لفظه كما يتحلى بوجود شخصه بين يدي سيد كريم: ما اسم يعتني الصائمون غالباً بتحصيله، وتتنافس الأكابر في جملته وتفصيله، خماسي الحروف في الترصيف والترتيب، سطح الشكالة في البساطة كرسي عند التركيب، إن حذف خمساه رأيته طائراً وسيماً، طالما قص الأثر

فاهتدى به وغالب في طرق اللؤم تميماً، وإن اختلس في أوله كان في النفور الحسنية كالبال في الليل البهيم، وفي سورة القلم ناراً أحرقت الجنة التي أصبحت كالصريم.

عزمت على إهدائه غير مرة
إلى بابك العالي فأمسكت عن قصدي
فقد قيل عادات البحاير إنهم
بإهدائه أولى فما جزت عن حدي
فأوضحه لي قولاً وإن شئت صورة
وإن شئت فارسمه فإني له أبدي"

فرد "صلاح الدين الصفدي" عملياً بصحن من "القطايف" ممهوراً برسالة تقول :

"أمولاي زين الدين منك مهندي
نداه وإن كان الصلاح عدا يهدي
بعثت بلغز قد حلا منك لفظه
فأجمل ذكر الفضل فضلاً عن الشهد
فسامح فقد أوضحته لك صورة
على أنه لا بد من شرح ما عندي

يا مولاي لغزك هذا بديع المعنى، بعيد المبنى، يترشفه السمع سلافة، ويتلقفه البصر ورد اختصاص أراد اقتطافه، فأغربت في قصده، وأحكمت عقد شده دلني على معناه حسن مبناه، وقرب التبيان من معناه، فلك الفضل في حله!".

لكن ما الذي دفع في تغير الأحوال وأن يتحول "السكر "مصدر سعادة المصريين ومباهجهم إلى إضافة جديدة لمعاناتهم؟

السبب يكمن في اتجاه المماليك الجراكسة في نهاية عصرهم ومنها عصر "الغوري" إلى التوسع في الملكيات الخاصة للأراضي الزراعية وطرح مساحات شاسعة من القرى التابعة للدولة وبيت المال للخصخصة لصالح الأفراد على اختلاف طبقاتهم مما أدى إلى خروج هذه الأراضي من حيز التخطيط الاستراتيجي للدولة المفترض والهادف لتحقيق الأكتفاء الذاتي من المحاصيل الأساسية كالسكر وهذا جلي في ضوء تباين رؤى المالكين من الأفراد واتجاهاتهم علاوة على ضعف السلطة المركزية المملوكية في التوجيه والإدارة، فالمالكون من العسكر مثلاً لا يعتمد دخلهم بشكل كبير على ما دخل في حوزتهم من إقطاعيات سواء أكان بالعطاء أو الشراء إذ لهم مصادر أساسية أخرى للدخل من عطايا السلاطين والتربح من أشكال الفساد المختلفة وهذا أدى إلى قلة اهتمامهم بزراعة أراضيهم وأثر بشكل كبير على الإنتاج الزراعي الإجمالي بالسلب، أما قطاع الملاك من العامة فمنهم من لجأ لوقف أراضيه المشتراة لأوجه البر خشية المصادرة أو للتهرب من الضرائب وهذه النسبة أيضاً لن يوجها بأي حال مراعاة احتياج البلاد من محاصيل معينة وبقيت قلة قليلة من الملاك الملمين بالزراعة وهم من بقوا على العهد رغم العوائق حتى حين.. هذا غير ما شاع في هذه العصور المظلمة من تشجيع الاحتكار وتعطيش الأسواق لفرض أسعار خاصة .

كل هذا صبّ في تدهور صناعة السكر ومعاصر القصب التي كانت مزدهرة في الماضي فأدى إلى ندرة المعروض من منتجات الحلوى مع ارتفاع أسعار المتوافر منها بشكلٍ كبيرٍ في الوقت ذاته..

تصور أنّ هذا الوضع كان في بلد ضم بين جنباته الإمام "الشافعي" الذي مازح ذات يوم مريديه بالقول: "ما أقمت في مصر إلا حباً بالقصب" وكانت مصر غنية بالسكر إلى حد إنفاق السلطان الناصر "محمد بن قلاوون" في حفل عرس ابنه الأمير "آنوك" **18** ألف قنطار من السكر أي ما يعادل **800** طن، ومن عظم هذه التجارة نجد بعض العلماء والقضاة يعملون في زراعة السكر وبيعه بالإضافة لعملهم في التدريس والإفتاء والوعظ ومنهم الواعظ بجامع عمرو بن العاص: "شرف الدين محمد بن يوسف السكري المصري" والذي كان يبيع السكر في حانوت وأبرزهم أيضاً قاضي قضاة المالكية "حسام الدين محمد بن أبي بكر المنفلوطي المصري" الذي توسع في زراعة أراضيه بمسقط رأسه في منفلوط بصعيد مصر بالقصب.. هذا حال النخب المعمّمة فما بالك بالأمراء وعلية القوم؟! وحسبنا أن نورد مثالاً منهم في شخص الوزير القبطي وناظر الجيش والخاص "علم الدين بن زنبور" والذي وجد عند حصر أملاكه تمهيداً لمصادرتها خمساً وعشرين معصرة سكر مملوكة له كانت بلا شك مصدراً هاماً من مصادر تضخم ثروته ..

9-المصاهرة المصرية الإنجليزية

في **29** رمضان **587** هـ(**20** أكتوبر **1191**م) أرسل "ريتشارد الأول" الملقب "قلب الأسد" ملك إنجلترا برسالة للملك العادل "سيف الدين أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي بن يعقوب بن مروان الدويني، ثم التكريتي، ثم الدمشقي الملقب بـالملك العادل أبي بكر" يعرض عليه المصاهرة عبر تزويجه من شقيقة "ريتشارد" الملكة (جوانا) أرملة ملك صقلية وبعد الزواج يصبح مستقر ملكهما بالقدس الشريف، حيث يعطيها "ريتشارد" بلاد الساحل التي في يده من عكا إلى

يافا وعسقلان وغير ذلك ويجعلها ملكة الساحل، في المقابل يعطي "صلاح الدين" أخاه الملك "العادل" ما يقع تحت سيطرته من بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل، وأن يسلم للصليبين "صليب الصلبوت أو الصليب الذي صلب عليه المسيح في عقيدتهم" بالقدس وتكون القرايا للداوية (فرسان المعبد وهي فرقة دينية عسكرية في موضع قرب المسجد الأقصى) والاسبتارية (فرسان القديس يوحنا) وترد لهم ممتلكاتهم والحصون لهما مع تبادل الأسرى من الجانبين. وافق "صلاح الدين" كما وافق "العادل" على هذه المصاهرة التي تتيح اقتسام السلطة على بيت المقدس بين الطرفين. المثير أن الرفض جاء من (جوانا) والتي أنكرت العرض ورفضته بشدة "وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك، وكيف تُمكن مسلماً من غشيانها" وذلك بإيعاز من القساوسة.. حاول "ريتشارد" إقناع "العادل" باعتناق الديانة المسيحية دفعاً للحرج الذي يواجهه في بلاده فلما رفض "العادل" وكان هذا متوقعاً عاد "ريتشارد" يعرض تزويج "العادل" من ابنة أخيه (أو أخته) "إليانور" وكانت بكراً ولا تحتاج موافقة البابا.. وهو يشير بجلاء أن فكرة المصاهرة على الأرجح كانت مناورة سياسية من "ريتشارد" يريد بها كسب الوقت وإطالة أمد المفاوضات وإلا لكان عرض "إليانور" منذ البداية ونأى بنفسه عن الدخول في معارضة رجال الدين في بلاده، وهو الأمر المستبعد أو المستحيل حرفياً مع كلا الخيارين في بلاد تشهد تعصباً دينياً دفعها للخروج في حروب صليبية متتالية ضد المسلمين.

هذا عن المصاهرات التي لم تتم.. فماذا عن التي تمت؟! ولعلك عزيزي القارئ قد ضججت بالتاريخ المغرق في القدم ولذلك سأنتقي لك مثالاً عن مصاهرة مصرية

إنجليزية وقعت بالفعل في الماضي ولكن ليس بالماضي البعيد.. في مجلة "التحرير" وتحديداً العدد **62** في **22** يونيو **1954**م تحدثت المجلة عن تفاقم الخلافات بين الإنجليزي المسلم المقيم في لندن "جيمس هيورت دن" وزوجته المصرية " فاطمة عبد اللطيف" والتي هربت منه فأبلغ البوليس عنها ..

تبدأ حكاية "جيمس" والمعروف بين رواد المقاهي في حي الأزهر بالشيخ "جمال الدين" في فترة الحرب العالمية الأولى حيث حضر لمصر كجندي في صفوف الحلفاء، ثمّ ألحق بالبوليس المصري "كونستابلا" وعن طريق موظف مصري كبير بوزارة المعارف ألحق بوظيفة مدرس للغة الإنجليزية بمدرسة طنطا الثانوية وسط ترحيب من المستشار الإنجليزي للمعارف. مرت الأحداث سراعاً حيث اعتنق "جيمس" الإسلام أو هكذا أظهر وأتقن اللهجات العربية وتزوج من ربيبة الموظف المصري الكبير.. وفي فترة الحرب العالمية الثانية أشرف على إدارة المخابرات البريطانية بالقاهرة وأصبح مستشاراً خاصاً للجنرال "ويفل"..

تزوج "جيمس" من ممثلة مصرية معروفة غير أنّ الزواج لم يدم طويلاً ليتزوج بعدها من "فاطمة عبد اللطيف" التي نحن بصدد قصتها وذلك عام **1941**م وتكفلت وزارة الخارجية البريطانية بدفع تكاليف حفل الزواج الذي تكلف خمسة آلاف جنيه .

في أثناء حرب "العلمين" وقوات "روميل" على الأبواب بدت تصرفات "جيمس" غريبة إذ دعا الفقهاء ومقرئي القرآن لقراءة عدية يس طوال الليل لنصرة "مونتجمري" ضد خصمه "روميل" مقابل خمسة جنيهات لكل منهم.. الطريف أنه

وبعد تحقق الدعاء وانتصار الحلفاء بأيام قليلة هرع أكثر من خمسمائة مقرئ إلى منزله لقبض الخمسة جنيهات ثمن دعائه .

في أعقاب الحرب استغنت عنه إدارة المخابرات البريطانية فعاد للندن وبصحبته زوجته "فاطمة" ليعمل مدرساً للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية.. وسرعان ما استطاع أن يقنع شركة الزيت الأمريكية العربية "أرامكو" بافتتاح مدرسة في "نيويورك" لتعلم اللغة العربية وتاريخ العرب وعاداتهم ولهجاتهم وقوانينهم العرفية، وذلك لمنسوبي الشركة الموفدين للعمل بالسعودية ليكونوا مؤهلين لمباشرة عملهم بشكل سريع ومتقن..

في "نيويورك" تعرض "جيمس" لعملية نصب من أقارب زوجته الذين أقنعوه بتأليف شركة لاحتكار اختراع جديد.. عبارة عن إشعال نوع من السجائر بدون كبريت، وذلك عبر الضغط على ركن معين في غلاف العلبة لتشعل اللفافة من تلقاء نفسها واتضح له بعد ذلك أنّ الاختراع وهمي وأنه وقع ضحية لعملية خداع من أقارب زوجته فرفع عليهم قضية أمام المحاكم المصرية..

ترك "جيمس" إدارة المدرسة العربية في "نيويورك" فجأة وبدون مقدمات وقدم لمصر مجدداً بصفة مستشرق ومؤلف في الظاهر وفي الباطن جاسوس مستتر وكان ظهوره في حريق القاهرة الشهير في **26** يناير **1952**م، مثيراً للشكوك والريبة حوله وبعد ثورة **1952**م، تم طرده من مصر والعجيب أنه استطاع إقناع زوجته بالعودة معه للندن على الرغم من استحكام الخلاف بينهما في المحاكم وقت وجوده في مصر ..

ج. طرائف الأمير وحكمته وغرائبه في ذكرى ميلاده ودخوله مصر

يعد "أبو العباس أحمد بن طولون" مؤسس الدولة الطولونية أكثر حكام مصر ارتباطاً برمضان فأكثر مناسباته كانت في الشهر الفضيل فجاء مولده في **23** رمضان **220** هـ(**835**م) لأب من أتراك "القفجاق" يدعى "طولون أي البدر الكامل" من مماليك "نوح بن أسد الساماني" عامل بخاري وخراسان أهداه الأخير بدوره إلى الخليفة العباسي "المأمون" عام **816**م، فأعجب به وولاه رئاسة الحرس لمدة عشرين عاماً، ولقب بأمير الستر وأم جارية تدعى "قاسم" أو "هاشم" وقيل كان ابن لأبيه "طولون" بالتبني.. كما دخل مصر للمرة الأولى نائباً عن زوج أمه القائد التركي "بايكباك أو باكباك" في **7** رمضان **254**هـ(**868**م) ومن بعده حماه "يارجوخ" والذي قال له: "تسلم من نفسك لنفسك، أي امضِ في طريقك كما تشاء" وبذلك استطاع بالتدريج أن يؤمن لمصر استقلالاً جزئياً عن الخلافة العباسية وأن يؤسس ملكاً له ولأسرته من بعده فشيد عاصمته "القطائع" في شعبان عام **256**هـ(**870**م) كما سك الدنانير الذهبية تحمل اسمه ولم يحذف اسم الخليفة العباسي المعتمد على الله. وفي **12** رمضان عام **265**هـ(**879** م) جاء بناء مسجده الجامع الشهير ثالث الجوامع الإسلامية في مصر بعد جامع عمرو بن العاص (بني في الفسطاط) وجامع العسكر (بني في مدينة العسكر) وهو أول من سن تحديد ساعات العمل للعمال حتى صلاة العصر فقط ..

من طرائف ما يروى عنه أنه خرج ذات مرة في قاربه وبصحبته خادمه "نسيم" فوجد شيخاً صياداً ومعه ابنه صبي وتبدو من هيئتهما الرثة وملابسهما البالية أمارات الفقر المدقع فرق لحالهما وأمر خادمه "نسيم" أن يدفع للصياد الشيخ عشرين ديناراً ..

ما أن قفل ابن طولون راجعاً حتى وجد الصياد ملقى على الأرض مفارقاً الحياة وبجواره ابنه يبكي ويصيح فظن "ابن طولون" أنّ أحداً قتل الصياد طمعاً في دنانيره فذهب لاستجلاء الأمر بنفسه وسأل الصبي عما حدث، فقال الصبي وهو يشير للخادم "نسيم": "هذا الرجل وضع في يد أبي شيئاً ومضى فلم يزل أبي يقلبه من يمينه إلى شماله ومن شماله إلى يمينه فسقط ميتاً". ولعلّ الرجل المسكين مات من فرط فرحته بالمال الذي هبط عليه من السماء، فلم يحتمل قلبه هذه المفاجأة، ففارق الحياة ذلك أن ردة فعل القلب عند الفرح الشديد تتشابه تماماً مع ردة فعله عند الحزن الشديد (متلازمة اعتلال القلب المنكسر "**Takotsubo**" أو جرة الأخطبوط في اللغة اليابانية) حيث تزيد هرمونات التوتر والإجهاد مثل "الأدرينالين" مما يؤثر على القلب فتزيد من قوة تدفق الدم وترفع دقاته بشكل مؤقت ومفاجئ ويصاحب ذلك عدم قدرة عضلة القلب على القيام بعملها بانتظام فتصاب بالضرر ويشعر المريض بألم في الصدر وصعوبة في التنفس وفي حالات نادرة تؤدي للوفاة..

أمر "ابن طولون" غلمانه بتفتيش الصياد الميت ولعله أراد أن يستوثق من رواية الصبي ومدى صدقها فوجدوا الدنانير في جيبه ولما هم "ابن طولون" أن يدفع بالدنانير للصبي رفض بشكل قاطع قائلاً: "أخاف أن تقتلني كما قتلت أبي".. هنا

فطن "أحمد بن طولون" لما قصده الصبي فقال معلقاً: "الحق معه فالغني يحتاج إلى تدرج وإلا قتل صاحبه ".

لا تستقل عزيزي القارئ بقيمة هذه الدنانير وكونها ثروة قد حلت بالرجل ذلك أن الدينار الأحمدي الذهبيّ ذاعت شهرته في زمنه لأنه الأقرب إلى الوزن الشرعي للدينار **4,25** جرام كما أن عياره كان الأعلى بين ما عرفته الدنانير الإسلامية عبر عهودها إذ كان يصل إلى **23,5** قيراط، وذلك بفضل حركات التعدين النشطة في عهده في صحراء العلاقي بالصحراء الشرقية وحتى جنوب شرق أسوان وقيل إنّ إصراره على دقة صنع ديناره بمواصفات قياسية نابعاً من رغبته في منافسة دنانير من أجود العيار عثر عليها في حوض أثناء الحفر بجوار الأهرام فتشدد أن يكون ديناره مثله .

والحقيقة أننا لو أسمينا "أحمد بن طولون" بالحاكم "المحظوظ" أو "المرزق" لن نكون في ذلك قد جنحنا للشطط أو نطلق مسميات على عواهلها دون أن تصيب كبد الحقيقة والحقيقة الجلية أن الرجل كانت الكنوز المخبأة تسارع في أثره وتتبع خطاه ففي رحلة له نحو الصعيد وبينما هو ممعنٌ في رمال الصحراء الممتدة ساخت قدم فرس لأحد غلمانه في رمالها، وإذا بنفق فتح فيه ألف ألف دينار استخدمها في بناء "البيمارستان الطولوني" بجوار جامعه (أي المستشفى وقد أُنشئ عام **259** هجرية (**872**م) بتكلفة **60** ألف دينار وخصص لعلاج العامة من المصريين بالمجان وكانت دلالات شفاء المريض قدرته على تناول دجاجة ورغيف خبز) بعد أن استأذن الخليفة "المعتمد" في بغداد كما أصاب بعده مالاً عظيماً "الكنز" فبنى منه جامعه ولذلك لا نستغرب أن لوحة التأسيس لجامعه قد حملت "أمر الأمير أبو

العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين أدم الله له العز والكرامة، والنعمة التامة في الآخرة والأولى، ببناء هذا المسجد المبارك، الميمون من خالص ما أفاء الله عليه وطيبه، لجماعة المسلمين ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة، وإيثاراً لما فيه تسنية لدين، وألفة المؤمنين، ورغبة في عمارة بيت الله وأداء فرضه، وتلاوة كتابه، ومداومة ذكره" وجاء كذلك ذكر قوله تعالى في سورة النور: (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (**38**)).

ومن طرائف ما يروى عن طريقة تربيته لابنه "العباس" من أنه أرسل ذات يوم في منتصف الليل يطلب كاتب ابنه "العباس" ويدعى "عبد الله بن القاسم" فأقبل الأخير خائفاً مذعوراً وربما خشي أن يكون على مقربة من الموت أو العقاب لوشاية من حاقد أو حاسد كطبع تلك الأزمنة.. مضى الكاتب في أثر الحاجب حتى وصل بيت مظلم فأمره الحاجب أن يسلم على الأمير فسلم فقال له "أحمد بن طولون" والظلام يظلل مكانه: "لأي شيء يصلح هذا البيت؟"، فقال الكاتب وكأنه لم يجد تفسيراً آخر لهذه الحالة: "لــلفــكر". قال "ابن طولون" مستفسراً وكأنه يختبر ذكاء كاتبه: "ولــم؟". قال الكاتب: "لأنّه ليس فيه شيء يشغل الطرف بالنظر فيه". قال "ابن طولون" مبتهجاً: "أحسنت!".. ثم مضى يأمر الكاتب بأن يحضر له ابنه "العباس" وأن يمنعه تماماً من الطعام حتى يصل إليه ليأكلا معاً، وكان "العباس" لا يصبر على الجوع وهم أن يأكل شيئاً يسيراً قبل ذهابه إلى أبيه لكن الكاتب منعه امتثالاً لأمر سيده.. كان "العباس" يتضور جوعاً وما أن وضعت أمامه البقول المطبوخة الباردة حتى التهمها عن آخرها، ولم يبالِ حتى شبع وكان الأب يجلس ولا يشاركه الطعام وما أن انتهى "العباس" من الأكل حتى أمر "ابن طولون" بإحضار

مائدة أخرى فيها كل ما لذّ وطاب من الأطعمة: الدجاج والبط والجدي والخروف وانطلق الأب منبسطاً يأكل بينما ابنه "العباس" يمنعه شبعه الشديد من مشاركة أبيه هذا الوليمة العامرة وهنا قال له "ابن طولون" معلماً: "إنني أردت تأديبك في يومك هذا بما امتحنتك به، لا تلقِ بهمّتك على صغار الأمور بأن تسهل على نفسك تناول يسيرها فيمنعك ذلك من كبارها، ولا تنشغل بما يقل قدره فلا يكون فيك فضل لما يعظم قدره"..

لكن الواضح أنّ جهود "أحمد بن طولون" لتعليم ابنه "العباس" لم تنجع وذهبت أدراج الرياح وهذه سنة الله في خلقه فهو عزّ وجلّ لا يمنح عباده كل شيء، قال تعالى في سورة الشورى: (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27)).

وحدث أن خرج "أحمد بن طولون" إلى الشام لإخضاعها بعد وفاة واليها "أماجور" واستخلف على مصر ابنه الأكبر "العباس" وأوكل تدبير شؤون البلاد للوزير "أحمد ابن محمد الواسطي" غير أن "العباس" طمع في الملك أثناء غياب أبيه وأغراه بذلك بعض رفقاء السوء ومنهم قادة مضمرين الشر بأبيه، فنصحه الوزير بطاعة أبيه فامتهنه وقبض عليه وقيده.. ثمّ خشي "العباس" أن يكون الأمر قد وصل لأبيه فتظاهر أنّه خرج إلى الإسكندرية بأوامر من أبيه وفرّ إلى "برقة" حاملاً معه ما في خزائن الدولة من أموال وعليها ما اقترضه من أموال كبار التجار بضمان والي الخراج ومعه "الواسطي" مكبلاً في الحديد وذلك عام **265** هـ(**879**م)، فلما عاد "أحمد بن طولون" إلى مصر حاول استرضاء ابنه وبعث إليه وفداً ضم القاضيين "بكار بن قتيبة" و"الحسين بن عبد الرحمن القاضي المعروف بابن الصابوني

الأنطاكي الحنفي" لإقناعه بالعدول عن عصيانه والعودة مقابل العفو عنه، ولما لم تفلح هذه الخطوة وجه جيشه إلى أفريقية للقضاء على حركة عصيان ابنه "العباس" والذي أنفق كل ما اختلسه من مال وانكسر وحمل إلى مصر حيث أمر أبوه بضربه وسجنه مقيداً وظلّ في السجن حتى مات والده وتولى خلفاً له أخوه "خمارويه ابن أحمد بن طولون" ولما رفض "العباس" مبايعته أمر بقتله..

ومما يروى أن علاقات وطيدة عميقة الدلالة شديدة الأثر ربطت بين "أحمد بن طولون" بالرهبان المصريين وكان دائم الزيارة لأديرتهم ومنها دير القصير (في الطريق لحلوان وقريب من المعصرة) ويخلو ويعتكف بها وكان يأنس بالراهب " أنطون منية أندونة " ودائم الحديث معه.. ويقال إنّه نصحه ذات مرة في التخلي عن الشهوات والبعد عن الدنيا وهي مقبلة لا وهي مدبرة والحقيقة أني أختلف مع فلسفة الزهد هذه والذي اصطنع البعض صلتها بالمفهوم الإسلامي، إذ أن الزهد في السياق الإسلامي لا يعني فقط التخلي عما تملكه وما هو واقع في قبضة يديك بل وما تشرع في امتلاكه أو حتى لديك النية تجاهه، ولكن تفتقد القدرة عليه فالزهد في الإسلام حتى وإن أعيتك الحيل في نيل الشيء فزهدته أو لم تواتيك القدرة عليه فتوقفت عن طلبه فجوهر الإسلام وحقائق الأشياء فيه تقضي بالاستسلام لإرادة الله وأنه الأعلم بما يفيد المرء وما يضره في دينه ودنياه وتسليم المرء بذلك قمة الزهد والطاعة والرضا فالصحابة والتابعين الذين تركوا فتن الدنيا في أواخر حياتهم لم يكونوا جميعاً على نفس الدرجة من المنزلة لدى أصحاب الفتن فيكونوا أوراقاً رابحة في أيديهم لحسم المعارك لصالحهم ومع ذلك فروا بدينهم جميعاً بدرجاتهم المتفاوتة يبغون عفو الله ورضوانه وهم عند الله أعلى وأعظم وهذا

هو مفهوم الزهد في التصور الإسلامي، فهو التزام بالشرع وهذا قمة الثراء واستغناء عما سواه وهو قمة الزهد، وليس امتلاك الأشياء والقدرة على الأفعال والإتيان بها ومن ثم تركها ..كما كان حاجبه الخاص قبطياً يدعى "أبا الذؤيب (يقال اسمه نعيم)" يرافقه كظله في جميع أحواله ويستشيره في بعض الشؤون..

ومن طريف ما يزعمه البعض أن عصر "أحمد بن طولون" كان البداية للماسونية في مصر وأن المهندس القبطي الذي تولى بناء جامعه كان أحد البنائين الأحرار وهو المهندس القبطي "سعيد بن كاتب الفرجاني" وكان من الشرقية والذي اعتمد على بنائين أوروبيين ماسونيين فارين من بلادهم وصفهم بالأعزاء!! وهي محض توهمات لا دليل جازم عليها.

وعلى عكس ما يشاع عنه فقد كان ميالاً لتمكين المصريين في الجهاز الإداري لدولته حيث حدث أن كان كاتبه "أحمد بن محمد الواسطي" في مهمة بالعراق وأوكل بعمله كاتب مصري يدعى "جعفر بن عبد الغفار" ولما قيل له أن مستواه دون "الواسطي" قال:"أنا أحتمله وأقنع به لأنه مصري".

لكن تظل أكثر جوانب شخصية "أحمد بن طولون" غرابة هي حدسه وفراسته التي كانت موضع إجماع معاصريه مما عاونه على توطيد مركزه وكشف جواسيس الخلافة العباسية والتخلص منهم وكان "ابن طولون" في ذلك يحمل وجهاً لا يعرف الرحمة أو الهوادة مع مناوئيه أو من يشتم منهم رغبة في الانتقاص من صلاحياته أو الانقضاض على حكمه.

حينما جاء "أحمد بن طولون لمصر" كانت السلطة فيها منقسمة بين ثلاثة مراكز للقوى السياسية يتجسسون على بعضهم البعض أولها: "منصب وكيل الوالي" وقد آل

إليه ويأتي بعده: "منصب عامل البريد" وكان عليها "شقير الخادم" مولى "قبيحة" أم الخليفة المعتز بالله وهمزة الوصل المباشرة مع الخلافة وآخرها: "منصب القاضي" وعليه "بكار بن قتيبة".. استطاع "أحمد بن طولون" عبر عيونه في قصر الخلافة العباسية ومنهم الوزير "الحسن بن مخلد بن الجراح (ذو الوزارتين)" أن يطلع على جل المؤامرات التي تحاك من وراء ظهره ومنها شكاوى مرسلة من عامل البريد "شقير" والذي مثل أهم وأخطر جواسيس الخلافة لذا أسرع "أحمد بن طولون" للتخلص منه فأرسل رجال شرطته لإحضاره من بيته على قدميه جرياً وكان "شقير" رجلاً بديناً فلما مثل بين يدي "ابن طولون" كان قد أصابه الإعياء الشديد فأمر الأخير بضربه بالسياط وهو يستغيث من الألم حتى أصبح جلياً أنه موشك على الهلاك وبينه وبين الموت سويعات فأمر "ابن طولون" بالإسراع بحمله إلى داره راكباً ليموت هناك ولما مات أرسل الشهود لداره للإقرار بأنه مات بشكل طبيعي بدون سبب غير حضور أجله! أما "أحمد بن المدبر" صاحب الخراج، فقد كان الخلاص منه قدرياً إذ ولاه الخليفة خراج الشام وخرج من مصر بشكل نهائي لكن "ابن طولون" وأثناء حملته على الشام التي أشرنا لها آنفاً أرسل إليه رسولاً يدعى "إينح" احتال عليه وخدعه وأحضره لابن طولون فحبسه حتى فقد بصره ومات ولم تشفع له ضياعه العظيمة التي منحها له يسترضيه وتزويج ابنته لابنه "خمارويه".. كما قبض أيضاً على "الحسن بن شعرة" مضحك الخليفة المتوكل ومن بعده "ابن المدبر" في مصر وعرف بتندره على "ابن طولون" ومات تحت السياط. ومما يروى أنه ألقى بالشيخ "أبي الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الحمال" إلى السبع (الأسد) لمجرد أنه جرؤ أن يعظه فجعل السبع يشمه ولا يضره..

هذا خبر كبار خصومه والجواسيس عليه فما بال الصغار هل لم تطالهم قبضته؟!
من طريف ما يروى عنه أنه رأى ذات مرة من شرفة قصره جنازة فأمر بإحضار النعش ومن فيه ولما فتح أمامه صاح في الجسد المسجى أمامه قائلاً: "قم يا متماوت" ثمّ دعا بالسياف وقال: اضربه، فنهض الميت من نعشه وقد انكشف سره فقال له "ابن طولون": "أنت متجسس من ناحية أحمد (يقصد الأمير "أبو أحمد الموفق العباسي" وكان بينهما صراع)؟" قال: "نعم!" قال: "لو لم أتقدم إليك لقتلتك وقتلت من معك، وأمر من أخرجهم عن عمل مصر."
لما سئل "ابن طولون" كيف علم بأمره؟! قال: "رأيت القوم ليس عليهم كآبة من مات له ميت، ورأيتهم يطوفون بالقصر، ونظرت إليه في النعش فرأيت رجليه قائمتين ورجل الميت تسترخي؛ فحكمت أنه حي، فلما حضر رأيته يسارق النفس (يتنفس صعوداً وهبوطاً) فصحت القضية"!..
كانت نهاية "ابن طولون" الأكثر طرافة في كل ما سبق إذ خرج مقاتلاً "بازمار أو يزمان الخادم" الذي استولى على حكم "طرسوس" التابعة له والذي فتح نهر البردان "نهر طرسوس" على قوات "ابن طولون" فاضطر للانسحاب وعلى إثر إسرافه في شرب لبن الجواميس والواضح أنه كان ملوثاً أصيب "ابن طولون" بالقيء والإسهال الشديد جراء إصابته بالهيضة "الكوليرا" ولا أستبعد أن تكون مياه النهر الملوثة هي المسؤولة عن وفاة "ابن طولون" بالكوليرا (كسلاح بيولوجي). وقيل إنّ طبيبه المسيحي "سعيد بن توفيل أو نوفيل" نصحه بعدم تناول الغذاء ليومين لكنه لم يستمع لنصحه وأثقل في الطعام فأكل خروفاً ودجاجاً (طبعاً اللحوم الدهنية تزيد من خطورة الإسهال) فساءت حالته ونقل على محفة يحملها الرجال عبر البحر في

طريقه لمصر وهناك هدد أطباءه وفيهم "الحسن بن زيرك" بضرب أعناقهم قبل موته إن لم يعالجوه على الوجه السديد، ولما اشتد به المرض خرجت جموع المصريين من مسلمين بمصاحفهم ويهود ومسيحيين بالتوراة والإنجيل والمعلمون بصحبتهم الصبية من تلاميذهم إلى الصحراء للدعاء له في مشهد فريد وكانت آخر دعواه "يا رب ارحم من جهل مقدار نفسه وأبطره حلمك عنه" ليلقى ربه في **10** ذو القعدة **270** هـالموافق **10** مايو **884**م.




القسم الثاني

قصص الأمكنة

1- جامع البنات

إذا راودك الحنين أن ترقب عن كثب صفحة مصر ومداد قرون طويلة من الحضارة عبر بحور التاريخ.. فأنت بلا شك على موعد تتعانق فيه أصالة وعراقة الأثر الخالد مع بساطة الناس وسجاياهم الطيبة وتستشعر وكأنّ أرواح من رحلوا من صناعها لا تفارق هذه الأماكن العتيقة التي كانت في بؤرة الأحداث يوماً ولا تزال ومن الأماكن الساحرة التي تطوف بك عبر التاريخ منطقة "الدرب الأحمر" أقدم مناطق مصر التاريخية ومتحفها الإسلامي المفتوح بما تحتويه من خمس وستين أثراً إسلامياً بين مساجد ومنازل وأسبلة وغيرها، تؤرخ لسيرة السلاطين وحياة العوام من الناس عبر حقب ممتدة شديدة التنوع والثراء يفوح منها عبق الحكايات الشيقة وتتناثر بين دروبها الروايات المثيرة ..

يرجع البعض السبب في تسمية المنطقة بالدرب الأحمر نتيجة مذبحة القلعة يوم الجمعة **1** مارس عام ١٨١١م التي تخلص فيها "محمد علي باشا" والي مصر من خصومه المماليك وتحولت المناطق المحيطة بالقلعة ومنها هذه المنطقة إلى حمامات تنضح بالدماء حتى اصطبغت الأرض بلونها الأحمر غير أنّ هذا الربط أصبح من الوهن بمكان بعد الفحص والتمحيص لكثير من الوثائق المملوكية والعثمانية بواسطة الباحثين التي تشير لورود هذا الدرب باسمه "الدرب الأحمر" قبل هذا التاريخ بزمان ومنها مبايعة باسم الأمير علي كتخدا صالح عام ١٧٨٠ م تقريباً ومنها حجة للسلطان "حسن بن الناصر محمد بن قلاوون" باسم الباب الأحمر وكذلك في وقفية الأمير "سيف الدين قجماس الإسحاقي" على مدرسته ١٤٨٠ م ..

لذا ومع استبعاد هذا الربط الذي اجتاح كتابات بعض المؤرخين في الماضي بدأت في المقابل تظهر محاولات بلا دليل لتفسير سر هذه التسمية فالبعض يرجعها إلى تلال البرقية (حل محلها حديقة الأزهر) وهو كيمان كبير كان توضع فيه بقايا الطوب الآجر الأحمر المستخدم في البناء فاكتست التلال باللون الأحمر، فيما يرجعها البعض لزمن الفاطميين وعصر "المعز لدين الله الفاطمي" وأن بعض "البربر" المغاربة كان لون بشرتهم يميل للحمرة قد سكنوا هذه المنطقة لكني أرى أن التسمية ربما جاءت من اشتغال أهل المنطقة في النحاس الأحمر واستخداماته المتعددة في صناعة الأواني وفوانيس الإضاءة وغيرها ..

نعرج الآن إلى الجامع موضع حديثنا والواقع في منطقة الدرب الأحمر وتحديداً في شارع بورسعيد بباب الخلق والمسمى جامع "البنات" أو جامع الأمير "فخر الدين" أو الجامع "الفخري" كما جاء بالمقريزي أو المدرسة "الفخرية".. شيد هذا الجامع الأمير "فخر الدين عبد الغنيّ بن الأمير تاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج ابن نقولا الأستادار(أو الأستدار وهو المشرف على بيوت السلطان من كسوة ونفقات ومطابخ وحاشية وجاشنكرية)" عام **821**هـ(**1418**م) في عهد السلطان الملك" المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الشركسي" وأقيمت أول صلاة به يوم الجمعة الثامن عشر من شعبان وأول من خطب فيه الشيخ "ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب بن محمد البارنباريّ (نسبة لبارنبار قَرْيَة بالمزاحميتين) الشافعيّ" ثم تركه تنزهاً عنه ربما لفساد سيرة صاحبه والتي سنأتي عليها بعد قليل ..

يروى أنّ "أبا الفرج" جد الأمير "فخر الدين" كان من الأرمن المسيحيين وكان يصحب "ابن نقولا" الكاتب فصارت نسبته إليه وقيل هو اسم جده حقيقة وأبو

الفرج أول من أسلم من آبائه وعمل صيرفياً (يتولى قبض الأموال وصرفها) في الجيزة ونشأ والده "عبد الرازق" مسلماً وقيل خرج لزيارة مسقط رأسه في بلاد الأرمن فارتد عن الإسلام، ثم عاد وتقلد المناصب العليا فولي الوزارة في عهد السلطان الملك الظاهر "سيف الدين برقوق بن انس بن عبد الله الشركسي" بعد أن انتقم من الوزير "بدر الدين محمد بن الطوخي" الذي صادر أمواله وضرب ولده "فخر الدين" أمام عينيه والاستدارية في عهد الناصر "فرج".. المهم أنّ هذه المكانة العالية للأب ساعدت الابن "فخر الدين" في الصعود الخاطف السريع فعين في سن السابعة عشرة والياً على "قطيا" خلفاً لأبيه حينما أصبح وزيراً وهي قرية من أعمال الشرقية بالرمل (المعروف بالجفار) على طريق الشام لفحص وثائق العابرين على الحدود المصرية ودفع الرسوم والمكوس من التجار الصادرين والواردين وتخصص حصيلتها لرواتب المماليك، ثم أصبح كاشفاً للشرقية في عهد الناصر "فرج بن برقوق" فأظهر إسرافاً في النهب وسفك الدماء، ثم استدار بعد أن دفع للناصر "فرج" أربعين ألف دينار خلفاً لغريمه "ابن الهيصم (تاج الدين عبد الرازق بن إبراهيم القبطي المصري قيل أنه من ذرية المقوقس)" الذي اعتقله وصادر أمواله وفي عهد "المؤيد شيخ" أصبح كاشفاً للوجه البحري والصعيد، ثم استدار ليجمع بين الوظائف الثلاثة في سابقة تشي بذكاء منقطع النظير، وأُطلِقَت يداه في سفك الدماء والجشع والجور في جمع الأموال من الناس، فجمع في ثلاثة أعوام ما لا يجمعه غيره في ثلاثين سنة، حيث ألزم عماله بتحصيل أثمان السلع للناس بسعر صرف أقل مما هو متداول ليبخس الناس حقوقهم وكان يعيد بيع ما سلبه وصادره من الناس بالوجهين القبلي والبحري بأسعار مضاعفة بمصر والقاهرة تشمل سعر السلعة

المغالى فيه مضاف له أموالاً تماثلها لرجاله وأعوانه فلا يدفعون ديناراً في السلعة إلا ومثله معه لأعوانه مما جعله مضرباً للمثل "رماية ابن أبي فرج" ولم يكن للتجار حق الرفض أو المساومة وقبل عام من وفاته خرج إلى الصعيد وكان "المؤيد شيخ" في حلب فاحتاط على أموال الناس ومشايخ العربان، فأخذ من الأبقار ستة آلاف رأس ومن الأغنام ثمانية آلاف رأس ومن الجمال ألف جمل ومن قطر السكر ألف قنطار ومن الرقيق ألف رأس وحصل منه في غياب السلطان للناس الضرر الشامل وقد وصفه ابن إياس بأنه "جدد من المظالم بالديار المصرية ما لم يسمع بمثله" بينما وصفه "المقريزي" بأنه "بعيدٌ عن الإسلام قتل من عباد الله ما لا يحصى وخرب أقليم مصر ليرضي سلطانه" ..

لا نعرف كثيراً عن ظروف بناء هذا الجامع غير أنّ الأمتعة ومواد البناء قد اغتصبها الأمير "فخر الدين" من بقايا أنقاض الدور الموقوفة، ولكن الواضح أنه أراد له أن يكون مدرسة كبيرة للفقه على المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والتصوف وهو ما يظهر جلياً في إشرافه على اختيار وتكليف عدد من مشاهير العلماء في عصره للقيام بهذه المهمة في رمضان وهم الشيخ "شمس الدين محمد بن عبد الدائم البرماويّ (نسبة لبرمة من الغربية بمصر) الشافعيّ" لتدريس الشافعية والتصوّف، وقاضي القضاة "شمس الدين محمد الديريّ (نسبة إلى الدير بحارة المرداويين من بيت بالقدس) المقدسيّ الحنفيّ" في تدريس الحنفية، وقاضي القضاة "جمال الدين عبد الله بن مقداد المالكي" في تدريس المالكية .

لكن لم يكتمل هذا الجامع إذ أن القدر لم يمهل الأمير "فخر الدين" لتوافيه المنية في منتصف شوال عام **821**هـ(**1418**م) وعمره سبع وثلاثون عاماً ولم يشأ الله أن يدخل مدرسته إلا ليدفن بها..

ومن آثاره أيضاً حمام البنات بوسط شارع جامع البنات بالقرب من قنطرة الأمير حسين وكان يعرف بحمام الكلاب وقد زال ودخلت مساحته في بيت أم حسين بيك بحسب الخطط التوفيقية..

ربما كان هذا الجامع معرضاً للاندثار مع توالي الأزمنة عليه شأنه كشأن آثار عديدة غرقت في طي النسيان والإهمال فاندثرت وتلاشى أثرها مع زوال الدولة المملوكية ودخول العثمانيين مصر وحتى عهد محمد علي باشا..

لكن من جميل الأقدار أن الجامع كان مجاوراً لسراي "ممتاز قادين" أم الأمير "حسين بك بن محمد علي باشا الكبير" وكان ابنها الأمير "حسين" قد تعلم في المكتب العالي بالخانقاه، ثم مدرسة الفرسان بمصر، ثم سافر في بعثة إلى فرنسا عام ١٨٤٤م ملتحقاً بالمدرسة الحربية المصرية بباريس وأصيب برمد حبيبي في عينيه في أكتوبر ١٨٤٥م واستمر شهرين وشفي وعاود الدراسة لكن الأمراض بدأت تلاحقه من وقت لآخر حتى عاجلته المنية بفرنسا في عام ١٨٤٧م ودفن في مقابر العائلة الملكية بجوار النبي دانيال بالإسكندرية، فحزنت أمه حزناً شديداً عليه وأرادت أن تخلد ذكرى فلذة كبدها الذي اختطفه الموت في زهرة شبابه إذ كان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، فجددت الجامع ومنارته كما أقامت تجاهه سبيلاً بين قنطرة الموسكي وقنطرة الأمير "حسين" وأرضه وواجهته من الرخام وشبابيكه من النحاس الأصفر وقد حمل بابه هذه الأبيات :

"لأم حسين شهرة بمحاسن.. من الخير ذكراها تدوم مدى الدهر.
لقد أنفقت فيها احتسابا ..وأخلفت فيارب نولها الكثيرمن البر.
على باب خير جاء تاريخه ..سنابها حسنات أجرها سرمدا يجرى."

وقد شهد الجامع عدة إصلاحات منها ماقامت به لجنة حفظ الآثار العربية عام ١٨٩٥م من إصلاح الإيوانين الشرقي والغربي وعمل سقوف جديدة لهما وكذلك عام ١٩٩٢م وعلى أثر الزلزال الذي شهدته مصر قامت وزارة الآثار بإصلاحات له ..

بقي سؤال ننهي به حلقتنا وهو لماذا سمي هذا الجامع بجامع البنات؟!

هنا يأتي دور الأساطير الشعبية التي تلاحق تاريخ جوامعنا في مصر حينما لا تبوح الآثار بحقائقها كاملة فيذهب البعض إلى ما ذهب إليه الرحالة "عبد الغني النابلسي" الذي زار القاهرة سنة ١١٠٥ هـ(١٦٩٣ م) من أن التسمية بجامع البنات من طبيعة زواره من النساء الطالبين للزواج فبحسب روايته أنه إذا جاء يوم الجمعة وأثناء الصلاة جلست المرأة فإذا ما كانت السجدة الأولى من الركعة الأولى انطلقت مسرعة بين الصفين للخروج من المسجد وهنا تأتي البركات وترزق بالزواج.. ثمة رواية أخرى حول سبب التسمية من أن الأمير فخر الدين كان له سبع فتيات عذراوات متن جميعاً بالطاعون ودفنَّ في هذا المكان ومن هنا جاءت التسمية ..

2- جامع بلا مئذنة

إنه جامع "قراقجا أو قراخجا الحسني" في منتصف شارع درب الجماميز بالسيدة زينب وقد سمي "درب الجماميز" نسبة لأشجار الجميز العظيمة المسماة بـ"جماميز السعدية" في العصر المملوكي والتي كانت تحدده من الجانبين، ثمّ أزيلت عند ردم قنطرة "طقزدمر" (نسبة لمنشئها الأمير طقزدمر على الخليج الكبير بخط المسجد المعلق لتصل إلى بر الخليج الغربي حوالي عام **730**هـ) في العصر الحديث عام **1898**م.. وقد أنشئ الجامع عام **845**هـ (**1442**م) في فترة حكم السلطان الظاهر "سيف الدين جقمق" ويميل البعض إلى أن صاحبه "قراقجا" قد أراد له أن يكون مدرسة للفقه والتصوف وليس جامعاً فقط، وذلك لكثرة ما أوقف عليه من أملاك ولأنه رتب له صوفية وشيخاً.. أكثر ما يميز هذا الجامع مئذنته بالجهة الشمالية الشرقية من الجامع والتي تتصل به عن طريق معبرة أو كوبري أو قنطرة (ممر خشبي) من دورين وتشير بعض الدراسات أنّ هذه المئذنة ليست مأذنته بل مئذنة الجامع المعلق المندثر وربما استفاد "قراقجا" من هذا الوضع فبنى جامعه بدون مئذنة مستفيداً من وجود هذه المئذنة القديمة .

وعلى أية حال فهذا الطراز من المآذن المنفصلة له ما يشبهه في خانقاه ومسجد "منجك اليوسفي" بالحطابة ومسجد السلطان "إينال" بصحراء المماليك ...

وكان بالجامع مجمع حنفية (فسقية لوضوئهم) حيث اشترط الحنفية لصحة الوضوء ألا يتوضأ جميع المتوضئين من حوض ماء واحد، لأنّ ذلك يؤثر في طهارة ماء

الحوض فيما أجازت الشافعية الوضوء من حوضٍ واحدٍ، وهذا يدل على مبلغٍ ما كان للفقه من تأثير كبير وفعال في تخطيط ميضاءات المساجد الأثرية..

صاحب هذا الجامع حمل اسماً غريباً مكوناً من شقين: "قره" بمعنى "أسود" باللغة الفارسية نسبة لسواد لونه و"قجا" بمعنى "أستاذ أو سيد" وهو اسمه الحقيقي.. عاش غريباً بصفاته المنفصلة عن عصره من حسن الخلق والتواضع والعبادة والبعد عن المغامرة ومات غريباً وطوبى للغرباء.. هو الأمير سيف الدين "قراقجا بن عبد الله الحسنى الظاهري برقوق" أحد مماليك السلطان الملك الظاهر "سيف الدين برقوق بن أنس بن عبد الله الشركسي" ونظراً لصغر سنه فقد ألحق بالطباق السلطانية بقلعة الجبل وطال به الأمد لحداثة عمره حتى أصبح أمير عشرة (أمير من الرتبة الثالثة تحت أمرته عشرة فرسان أو عشرون وهم في الأغلب أرباب الوظائف وصغار الولاة) بعد وفاة السلطان المؤيد شيخ عام **824** هـ (**1421**م) كما شغل منصب ناظر المدرسة البرقوقية (مدرسة الظاهر برقوق بشارع المعز لدين الله الفاطمي منطقة ببين القصرين).. ارتقى "قراقجا" مناصب عدة في مساره العسكري الحافل والممتد والهادئ تصلح أن تكون معجماً ومرشداً لنا في فهم طبيعة المناصب العسكرية المملوكية منها "أمير أخور كبير (رئيس الإسطبلات السلطانية والمشرف على ما فيها من الخيل والإبل)" وولي "رأس نوبة (أي من مهامه الفصل في المنازعات الناشبة بين الأمراء المماليك ويحكم عليهم)" و"أمير طبلخانة (كلمة فارسية بمعنى بيت الطبل وصاحب اللقب أمير من الرتبة الثانية تحت أمرته أربعين فارساً في الأغلب وله الحق أن تدق الطبول والأبواق على أبوابه)" و"أمير مائة مقدم ألف (يحمل هذه الرتبة نائب السلطنة وأتابك العسكر والمتولين

للنيابات الكبيرة بالبلاد الشامية ونواب الوجهين القبلي والبحري والإسكندرية وهو مقدم على ألف جندي على الأقل في التشكيلات عند التعبئة يتولى ترتيب مواقعهم ولا يكون ذلك إلا عند خروج العسكر)" و"رأس نوبة النوب (كبير رؤوس النوب)" وكان السلطان يناديه "يا أخي". وبحسب وصف "السخاوي" له فقد كان فيه " تجمل زائد أسمر معتدل رشيق الحركة أبيض اللحية مستديرها عليه وقار وحشمة " .

في عهد السلطان الأشرف "سيف الدين برسباي" شارك في القضاء على ثورة الأمراء الجلبان (أو الأجلاب وكانوا يجلبون كباراً وجهالاً وغير مندمجين في نسيج العسكرية المملوكية لصعوبة تربيتهم وتعويدهم النظام والقلاقل من هذه الناحية كانت أحد معاول هدم دولة المماليك الجراكسة) عليه بالريدانية وقد عاثوا في الأرض فساداً لتأخر رواتبهم عام **839** هـ**1435**) م(كما رافق الأمير "سيف الدين أزبك المحمدي الظاهري (نسبة لبرقوق)" الدوادار الكبير (حامل دواة السلطان ومهمته إبلاغ الرسائل عن السلطان)" إلى منفاه بالقدس بعدما اتهم بمحاولة الانقلاب على "برسباي" عام **832** هـ ويقال كان بريئاً منها ومات هناك ..

الفترة الفارقة في حياة "قراقجا" وبزوغ نجمه كان في عهد السلطان "جقمق" إذ أصبح يمثل مخلب قط لنظامه، فحسم صراع السلطان مع الأتابكي "قرقماس الشعباني الظَّاهِرِيّ برقوق، ثمَّ الناصري (يعرف بقرقماس أهرام ضاغ يَعْنِي جبل الأهرام لتكبره ومما يروى عنه أنه اعتدى بالضرب المبرح ثلاثاً على امرأة تعسر عليها سداد دينها ولديها ما يثبت حتى ماتت ولما رفع الأمر للسلطان أمر بدفنها)" وكان أحد أكبر التحديات التي صادفت حكم "جقمق" في بداياته إذ حاول

منازعته على الحكم على الرغم من أنّ الأخير قد رفعه لدرجة الأتابك قبلها بأيام ونجح في تكوين جبهة من الأمراء المناوئين والاستيلاء على مدرسة السلطان حسن وراح يضرب القلعة بالمكاحل والمجانيق ليحسم الصراع في النهاية لصالح "جقمق" عام **842** هويقبض على "قرقماس" مختبئاً في الجزيرة الوسطى (الزمالك) وكان الأخير هو الذي أغرى السلطان على اعتلاء أريكة الحكم منقلباً على ابن سيده الراحل، وهكذا الأيام تدور وسنفصل لذلك فيما بعد .

وظفر "قراقجا" كذلك بنائب الشام "إينال الجكمي" عام **842** هفي موقع يسمى "الخربة" وقبض عليه وأمر بسجنه بقلعة دمشق ومن ثم قتله وسنأتي على ذكره لاحقاً بعد ذلك. كما وجهه السلطان في حملة ومعه ستة من الأمراء لتأديب عربان البحيرة عام **849** هـ.

العلاقة الفريدة بين "قراقجا" و"جقمق" من وفاء الأول وتقدير الثاني ربما يفسرها أن قصة صعودهما تكاد تكون متشابهة في أغلب تفاصيلها فصعود "جقمق (كلمة تركية تعني الزند أو القداحة)" بدأ مع توسط أخيه الأكبر الأمير "جاركس بن عبد الله القاسمي الظاهري، الأمير سيف الدين، والمعروف بجاركس المصارع" أحد الأمراء الخاصكية (الحرس السلطاني) لدى الظاهر "برقوق" في شراء شقيقه "جقمق"! وهو ما تحقق حيث ألحق "جقمق" الصغير بالطباق السلطانية (الثكنات العسكرية بقلعة الجبل بالقاهرة) ثمّ ارتقى سلم الجندية المملوكية إلى أن أصبح بالمماليك الخاصكية بجوار شقيقه وفي عهد الناصر "فرج بن برقوق" أصبح "جقمق" "ساقي السلطان" الخاص ورقّاه أميرًا على عشرة أجناد، ثم غضب عليه، وسجنه هو

وأخاه، ثم أفرج عنه بوساطة الأمير "تغري بردي" والد المؤرخ الشهير "جمال الدين بن تغري بردي".. في سلطنة المؤيد شيخ أصبح "أمير طبلخانة" .

كان "جقمق" محل ثقة السلطان الأشرف "برسباي" فاعتلى عدة وظائف مؤثرة في عهده منها "أمير آخور" كبير لمدة أحد عشر عاماً ثم "أمير سلاح (متولي أمر سلاح السلطان ومخازنه)" ثم أصبح "أتابك العساكر" كما أظهر كفاءة في الحملة العسكرية لتأديب إمارة "دُلغادر" في الأناضول مما شجع السلطان "برسباي" على تعينه وصيًّا على ولده السلطان الملك "العزيز جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأشرف برسباي (أمه الجارية جلبان)".

كان الأمير "قرقماس الشعباني" أمير سلاح وكان في حملة عسكرية على الحدود الشامية حينما مات الأشرف "برسباي" فلما عاد نصح "جقمق" بخلع "العزيز يوسف" لصغر سنّه، فقد كان في سن الرابعة عشر وحكم لثلاثة أشهر فقط فنزل على نصيحته وأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالملك الظاهر لقب أستاذه الأول "برقوق"..

طبعاً إعلان مثل هذا القرار الخطير يستلزم القبض على بعض كبار رجال السلطان الراحل "برسباي" من المماليك الأشرفية وهنا ظهرت نوايا "قرقماس" الخبيثة وطمعه الصريح في السلطنة لنفسه حيث شق عصا الطاعة وضم لجبهته المماليك الأشرفية وأصبح مناوئاً بشكلٍ علني لجقمق واشتعل الصراع العسكري بينهما لتنكسر جبهة "قرقماس" ويقبض عليه كما أسلفنا ويحمل لسجن الإسكندرية حيث استطاع "جقمق" أن يثبت عليه كفراً لأنه خرج عن الطاعة وحارب الله ورسوله وفي بقائه بالسجن إثارة للفتنة فحكم عليه قاضي قضاة المالكية، "شمس

الدين البساطي"، فضربت عنقه في السجن عام **842** هـ. في الوقت ذاته كانت بقايا المماليك الأشرفية قد أرسلوا للأميرين "إينال الجكمي" نائب دمشق و"تغري برمَش" نائب حلب يستعدونهما على "جقمق" فقد خالف الوصيَّة المُسندة إليه من أستاذهم "برسباي" الراحل وقبض على ولده الملك العزيز وفتك بإخوانهم من الأمراء الأشرفية... لكن الغلبة في النهاية كانت لجقمق الذي قبض على "إينال الجكمي" و"تغري برمش." وقتلا الأول بقلعة دمشق كما تقدم والثاني بقلعة حلب.

أطرف ما في عهد "جقمق" هي تلك العلاقة التي ربطته بشاه رخ بن تيمورلنك سلطان هراة، وسمرقند، وبخارى وشيراز والذي نذر أن يكسو الكعبة واصطدم برفض قاطع وتهديد بالقتال من جانب الأشرف "برسباي" لكن باعتلاء "جقمق" الحكم لبى طلبه على الرغم من معارضة الرأي العام المصري وجعل كسوته داخل البيت (قال ابن تغري بردي: "رأيتُ أنا الكسوةَ المذكورة، وما أظنُّها تساوي ألف دينار") بينما كسوة السلطان المعتادة من خارجه.

نعود لبطل حلقتنا "قراقجا".. يا له من اسم غريب على الأسماع... صعوده بلا انقطاع أو انكسار أيضاً غريب.. سجاياه الاستثنائية غريبة... ونهايته كذلك كانت غريبة إذ شاء القدر أن تغافله أسباب المنايا عام **853** هـ(**1449**م) هو وابنه "علي بن قراقجا الأمير علاء الدين الحسني"، وكان قد قارب العشرين، ويرحلا بالطاعون في نفس اليوم ويدفنا في قبر واحد لينقطع دابره ويغض التاريخ عنه الطرف وقد كان الأقرب لجقمق والأوفر حظاً لتولي السلطنة بعده وقد حضر "جقمق" الصلاة عليه بنفسه في ظهور نادر للسلاطين في هذه المناسبات ويقع مدفنه بتربة السادات الشناهرة (الأشراف) ...

3-مسجد أبو حريبة

أمير مملوكي بارز.. قرر أن يبني مسجداً ليحمل اسمه ويؤرخ لسيرته ويكون مستقره الأخير ومنتهى رحلته حيث لا يبقى للمرء سوى صالح أعماله.. سنة المماليك وقلّما تجد لها تبديلاً... لكن الأقدار رتبت له أمراً آخر وأي أمر.. ولا حيلة فيما تشاؤه الأقدار..

إنّه الأمير المملوكي الجركسي "سيف الدين قجماس الإسحاقي الظاهري" والذي اشتهر بحسن السيرة والأدب والتواضع مع العلماء، وتبدو سيرته هادئة خالية من أي انخراط في نزاعات مؤثرة علاوة على خطه الأنيق فيقال إنّه كتب بخطه قصيدة "البردة أو البُرأة أو الكواكب الدريّة في مدح خير البرية" للإمام "محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري" وأهداها لجقمق فاستحسنها وقيل إنّها لم تكن له واتهم فيها، وكانت لشيخه فامتحن في ذلك فكتب "البسملة" على نحو نال الاستحسان ويبدو أن عمارته نالت أيضاً قسطاً من هذا الهدوء النسبي النادر، فاندثر بعض ما أقامه في الإسكندرية وكذلك مدرسته في دمشق التي كانت موجودة في سوق الحميدية وأزيلت عام **1943**م، لتوسعة الطريق ولم يبقَ من أثره سوى المسجد موضوع حلقتنا والذي غيّب الزمن عنه اسم بانيه! وعرف باسم من دفن فيه كما سنرى لاحقاً. بدأ "قجماس" حياته في خدمة السلطان الظاهر "سيف الدين جقمق" حينما كان نائباً للشام قبل اعتلاء أريكة السلطنة في مصر وفي عهد الظاهر "خشقدم" عين "خازندارا أي مشرفاً على خزائن السلطان" ثم أمير عشرة في عهد السلطان "بلباي"المجنون..

بدأ نجمه يلوح في الأفق مع بزوغ عهد السلطان الأشرف "أبو النصر قايتباي المحمودي" حيث أصبح نائب الإسكندرية وبعدها بخمسة أعوام أصبح "أمير آخور كبير (مشرف على الإسطبلات السلطانية)"وتحديداً عام **880**هـ(**1475**م) كما أوكل له الإشراف على بناء قلعة "قايتباي" الشهيرة عام **882** هـ(**1477** م) مكان منارة الإسكندرية القديمة عند الطرف الشرقي لجزيرة فاروس وقد بنيت القلعة ببقايا هذه المنارة المندثرة..

قام "قجماس" ببناء مسجده الذي يعد أحد أهم مساجد المماليك الجراكسة البرجية (سموا بذلك لأنهم اتخذوا من أبراج القلعة محلاً لهم وأول سلاطينهم الظاهر برقوق) بمنطقة الدرب الأحمر بالقرب من باب زويلة عام **885**هـ(**1480**م) في عهد السلطان "قايتباي" وألحق به قبة "ضريح أو مقبرة" للدفن وسبيلاً للمارة وحوضاً لسقي الدواب وكتاباً لتعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة وأقيمت أول صلاة للجمعة فيه في محرم سنة **886**هـ، وكان الخطيب الشيخ "ناصر الدين الإخميي".

يعد المسجد من الداخل في سقوفه المذهبة وشبابيكه الجصية الملونة ورخامه المنوع الأشكال قريباً من مسجد "قايتباي" ولا يضاهي خارجه سوى سبيل "قايتباي" بشارع الصليبة وقد شيّد على طراز المدارس التي تتألف من صحن أوسط تحيط به أربعة إيوانات: إيوانان كبيران شرقي وغربي بينما الشمالي والجنوبي صغيران ويتوسط المسجد محراب مزخرف بأشرطة من الرخام الملون، وقد نقشت الآيات قرآنية بالخط الكوفي المزهر ..

وهو من نسق المساجد المعلقة التي يتم الصعود إليه عبر درجات سلم وقد شيّد على قطعتين أرض يربطهما "ساباط" أي قنطرة أو كوبري دون التسبب في إعاقة حركة المرور تحته ومن غرائب المسجد وجود "تمثال غول اتُّخذ مقرعة للباب الكبير" وذلك بحسب ما أورده "أحمد تيمور باشا" في كتابه "خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب".

الطريف أنّ القبة "التربة" الملحقة التي أعدها "قجماس" لنفسه تشاء المقادير أن تذهب لسواه.. وهو أمر كثير ما يحدث في العهد المملوكي ذلك أنه وأثناء بناء مسجده ألحقه "قايتباي" بآخر وظيفة تقلّدها في سجله الوظيفي وهي نائب الشام عام **1480**م، خلفاً لقنصوه اليحياوي الذي نفي للقدس.. وهناك حدثت له حادثة شديدة الطرافة إذ حمل العامة الأعلام بالجامع الأموي عليه اعتراضاً على قيام "سلاخوره (المسؤول عن الإسطبلات وعلف الحيوان)" عام **890** هـ(**1485**م) بالقبض على السيد الشريف المنتسب للشيخ عبد القادر الكيلاني لأنه انتهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقام بحرق الحشيش، وفي العام التالي مع زيادة الضرائب التي تفرض على الأهالي عسفاً وجوراً حمل الناس الأعلام مستغيثين ورافعين المصاحف ..كان تعيين "قجماس" للشام جزءاً من خطة "قايتباي" في فرض المصادرات المالية في عموم دولته المترامية، والتي بلغت ثلاثاً وخمسين مصادرة من فئات متنوعة لإنعاش خزينة الدولة متفوقاً في ذلك على من قبله من سلاطين، وشملت المصادرات العشوائية الأمراء، خاصة كبار الأمراء الخشقدمية وموظفي الدولة خاصة أرباب الوظائف المالية والذين بدؤوا في الهروب والاختفاء، وكذلك الخلفاء العباسيين المقيمين بمصر وأملاك شيوخ القبائل أموال التجار وأموال كبار

السن من الجنود، وحتى أولاد الناس والعامة، حيث فرض عليهم السلطان إما الالتحاق بالحملات العسكرية أو توفير بديل أو دفع بدل قيمته مئة دينار، وشملت كذلك قطع مرتبات اللحوم عن الفقهاء والمتعميين ومصادرة ما أخذوه من لحوم بأثر رجعيّ (فكرة الوزير "قاسم شغيثة").. واستمرّ السلطان في ذلك على الرغم من معارضة شيخ الإسلام "أمين الدين الآقصراي (أو الأقصرائي نسبة لمدينة آق سراي التركية) الحنفي" إذ لا يحق للسلطان أن يأخذ من أموال الناس إلا إذا صادر أموال ومتاع كبار الأمراء والجنود وأسرهم، وطبعاً هذا لم يكن ممكناً إذ إنّ من شأنه تأليب أعوانه ضده ومع تصاعد وتيرة الرأي العام ضده هدد السلطان بترك المنصب كله "الهم بحسب تعبيره" إذ لم يكن هناك سبيل آخر لتعويض هذا العجز المالي المهول، حيث كانت توجه كل هذه الميزانية الضخمة لتمويل عدد من الحملات العسكرية، بلغت ست عشرة حملة بتكلفة نفقات ٧١٦٥٠٠٠ دينار، تورط فيها "قايتباي" مع السلطان العثماني "بايزيد الثاني" وشارك "قجماس" في بعض معاركها.. كانت مقدماتها هي إيواء شقيق "بايزيد" ويدعى "جِم" وأسرته في مصر، وكان الشقاق قد دبّ بين الأخوين على العرش بعد وفاة أبيهما "محمد الفاتح"، ورفض "قايتباي" تسليم "جم" وبعد فراره لأوربا رفض تسليم والدة "جَمّ سُلطان" " چيچك خاتون" وابنتيه، وكذلك إقدام "قايتباي" على سقطة لا تليق بمكانته كحاكم مصريّ، وهي الاستيلاء على هدايا من سُلطان الدولة البهمنيّة "شهابُ الدين محمود بن مُحمّد" كانت مرسلة في طريقها لبايزيد عبر ميناء "جدة" وكان من بينها خنجر مرصعة قبضته بفصوص ثمينة فطمع فيه "قايتباي" وأبقاه في حوزته.. قرر "بيازيد" الانتقام دون اصطدام مباشر فدعم حملة الأمير التركماني "علاء

الدين بن سليمان بن ناصر الدين محمد بن دلغادر أو علاء الدولة بوزقورد بك بن سُليمان والمعروف بعلي دولات" على "ملطية (مدينة غرب سوريا)" التابعة للمماليك وقتئذ (منذ عام **1315** م تقريباً) وكان "علي دولات" يحقد على المماليك لأنهم شنقوا "شاه سوار" وكان ميالاً للعثمانيين وقد عوقب بالشنكلة، وهي واحدة من كلاسيكيات القتل المملوكي، يعلق فيها المحكوم عليه بكلاليب معقوفة من تحت أبطيه وينزف حتى الموت في القاهرة في عهد الأشرف "قايتباي" ولذلك قام بالانقلاب على ابن عمه وشقيق شاه سوار "شاه بدق أو شاه بداق أو شاه بوداق" حاكم إمارة "ذي القدر أو دلغادر أو ذو القادر" الموالي للمماليك واستولى على السلطة فيها ومن طريف ما يروى دون توثق أنّ "بايزيد" كان متزوجاً ابنة "علي دولات" وتدعى "عائشة گلبهار خاتون" وأنجب منها السلطان "سليم الأول" والذي غزا مصر بعد ذلك.. دخلت البلاد في حروب متواصلة مع العثمانيين بشكلٍ مباشرٍ وغيرمباشرٍ انهزم "قايتباي" في بعضها وظفر في بعضها بقيادة قائديه الأميرين "تمرازالشمس الأشرفي (ابن أخت قايتباي)" والأتابك "أزبك (تنسب له منطقة الأزبكية بالقاهرة)" وكانت وبالاً على الخزانة المصرية وعلى الأندلس التي سقطت "غرناطة" آخر حواضرها الإسلامية وهي تستغيث به في وقت كانت أكبر قوتين إسلاميتين في شغل شاغل عنها بتطاحنهما الداخلي، وانتهت هذه المناوشات الحدودية بِوساطة السُلطان الحفصيّ "أبي يحي زكريّاء بن يحي ".. هذا لا يمنع من أنّ "قايتباي" بنزعته الصوفية مع بعض البخل الشخصيّ الذي عرف به، كانت له أيادٍ بيضاء في استعادة هيبة الدولة، فقد أنهى صراعاً مريراً سبق حكمه تمثل في "خاير بيك" قائد المماليك الخشقدمية الذي حكم مصر من وراء ستار مستغلاً

ضعف السلطان "بلباي" ومن بعده السلطان الظاهر "تمربغا الرومي" ولما أعلن "خاير بيك" نفسه سلطاناً قبض عليه "قايتباي" في الليلة نفسها ليدخل "خاير بيك" طرائف التاريخ المصري كسلطان ليلة. كما شارك "قايتباي" في إعادة إعمار المسجد النبوي بعد احتراقه في رمضان عام **886** هـ، وعرف عنه توقيره لقاضي القضاة "أبي يحي زكريّا بنُ محمد بنِ أحمَدَ بنِ زكريا" الأنصاريُّ الخزرجيُّ أصلاً، السُّنَيكيُّ مولداً، القاهريُّ إقامةً، الأزهريُّ علماً والذي قضى ما يزيد عن عشرين عاماً في القضاء وكان شديداً مع "قايتباي" ولا يخشى في الحق لومة لائم.. نعود لصاحب مسجدنا اليوم "قجماس" مرة أخرى وفي عام **892** هـ(**1487**م) ومع بشائر عيد الفطر كان قد أصابه المرض الشديد وصار يعالج ببيت "ابن دلامة" بالصالحية وقبل العيد بيومين أتي به في محفة إلى إصطبل دار السعادة ووافته المنية ليخلفه "قنصوه اليحياوي" بعد عفو السلطان عنه ودفن بالمدرسة القجماسية التي شيدها فترة إقامته بدمشق، ورتّب فيها أربعين مقرئاً وشيخاً ومجاورين وأوقف عليها وموقعها داخل باب النصر وباب السعادة، ولم يخلف ولداً وبقيت مقبرته في مصر خاوية على عروشها ليسكنها لاحقاً الشيخ الصوفيّ "أحمد بن سليمان الشهير بأبو حريبة" الشنتناويّ الشافعيّ النقشبنديّ المنوفيّ المصريّ، وبحسب "علي مبارك" في خططه التوفيقية فهو صعيديٌّ قناويُّ الأصلِ، ولد بقرية "بشنتنا" بالمنوفية، وإليها ينسب وينتهي نسبه إلى سيدي "عبد الرحيم القناوي".. بدأ حياته في الفلاحة، ثمّ نسج الصوف.. رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم كثيراً في منامه وكان عفيف النفس، عطوفاً على الفقراء، عصامياً، متواضعاً، يحبّ الصمت ويمشي ناظراً للأرض، يرتدي ملابس كعامة الناس ويشتغل مثلهم حتى آخر أيام حياته، ففتح دكان عطارة

بمصر وعمل بحرفة الكتابة لدى مسيحي بمخبز بدرب سعادة، وكان يرفض عطايا كبار رجال الحكم، ومما يروى أنه رفض أعطية "محمد علي باشا الكبير" وقدرها خمسمائة جنيه، كما رفض أطياناً من الوالي "عباس حلمي الأول" وكانت نفسه تواقة لطلب العلم والترحال لمصاحبة رجاله والأخذ عنهم، ومنها توجهه لمكة المكرمة لمقابلة السيد "محمد عثمان الميرغني" الشهير بـ"الختم"، وعنه أخذ الطريقة الختمية وأدى فريضة الحج وزار قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم، كما أخذ الطريقة الخلوتية عن الشيخ الشنتناويّ، ثمّ الطريقة الشاذليّة عن طريقِ الشيخِ أبي النجا بطنطا، فضلاً عن القادريّة والرفاعيّة، ومن مآثره أنّه سئل عن "اللوح المحفوظ" فقال: صدر العارف متى توجه لشيء وجده ومن طريف ما يروى عنه أنه رفض الاشتغال بالنحو لكذبه! وهو صاحب كتاب "سلسلة الإبريز المجلية في سلوك طريقة السادة النقشبنديّة" وكتاب "الترياق الأكبر والكبريت الأحمر في الصلاة على من أنزلت عليه سورة الكوثر"، كما نظّم قصيدة من تسعة وتسعين بيتاً بعدد أسماء الله الحسنى وفي هذا المسجد كان ملازماً للذكر. قضى به شطراً من حياته حتى أنهكه المرض ومات ودفن به عام **1268** هـ(**1852**م) وأقيم له مولد.. تأثر بعلمه وطريقته وأخذ عنه الشيخ "حسن القويسني" والشيخ "إبراهيم البيجوريّ" والشيخ "الخناني" ومن تلاميذه الشيخ "سيد البيجوري الشافعيّ" أحد مدرسي الأزهر.

الطريف أنّ العملة المصرية من فئة الخمسين جنيه قد خلدت لصاحبي هذا المسجد سواء أكان المنشئ الغائب أوالذاكر المدفون، فحملت صورة هذا المسجد لتخلد تاريخاً لا يُمحى من الذاكرة يحمل دروساً وعظاتٍ لمن نظر واعتبر..

سؤال على هامش هذه الحلقة: ألا يستحق موقف الوالي "عباس حلمي الأول" من المتصوف الزاهد مزيداً من تسليط الضوء حول طبيعة شخصيته حتى وإن تمردنا على النظرة المعروفة عنه سلفاً من غرابة أطواره، وحاولنا تقديم صورة متزنة عنه؟!
من الحوادث الطريفة والتي تقربنا من شخصيته في ضوء الوثائق الخاصة بحكمه ما جاء في كتاب "مجموعة خطابات وأوامر خاصة بالمغفور له عباس باشا الأول.. عُني بجمعها وطبعها حضرة صاحب السمو الملكي الأمير محمد علي"، ففي حوادث ٤ رمضان ١٢٦٨ هجرية تحت عنوان "إرادة لكتخدا مصر" من أن وزير سلطان الحبشة اجتمع بالوالي "عباس حلمي الأول" وأبلغه أنه وكل شخص يدعى "أبو العينين" بتسهيل مصالح "الحبشة" ووجه الوالي بقبول مراسلاته الواردة والصادرة وتسفيرها بواسطة بريد "أسوان".. ينقل "عباس" في هذه المراسلة شكوى تلقاها من الجانب الحبشيّ بخصوص الأقباط في "أسوان" من أنهم يمارسون تجارة الرقيق ويتصيدون أبناء الأحرار الحبش ويبيعونهم كأسرى متى اجتازوا حدود "الحبشة" ومنهم شخص قبطي يدعى "داوود" من بلدة "الخرطوم" وقد احتال على صبي عليه علامة الختان وينتسب لعائلة معروفة في الحبشة وجاء به للخرطوم لبيعه.. وناشد الوزير الوالي مسترحماً أن يمنع هذا الشخص من بيع الصبي وتسليمه للجانب الحبشيّ، ومن ثمّ إعادته لعائلته ومنع جميع الأقباط من هذه الأفعال الشائنة ..
الكتاب يسير في ركب بعض الباحثين المعاصرين في الدفاع عن شخص "عباس حلمي الأول" وأنّ تشويه صورته كان بأيدي "فرنسية" لأنه تصدى لنفوذهم المتنامي مبكراً في مصر حيث أقصى كل من استعان بهم جده "محمد علي باشا "من

الفرنسيين وأدار دفة البعثات إلى ألمانيا والنمسا بدلاً من فرنسا وبدت سياسته أكثر اقتراباً من إنجلترا العدو التقليدي لفرنسا ..

يستخدم الكتاب قاعدة طريفة في الدفاع عن عباس مفادها أنّ "من يرأف بالحيوان يرأف بالإنسان" وأنّ عباس كان عطوفاً ورؤوفاً بالحيوانات كالخيل والهجين والحمام وكلاب الصيد! طبعاً فلسفة حالمة وليست واقعية ..

من أطرف ما جاء في الكتاب مواجهة الوالي "عباس حلمي" للسوق السوداء ففي مراسلة منه بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٦٨ هجرية حملت عنوان "إرادة لكتخدا باشا" وفيها أنه وصل لمسامعه أن الجنيه المصري يتداول بين الناس بسعر مائة وعشرة غروش بزيادة عن المعمول به من عهد جده "محمد علي باشا" حيث يقدر الجنيه بسعر مائة وخمسة غروش وبالأكثر مائة وستة غروش وتعكس المراسلة درجة وعي الوالي بمغبة ذلك وأن "زيادة سعر العملة عن قيمتها الأصلية تدل على خلل في مالية البلد وعلى إفلاسه وخسارة عظيمة للعامة" وأنّ المستفيد من هذا الوضع هم الأغنياء الموسرون.. فكان حاسماً في إلزام المسؤولين باتخاذ التدابير المناسبة حيال ذلك والاستفادة من خبرات الأستانة في هذا الصدد لإرجاع سعر العملة لأصلها، ولو أضرّ ذلك بالأغنياء لأنّ المنافع العامة تقدم على المنافع الخاصة وهذا من "مقتضيات العدل والإنصاف الإداري"..

يبرز الكتاب موقف "عباس" المتعاطف مع "الوهابيين" ودوره في هروب السجناء من أسرة "السعود" من القلعة على غير رغبة جده "محمد علي باشا" وكان عباس وقتها "كتخدا مصر" فأمر "علي باشا اللآله" وكان موالياً له بتهريبهم عبر "الطبكجي" الذي يحمل الطعام فحمل لهم تحت ملابسه حبلاً طويلاً وفي حزامه مبردين وفي عمامته

خطابات بخطة كاملة للهروب، حيث كان في انتظارهم عشرة من الهجن، وضعت تحت تصرفهم ومن بعدها صار "فيصل ابن السعود" من أصدقاء "عباس" المقربين.. طبعاً ميول "عباس" الإسلامية الواضحة تطرق لها الكتاب المدعوم من مؤسسة الحكم في شخص الأمير "محمد علي توفيق" من أن الناس كان ممنوع عليهم السير في الشارع متى أذن المؤذن للصلاة ومن لم يلتزم من الناس كان يضرب بالسياط من جانب الشاويشة الأتراك الفرسان ..

وحول نهاية "عباس" يتبنى الكتاب سيناريو الاغتيال (يذهب بعض المعاصرين إلى موت عباس بالمرض) وضلوع "زينب هانم الكبيرة" ابنة "محمد علي باشا" في ذلك عبر إهدائه مملوكين من الشراكسة قاما باغتياله بإيعاز منها أحدهما قتل في حلب والآخر ظل هارباً! ويظهر الكتاب بواعث "زينب هانم" في التدبير لقتله ذلك أنه وبعد وفاة "محمد علي باشا الكبير" طالب أبناؤه: "سعيد باشا" و"عبد الحليم باشا" و"زينب هانم" و"نظلة هانم" بميراثهم من والدهم الراحل، والمقدر بكل أقطار البلاد! (راجع استيلاء محمد علي باشا على كل أراضي مصر في كتاب "منافح الأيك في مساجلات النخب").. رفض "عباس" ذلك واقترح أن يأخذوا النصف، فلمّا أبوا وضع يده على كل الأطيان فاحتكم أولاد "محمد علي باشا" للسلطان "عبد المجيد" في الأستانة فانتصر لرأي "عباس" مما أوغر صدر "زينب هانم" ضده وكان ما كان من انتقام مروع ..هذه الأمور والملامح تشي لنا بملامح حاكم مصلح سار ضد التيار فابتلعه وأغرقه وشوه سيرته.

4- جامع الأميران "سلار" و"سنجر"

قدرٌ غريبٌ ذلك الذي جمع الأميرين "سيف الدين سلار" و"علم الدين سنجر الجاولي" في زمنٍ واحدٍ وحملهما معاً من براثن الرق والعبودية إلى مصاف الأمراء والسادة، وحلّق بهما بين أبهة القصور ورغد العيش واتساع السلطة والنفوذ، وألّف بين قلبيهما في سياج منيع عماده صداقة متينة في زمن يندر فيه الأصدقاء وينعدم فيه الوفاء، ومع أنّ البداية واحدة والأزمات متقاربة، لكنْ شتان بين النهايتين...

أولهما: الأمير "سيف الدين سلار التتريّ الصالحي المنصوري" من التتار الأويراتية تم أسره في حرب بين بيبرس والتتار، وكان أولاً من مماليك "الصالح علاء الدين علي بن المنصور قلاوون" الذي تسلطن جزئياً في حياة أبيه "السلطان أبو المعالي الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي النجمي ولقبه أبو الفتح" الذي كان يؤثره على بقية إخوته فلما مات "الصالح" صار من خاصة "المنصور قلاوون"، ثمّ من بعده التحق بخدمة "السُّلْطَان الْملك الْأَشْرَف صَلَاح الدّين خَلِيل ابْن الْملك الْمَنْصُور سيف الدّين قَلَاوُونَ الألفي العلائي الصَّالِحِي النجمي"، وظلّ يتدرج حتى أصبح من أعيان المماليك وصار نائباً للسلطنة في عهد "الملك ناصر الدين أبو المعالي محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي" أي بمثابة الرجل الثاني الذي يتحكم في كل مقدرات البلاد، وكان له زيٌّ طريفٌ أطلق عليه "القباء السلاري" عبارة عن رداء قطني بلا أكمام ومزينٌ بفراء السنجاب ومحلى بالأحجار الكريمة واللؤلؤ وكان يسمى قبله "بغلطاق"، كما كان له نوعٌ خاصٌ من المناديل عرفت باسمه أيضاً.. وكان كريماً سخياً في العطاء يمتلك ثروة هائلة قيل واتته من

كنز وقيل من استيلائه على أموال الخزانة في فترة غياب "الناصر" بالكرك، ومما يروى عنه أنه خرج ذات مرة لأداء فريضة الحج مصطحباً معه ثمانية مراكب محملة بالغلال والسكر والدقيق لتوزيعها على فقراء مكة المكرمة والمدينة فضلاً عن قناطير مقنطرة من الذهب والفضة والثياب، فوزع منها على الناس ما لا يحصى، كما ضرب على أيدي قطاع الطريق وتعالت أكف الناس بالدعاء له "يا سلار كفاك الله هم النار".

عرضت على "سلار" السلطنة عندما خلع "الناصر محمد بن قلاوون" نفسه عنها فأبى أشد الإباء مؤثراً أن يظل نائباً للسلطنة وكفى وعقب سقوط حكم "بيبرس الجاشنكير" وهروبه وعودة "الناصر محمد بن قلاوون" للسلطنة مرة أخرى كان الأمير "سلار" في مقدمة مستقبليه وألح على "الناصر "في قبول إعفائه من منصبه لكبر سنه ورغبته في الانقطاع للعبادة وأن يسمح له بالاستقرار في إقطاعيته ببلدة "الشوبك" (بالأردن).. رفض "الناصر" في البداية، ثمّ وافق في النهاية على مضض بعد توسلات "سلار" وعين الأمير "بكتمر" بدلاً عنه . لم تمضِ شهور قلائل على رحيل "سلار" حتى اتُهِمَ أخوه مع مجموعة من الأمراء بالتدبير لقتل السلطان "الناصر" فتغير خاطره على "سلار" مجدداً وأخذه بذنب أخيه وأرسل إليه يستدعيه .توجس "سلار" خيفة وتعلل بمرضه ليتنصل من الحضور ولأنّ السلطان "الناصر" يعرف صداقته القوية بسنجر، فقد أرسل الأخير إليه ليحضره وبالفعل حضر معه فأمر "الناصر" باعتقاله في الحال ومصادرة أمواله والتي بلغت أكثر من خمسين حملاً من الذهب والفضة والجواهر الثمينة والأقمشة المزركشة واللجم المفضضة وأودع سجن قلعة الجبل وهناك رفض "سلار" أن يتناول الطعام الذي قدم له خشية أن

يكون مسموماً بتدبير من "الناصر" وقد عرف أنّ الأخير نكث وعده "لبيبرس الجاشنكير" وأمر بخنقه في مجلسه بعد أن أمنه.. ما إنْ علم "الناصر" برفض "سلار" الطعام أمعن في عقابه والتنكيل به بمنع الطعام والشراب عنه، وبعد مضي أسبوع وقد وصل "سلار" إلى حد الاستغاثة من الجوع الشديد أرسل إليه ثلاثة أطباق مغطاة، ففرح بها لكن سرعان ما تبدد فرحه حينما وجد الأطباق تحتوي على ذهب وفضة ولؤلؤ وجوهر ففهم أنّ "الناصر" يسخر منه ولا أمل في النجاة وأنه هالك لا محالة، فقال: "الحمد لله الذي جعلني ممن يعاقبون في الدنيا".. في هذا الوقت كان "سنجر" يبذل جهوداً مضنية مع "الناصر" من أجل العفو عن صاحبه الذي أكل "سرموزته (حذاءه)" وقيل "خفه" من فرط جوعه ويأسه وقد كانت في شونه وقتئذ من الغلال ثلاثمائة ألف أردب وسبحان المعز المذل! أخيراً وبعد مضي اثني عشر يوماً رق له "الناصر" وذهب "سنجر" يبشره بالعفو فسقط ميتاً من شدة فرحه! وذلك عام **710** هـ ليتولى جنازته ودفنه صديقه "سنجر"، وذلك في القبة الكبرى بالجامع وكتب على مقبرته: "(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (الرحمن:٢٦-٢٧).. هذه تربة العبد الفقير إلى الله تعالى سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة الملكي الناصري المنصوري المستغفر من ذنبه الراجي عفو ربه رحم الله من دعا له بالرحمة ولجميع المسلمين)".

أما ثانيهما والذي أتينا على ذكره مراراً في سيرة الأول وحري بنا أن نفصل له فهو الأمير الكبير والعالم العلم "علم الدين سنجر بن عبد الله العيني المعظمي الجاولي" الفقيه الفاضل والشافعي المذهب وكنيته "أبو سعيد" وهو تركي من مدينة "آمد أو ديار بكر الكردية بالأناضول حالياً" ولد بها عام **653** هـ(**1255**م) اشتراه أمير

من الظاهرية يدعى الأمير "جاولي أو جاول" أحد أمراء الظاهر "بيبرس" وإليه ينسب وبعد موت "الجاولي" التحق بخدمةِ السلطانِ "أبي المعالي الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي النجمي ولقبه أبو الفتح" وتدرج في المناصب ونفي إلى الكرك في زمن "السُّلْطَان الْملك الْأَشْرَف صَلَاح الدّين خَلِيل ابْن الْملك الْمَنْصُور سيف الدّين قَلَاوُونَ الألفي العلائي الصَّالِحِي النجمي"، ثمّ عاد إلى مصر في أيام " السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي المغلي" وكان أول ما ولي نيابة "الشوبك (مدينة بالأردن)" وفي أيام "الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالي محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي" عمل "أُستادار" أو أُستدار صغيراً (وهو المشرف على شؤون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب والحاشية والغلمان والنفقات والكسوة)" له فترة انقلاب "بيبرس الجاشنكير" و"سلار" على سلطات "الناصر" وحدث أن صادره "بيبرس" وأخرجه إلى الشام مما سبب أزمة بين صديقه "سلار "و"بيبرس" ولما عاد "الناصر" من الكرك واستعاد سلطاته كاملة جعله نائباً على غزة وضم إليه الساحل والقدس وبلد الخليل وجبل نابلس وهذا بالطبع يوحي بعلو قدره ومبلغ مكانته.. أما عن مقدمات سجنه وتغير خاطر السلطان "الناصر" عليه وفي ذلك بلاء لو تعلمون عظيم. فقد بدأت نذر شراره بعدما وجهه "الناصر" لروك البلاد الشامية فاختار لمماليكه خيار الإقطاعات مما أغضب نائب دمشق الأمير "سيف الدين أبو سعيد خليل تنكز بن عبد الله الأشرفي الحسامي الناصري (زوج ولديه من بنات السلطان الناصر، فيما تزوج السلطان نفسه من ابنة "تنكز" "خوندة قطلوبنك" وأنشأ سوق القطانين والمدرسة التنكزية في القدس وجامع تنكز في دمشق والذي

دفن بجواره)" وقيل إنّ سبب غضبه أيضاً رفض "سنجر" ضم مساحة ما بين جامع "تنكز" والميدان تضم دار "سنجر" التي اشتراها قبالة الجامع المذكور من جهة الشمال وأراد "تنكز" أن يبتاعها منه واصطبل، لكنّه صمم في إباء وكان ذلك سبباً في نقله من دمشق ليكون والياً على "غزة" ومما زاد من وطيس الخلاف أن اختار "الناصر" "تنكز" ليكون همزة الوصل وواسطة التفاهم بينه وبين نواب الشام، فغضب "سنجر" إذ رأى نفسه أحق منه بهذه المكانة لدى "الناصر" ولما استأذن في الخروج إلى الحج نم عليه بعض مماليكه من أنه ينتوي الهروب إلى "اليمن" فقبض عليه الأمير "سيف الدين أمير حاجب" بأمر "الناصر" وأحيط بماله وأودع بسجن الإسكندرية في الفترة من **720** هـ(**1320**م)-**728** هـ(**1327**م).. قضى الأمير "علم الدين سنجر الجاولي" في السجن ثمانية أعوام كان فيها ينسخ القرآن وكتب الحديث والطريف أنّ الإفراج عنه جاء بالتزامن مع الإفراج عن الأمير "حسام الدين لاجين العمري (الملقب زيرباج) الجاشنكير"، والذي قضى في سجون "الناصر" ستة عشر عاماً وثمانية أشهر وخمسة أيام، وكان يغزل الصوف المرعز ويصنع كوافي بديعة وعليها إقبال من الناس وكان يتصدق بأثمانها وهذا يعطي صورة مغايرة عن طبيعة السجون في هذا العصر.. بعد الإفراج عن "سنجر" عادت المياه لمجاريها وعاد لسابق مكانته لدى "الناصر" والذي أمره على أربعين فارساً، ثمّ منحه إمرة مائة، ثمّ قدمه على ألف فارس، ثمّ جعله أميراً من أمراء المشورة الذين يجلسون بحضرة السلطان.. ومن المناصب الهامة التي شغلها "سنجر" في سجله الوظيفي الحافل منصب "ناظر الحرمين الشريفين" وحينما توفي "الناصر" تولى غسله وَدَفنه وعهد إليه ابنه "الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون

الألفي الصالحي ولقبه أبو إسماعيل وأبو الفدا" بنيابة حماة، ثمّ أعيد كرة أخرى لنيابة غزة.. وكان له دورٌ كبيرٌ في حسم صراع "الملك الصالح" مع أخيه غير الشقيق "الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون الصالحي" حيث تمكن من حصار الأخير في "الكرك" وضرب على قلعته بالمجانيق حتى تهدمت وقبض عليه وأعدمه وأرسل برأسه إلى "الصالح إسماعيل"..

وتعد فترات نيابته لغزة (بين عامي **1311**م-**1320** م وشطرا من **1342**م) من العهود الذهبية لها إذ قاد عملية إعمار لها هي الأضخم منذ الحروب الصليبية جعلت منها مدينة كبيرة مزدهرة فبنى قصراً للنيابة وميداناً وأسواقاً وحماماً وبيمارستانا ومدرسة للشافعية وخان السبيل وجامعاً وقد أشار له الرحالة المغربي "أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مُحَمّدٍ ٱللّوَاتِيّ ٱلطّنْجِيّ الشهير بابْنِ بَطُّوطَةَ" في كتابه "تُحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" عند زيارته له بأنه "جامع حسن، أنيق البناء، محكم الصنعة، ومنبره من الرخام الأبيض".

اشتهر عنه ثقافته الدينية الواسعة وهو ما كان غريباً وفريداً في زمنه إذ لم يمنعه الركض الطويل في مسارات الإمارة وشواغلها الدنيوية من التحصيل والاشتغال بعلوم الحديث والفقه الشافعي فسمع مسند الشافعي بالكرك على يد "دانيال بن منكلي" قاضي الشوبك، وقد رتب مسند الشافعي وشرحه مستعيناً بطيف من شروح الرافعي وابن الأثير وشرح مسلم للنووي حتى مات في التاسع من شهر رمضان عام **745** هـ(**1345**م)، وكان قد شارف على المئة عام ودفن بالقبة الصغرى بالجامع ومن تلاميذه الحافظ الزين العراقي..

أنشئ جامع الأميرين "سلار وسنجر" عام **703** هـ(**1303**م) على ربوة عالية وهي قلعة الكبش (أنشئت على أنقاض مدينة القطائع التي أسسها أحمد بن طولون على جبل يشكر) وهو من طراز الجوامع المعلقة وله مئذنة واحدة مبنية من الحجر تقوم على قاعدة مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها **4،50** م، ويعلو هذه القاعدة ثلاثة طوابق ويبدو التأثير الأندلسي في عقود مئذنته التي يشبها البعض ببرج قبة "سيوليتو" بإيطاليا، وقد اختلف في توصيفه فاعتبره البعض "خانقاه (خلوة للصوفية)" لوجود مجموعة من الخلاوي لإقامة الصوفية به، فيما اعتبره البعض الآخر "مدرسة" ولا يعرف على وجه التحديد ظروف إنشائه وأظن أنّ الجامع أقيم بأموال "سلار" فيما تولى الإنشاء "سنجر" وهذا يظهر في مراعاة الأسبقية الوظيفية وتباين المكانة في علو القبتين وارتفاعهما بين صغرى لسنجر وكبرى لسلار وإن تماثلتا شكلاً وزخرفاً وكما يقولون: "الناس مقامات !"

ويقع الجامع حالياً في أقدم شوارع القاهرة، ألا وهو شارع "الصليبة" والذي يبدأ من ميدان القلعة حتى أول شارع عبد المجيد اللبان "مارسينا سابقاً" حيث يوجد الجامع تحديداً ويتلاقى مع شوارع شيخون والركيبة والسيوفية مكوناً شكل الصليب، ومن ذلك عرف بهذا الاسم وقد استضافت هذه المنطقة حفل زواج الأمير "أبي بكر" بن الأمير "أرغون شاه بن عبد الله" رأس نوبة الجمدارية ونائب السلطنة من "خوند" ابنة السلطان "الناصر محمد بن قلاوون" في ثاني شعبان عام **722** هوقد أنفق الأخير عليه ببذخ شديد، فقد كانت أولى بناته وألزم الأمراء بالحضور، فلم يتخلف أحد واستمر ثلاث ليالٍ أكل فيها العامة بغير حساب." هذا يقودنا إلى مبحث طريف على هامش هذه الحلقة وهو حجم المصاهرات السياسية

في عهد "الناصر" والذي أضحى ظاهرة جلية في عهده هدف منها كسب ولاء الأمراء المحيطين به فيما هدف الأمراء منها تحقيق الثراء الفاحش وإحراز السلطة واكتساب المنعة فزوج "الناصر" أكثر من عشرة من بناته للأمراء، ومنهم (فجليس الناصري السلاح دار - قوصون الساقي الناصري- طغاي تمر العمري الناصري- سيف الدين قماري بن عبد الله الناصري-علاء الدين الطنبغا المارداني الناصري الساقي -اق سنقر الناصري).

نعود أدراجنا مرة أخرى إلى بطل حلقتنا..

أنشأ "سنجر" أيضاً في مدينة الخليل وقت أن كان ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة في عهد "الناصر" جامعه "الجاولية" الشهير في الفترة بين **717** هـ-**720** هـ(**1318**م-**1320**م)، وهو جزء من المسجد الإبراهيمي (كهف البطاركة) بماله الخاص وبنى بجواره "رواقاً أي مطبخاً" على غرار سماط الخليل بالحرم الإبراهيمي؛ لتوزيع الطعام على الفقراء والمساكين والزوار والمجاورين ويمل فيه من الخبز يومياً من أربعة عشر ألف رغيف إلى خمسة عشر ألف رغيف ولم ينفق على أي من هذه الأعمال شيئاً من أموال الحرمين الشريفين ونص على ذلك صراحة في لوحة التأسيس .

وكان الجامع من عجائب زمنه وقيل إنّه كان مقبرة ليهودٍ على هذا الجبل فقطعه الأمير "سنجر" وجوفه وبنى السقف عليه وجعل أرض المسجد وحيطانه وسواريه من الرخام .

5-جامع وسبيل الأمير تمراز الأحمدي المعروف "بجامع البهلول"

"الملك عقيم".. قاعدة سادت العهد المملوكي وما قبله وهي قاعدة لا تخطئها العين ولا تحيد عنها الوقائع، فالأخ يقتل أخيه والأب يسفك دم ابنه والعكس وعنوان الصراع دائماً كرسي الحكم وحينما نأصل لهذه المقولة التي تعكس ظاهرة تربعت على عرش التاريخ قديماً وحديثاً فالبعض يرجعها لعبد الملك بن مروان، وهي يبكي لمقتل "مصعب بن الزبير" قائلاً: "لقد كان بيني وبين مصعب صحبة قديمة، وكان من أحب الناس إليّ، ولكن هذا الملك عقيم، ليس أحد يريده من ولد ولا والد إلا كان السيف" والبعض يرجعها للخليفة "محمد الأمين بن هارون الرشيد"، وقد فقد الأمل في النجاة والعفو بعدما أصبح بين براثن أخيه "المأمون" فلما قيل له: "إنّ الرحم ستعطفه عليك" رد "الأمين": "هيهات، الملك عقيم، لا رحم له"..

لكن لكل قاعدة شواذ، كما علمتنا العلوم أو لنقل: إنّ القواعد الإنسانية في عمومها لا تسير في مسار آليّ أصم طوال الوقت، ولعلّ في علاقة السلطان "قايتباي" بابن أخته الأمير "تمراز" أبرز مثال وأعمق دلالة على مثل هذا الشذوذ ..

تقص كتب التاريخ أنّ الأمير "تمراز" الشمسيّ "المحمودي" نسبة للخواجا "محمود بن رستم" الذي جلبه إلى مصر في سن المراهقة مع "قايتباي" عام **839**هـ(**1435**م وقيل **836** هـ) وهو "الأشرفي" نسبة للأشرف "سيف الدين برسباي" الذي اشتراه وضمه مع المماليك الصغار في "الطباق"، ثمّ جعله من جملة المماليك الكتابية لتوقد ذهنه ونباهته.. و"الظاهري" نسبة للسلطان الظاهر "سيف الدين جقمق العلائي الظاهري" الذي اشتراه مـن بيت المال بواسطة "جاسوك" وصى الأشرف "برسباي" هو

وعدة من المماليك الكتابية، ثمّ أعتق وتدرج في المناصب في عهد "جقمق" وقد كان الاحتفال بعتق المملوك يأخذ شكلاً طريفاً وطقوساً مبهجة إذ يخرجون له الخيل ويلبسونه قماشاً وشاشاً.. ويضيف البعض إليه لقب "العزيزي" زاعمين أن معتقه "السلطان الملك العزيز جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الأشرف برسباي".

لما توفي الظاهر "جمقق" وتولى الظاهر "سيف الدين بلباي" غضب عليه وبإيعاز من الأمير "خاير بيك أو خير بيك" الذي كان صاحب السلطة الحقيقية ويحكم بالظل تم القبض على "تمراز" والأمير "قرقماس الجلب"، والأمير "أرغون شاه أستادار" وكانوا بالصعيد في مهمة هناك، فأرسل بعضهم إلى سجن ثغر الإسكندرية، فيما أرسل "تمراز" إلى ثغر دمياط وذلك عام **872** هـ. لكن لم تطل فترة سجنه طويلاً إذ سرعان ما زال حكم الظاهر "بلباي" الذي لم يستمر أكثر من شهرين إلا أربعة أيام وتسلطن الملك الظاهر "أبو سعيد تمربغا الرومي" فأفرج عن الأمراء المعتقلين ومن بينهم "تمراز" وقد أمعن في مكافَأَتِهِ بتقدمه ألف.

لكن تظل الفترة المحورية في تاريخ "تمراز" حينما اعتلى الأشرف "قايتباي" دست السلطنة -وكان ابن أخته -خلفاً لتمربغا الذي خلع بشكل كريم، وتم نقله لمنفاه بدمياط دون سجن أو تحديد إقامة وكان يسمح له بأداء صلاة الجمعة، لكن بعد شهرين حاول الهروب إلى الشام فأرسل "قايتباي" الأمير "يشبك الدوادار" للقبض عليه في "غزة" وارتبط بهذا الحادث فرض حظر تجوال بالقاهرة عام **872**هـ، حيث منع الناس من الخروج من ديارهم بعد صلاة العشاء ومنعوا كذلك من حمل السلاح والإكثار من الكلام ولم يكن المصريون قد أفاقوا من الحظر الذي استمر عشرين يوماً، والذي فرضه "تمر" الوالي و"السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف

الدين خُشقدم بن عبد الله الناصري المؤيدي "على فراش الموت والإشاعات تتحدث بموته فعاقب كل من خرج من داره بعد العشاء بقطع أذنيه ومنخاره أو ضربه بالمقارع في سوابق تاريخية تعيد للأذهان أول حظر للتجوال في التاريخ الإسلامي قام به "زياد بن أبيه" والي البصرة بعد خطبته "البتراء" ولم يقبل أي عذر في ذلك لدرجة أنه ضرب عنق أحد البدو خرق الحظر بحثاً عن عنزته الشاردة.

بعدما استتب الأمر لقايتباي بادر بتعيين قريبه على الفور "تمراز" كاشفاً على أعمال الغربية وجسورها وذلك عام **873** هـ، فكان يذهب إليها سنوياً ويقيم بها شهراً .

شهد "تمراز" بؤرة الصراع المملوكي العثماني مجسداً في أزمة "شاه سوار(سوار بن سليمان بن ناصر الدين بك دلغادر التركماني ويسمى فيما قيل محمد)" والتي بدأت حينما آزر السلطان العثماني "محمد الفاتح" كفة "شاه سوار" ضد أخيه "بوادق" المدعوم من المماليك الجراكسة في صراعهما على حكم إمارة "دلغادر" التركمانية مما مكن "شاه سوار" من الحكم بدعم عثماني واضح وخطب له في "الإبلستين" العاصمة وضربت باسمه السكة.. هذا كله شجع "شاه سوار" أن يشق عصا الطاعة للسلطان "سيف الدين خشقدم" ويحاول السيطرة على حلب والواضح أن "خشقدم" لم يكن حاسماً معه بالقدر الكافي، مما أدى إلى تنامي قوته بشكل كبير.. على العكس كان " قايتباي" والذي جعل على أولوياته دحر قوة "شاه سوار" ووضع حد لتهديداته لحدود الدولة فأرسل حملة بقيادة أمير العساكر "قلقشير" عام **873** هـ (**1468**م) أغلب جندها من المماليك الخشقدمية وكأنما أراد "قايتباي" الخلاص منهم ومن العدو دفعة واحدة.. انهزمت الحملة وأسر قائدها وقتل كثير من عساكرها وسيطر "شاه سوار" على ميناء "عينتاب" لكنّ أياً من ذلك لم يفت في

عضد "قايتباي" فأرسل حملة كبرى بقيادة الأتابك "أزبك" في شعبان **873**هـ (**1468**م) وكان الطاعون وقتها يعتصر المصريين.. أحرزت الحملة انتصارات في البداية لكن "شاه سوار" تمكن من إلحاق خسائر بها بعدما استدرجهم للقتال في مناطق وعرة وبعدها بعام استطاع "قرقماس الصغير" نائب ملطية (بلدة بناها الإسكندر متاخمة للشام) أن يلحق الهزيمة بشاه سوار وأن يحرز نصراً محدوداً. اتبع "قايتباي"، ذلك بإرسال حملة كبرى بقيادة الأمير "يشبك الدودار" خاضت معركة حاسمة وفاصلة مع "شاه سوار" فحاصرت قلعة "عنتاب" وتمكنت من هزيمته عام 876 هـ(**1472**م) وكان الدعم العثماني له قد تلاشى لانشغالهم وقتها بحرب البندقية.. استسلم "شاه سوار" بعدما ساءت صحته أمام "تمراز" طالباً العفو وأن يقبل الأرض بين قدمي السلطان فأمنه "تمراز" وسعى بذلك لدى "يشبك" والذي سلمه لبرقوق نائب الشام والذي سأله: "من أنت؟" فقال: "أنا سوار". فقال "برقوق": "أنت سوار؟" قال: "نعم". قال "برقوق": "أنت الذي قتلت الأمراء والعسكر؟! فسكت "سوار" ثم أمر "برقوق" بخلعة بها جنزير وضعت حول عنقه وقبض عليه عام **876**هـ(**1472**م) مما أغضب "تمراز" فذهب شاكياً ليشبك الذي أخذ المسألة ببرود تام قائلاً: "يا خوند (أي يا سيد ويفيد الاحترام) أنت طلبت عهدي وأنا أوفيت بعهدي معك ولا شأن لي بما صار من الأمير برقوق. نحن خدم السلطان وهذه رغبته".. أرسل "شاه سوار" للقاهرة وأعدم أمام باب زويلة فيما أقام "برقوق" نائب الشام قبة "النصر" على "سوار" بأعلى جبل "قاسيون".. الطريف أنّ هذه القبة كان يطلق عليها الناس "كرسي الداية" لأنها كانت تشبه الكرسي الذي تجلس عليه

القابلة أو الداية، وقد تهدمت بفعل أحد الزلازل عام **1173** هـ(**1759** م) ثمّ أزيلت بقاياها فترة الحرب العالمية الثانية عام **1941**م وفي عام **1960**م، أقيم في مكانها أول محطة بث تلفزيوني في زمن الوحدة المصرية السورية..

نعود لموضوعنا مرة أخرى.. طبعاً متاعب إمارة "دلغادر" لم تنتهِ عند هذا الحد حيث قاد "تمراز" الحملة التي أرسلت عام **889** هلقتال الأمير "علاء الدين" وحلفائه من العثمانيين وانتصر فيها (فصلنا لذلك في حلقة سابقة).

موقف "تمراز" النبيل مع "سوار" يقطع لنا بنبل أخلاقه وغضبته لحنث العهود وثمة قصة أخرى توثق لموقفه من حقوق الإنسان في هذا العهد، ففي أواخر جمادى الأول **875** هـ، وصل "ابن زوين" وكان قد عين كاشفاً للغربية خلفاً لتمراز وبصحبته أحد مشايخ العربان يدعى "عبد القادر بن حمزة بن نصير" مسلوخاً وجلده محشو بالقطن ومجموعة أخرى من الرؤوس المقطوعة لأنصاره وتصادف أن رأى "تمراز" "عبد القادر بن حمزة" على هذه الحالة البشعة من السلخ والحشو، وكان يعرفه في السابق فهجم علي "ابن زوين" وضربه.

كانت ثقة "قايتباي" في ابن أخته بلا حدود وحتى حينما وقع الجفاء بينهما بسبب رفض "تمراز" أن يتولى نيابة الشام سنة **885** همتعللاً بالفقر وعدم الرزق هذا ظاهراً أما باطناً فقد خشي من الابتعاد عن السلطان ووشايات الخصوم في غيابه وأغلق باب داره دونه.. لم يتسرع السلطان في فرض نفيه لمكة بالقوة الجبرية جزاء عصيانه، بل ترك الباب موارباً وسمح بجهود الوساطة التي قام بها الأتابكي "أزبك"

لتعود علاقتهما من جديد قائمة على التراحم فذهب إلى القلعة لمقابلة السلطان، فخلع عليه ونزل إلى داره في موكب حفل وقد زال ما بينهما من الوحشة والجفاء .

بالطبع لم يكن الأمير "تمراز" فقيراً كما ادعى للإفلات من المنصب الجديد، بل كان واسع الثراء وتقترب ثروته من ثروة السلطان، والطريف أنّ كليهما تعرض لعملية نصب عام **885** هـ، من جانب شخص يدعى "علي بن محمد المرجوشي" ابن أحد أعيان التجار بسوق الشرب ادعى معرفته بالكيمياء واحتال عليهما وأنفقا جملة من المال كثيرة ولم يستفيدا شيئاً ولا استبعد أنها إعادة تصدير لفكرة "حجر الفلاسفة" وإمكانية تحويل الفلزات والمعادن الرخيصة إلى ذهب فضلاً عن صنع إكسير الحياة وانخدع بها الرجلان وهي الفكرة التي شاعت في العصور الوسطى والقديمة وكان عقاب "ابن المرجوشي" مهولاً إذ أمر "قايتباي" بفقئ عينيه وقطع لسانه! طبعاً لا تستغرب يا عزيزي القارئ ففي هذا الزمان كان يمكن قبول كل شيء مثل ظهور رجل أسود بعين واحدة وسط جبهته أو امرأة لها ثلاث أثداء أحدهما تحت إبطها ..

وربما تسربت شخصية "المرجوشي" هذه إلى الموروث الشعبي الذي نجح في تطوير القصة وصناعة ملامح البطل الشعبي "حمور" الذي يسرق بشرف ولا يسرق أكثر من حاجته ولا يسرق من يربطه به "عيش وملح". وأسوق هذه القصة ولا يخالجني شك في أنها موضوعة، لكن مغزاها ومعناها له قيمة فيحكى أنّ الشاطر "حمور" كان كبير اللصوص في زمن السلطان "قايتباي" دخل هو وعشرة من أقرانه إلى منزل تاجر ثري يدعى "المرجوشي" (ربما كان والد صاحبنا الكيميائي المدعي لو صح طرف من القصة) بالقرب من جامع الغمري وكان التاجر راقداً على فراشه بجوار زوجته

فوجد "حمور" عند رأسه، فظن أنه يقتله فقال "حمور": "لا تخف يا خواجا إنما الصبيان يطلبون منا الغذاء فقط"، فقال التاجر: "لكم الغذاء وكل خير كم أنتم؟" فقال "حمور": "أحد عشر نفسًا" فدخل هو و"حمور" إلى الخزانة فأخرج التاجر لكل واحد ألف دينار، فقالوا له: "انظر كم مالك وأعطنا عشرة؟!" فقال التاجر: "هو عشرة آلاف" فقالوا: "يكفي ألف" فأعطاهم التاجر ألفاً وبينما هم يحاولون الفرار وقد حصلوا على أكثر مما توقعوا فإذا بواحد منهم يلمح "حفا" يلمع على أحد الرفوف فظنه "فضة" فلما فتحه وجد به مسحوقاً أبيضَ ناعماً فذاقه فإذا هو "ملح" فلما عرف "حمور" بأمر صاحبه قال لأقرانه: "ردوا ما معكم فوالله ما نخون شخصاً ذاق صاحبنا عنده الملح" فردوا الألف دينار للتاجر "المرجوشي" والذي حاول أن يمنحهم ولو مائة دينار ليقتسموها فرفضوا تماماً ..

نعود لتمراز والذي زادت مكانته لدى السلطان ولم يتزعزع نفوذه قط فأصبح يظهر في المناسبات العامة كالاحتفال بالمولد النبوي الشريف بصحبته كما ناب عن السلطان حين مرضه في الاحتفال بوفاء النيل وفتح السد كما تولى الأتابكية عام **901** هـ، وكذلك أقره السلطان على نظارة البيمارستان المنصوري وعلا شأنه وأصبح رأس نوبة النوب..

من الأمور التي تركت جرحاً غائراً في نفس "تمراز" وفاة زوجته "خوند بنت الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمـــــق" في رجب سنة **886** هـ، وكانت شابة جميلة ماتت وهي نفساء، بعد أن وضعت وليدها وقبلها ماتت زوجته "ملكباي" ابنة "قرقماس الجلب" وصلى عليها السلطان وحج عنها الشهاب البيجوري نزيل دمياط.. وظلّ فترة حزيناً وحاول "قايتباي" التخفيف من ألمه ..

حاول "تمراز" أن ينتزع البيعة لمحمد بن قايتباي (ابن محظية السلطان "أصل باي") ومولاه في النزع الأخير خشية أن ينقسم المماليك من بعده وربما طمعا أيضاً في أن يدير دفة الأمور من خلف الفتى البالغ أربعة عشر عاماً، فلما لم يجب السلطان "قايتباي".. أسرع "تمراز" إلى "باب السلسلة (مكانه جامع محمد علي حالياً)" أحد أهم أبواب قلعة الجبل ومعه "محمد" وأجلسه على مقعد منتظراً حضور الأمير "اقبردي" لتتم مراسم التنصيب، وفجأة هجم عليه العسكر بقيادة "الظاهر قانصوه أو الأشرف قانصوه خمسمائة" و"كرنباي الأحمر وقبضوا على "تمراز" وقد ظنوا أنه يريد أن يسلطن نفسه وعبثاً حاول أن يشرح الموقف على حقيقته، لكن لم يسمح له وحمل بمركب إلى سجن الإسكندرية مقيداً بقيدين، واحد برجليه والآخر بركبتيه، وبعدها اختفى أثره من التاريخ ولم يُعرف عنه شيء بعد ذلك ..

أما وانتهينا من سيرة صاحب الجامع والسبيل فننتقل إلى تاريخ الأثرين حيث أنشأ الأمير "تمراز" الجامع والسبيل عام **876** هـ- **1471**م ويقع حالياً بشارع اللبودية (نسبة لصناع اللبد وهو نوع من القماش تُصنع معظم أنواعه من ألياف الصوف بشكلٍ كاملٍ أو بنسب منه) تجاه قنطرة "عمر شاه" بميدان السيدة زينب .

نأتي لتسمية الجامع بجامع "بهلول" وفي رحلتنا مع الجوامع المملوكية أصبحنا متصالحين مع واقع أنّ المملوك يبني والناسك يرثه وعادة ما تكون سيرة الناسك أشهر من سيرة المملوك، لكن حالة جامع حلقتنا اليوم تختلف في علو اسم "المملوك" الذي صار "سيدي تمراز الأحمدي" عن اسم الناسك الغامض المدعو "بهلول" إذ ترجح الدكتورة "سعاد ماهر" في كتابها "مساجد مصر وأولياؤها الصالحون" من أنه ربما يكون "بهلول بن إسحاق الإنباري" المتوفى سنة **298** هـ.

ولو صح هذا الترجيح فبذلك يكون "تمراز" قد بُني هذا الجامع فوق قبر "بهلول" أو أعاد بناءَه تبركاً بكراماته.. ومع تقادم الزمان تصدع الجامع فتعهد بإصلاحه وتجديده الأمير "حسن أفندي اختيار تفكشان"عام **1180**ه، وأوقف عليه عشرة حوانيت ثلاثة أسفله وسبعة تجاه قنطرة "عمر شاه" وذلك عام **1190**ه(**1776**م).

كما أوصى السيد "محمد الشمس" ياور "محمد علي باشا" أن يكون ضريحه بالمسجد عام **1230** هوكتبت عليه أبيات من بينها: "كان الموت حيث يدرك نفس.. بجوار البهلول زخرفت رمس. مذ رأيناك يا ابن محمود تسعى.. يسعى خير بر قلت لنفسي.. في مراقي الفلاح قد أرخوه.. أبداً يرتقي محمد شمس."

6-زاوية أبو الخير الكليباتي

حفظت الحضارات الإنسانية للكلاب الكثير من الصفات الحميدة، منها إخلاصها ووفاءَها ففي الحضارة المصرية القديمة نجد الكلاب واسمها "إوو" نسبة لصوتها تستخدم في الصيد وفي الحراسة وترافق أصحابها حتى في غرف نومهم، بل وتحنط عند موتها كأحد أفراد الأسرة ولعلّ لوحة الملك "أنتف الثاني أو وِح عنخ أنتف" من ملوك الأسرة الحادية عشر الدولة الوسطى (**2115 – 2066**) ق.م، وكلابه الخمسة ذات التسميات المميزة: (الأسود – الشجاع - الأبنوس – رياح الشمال – الظبي أو الغزال)، وكذلك النقوش على جدران مقبرة (بيبي عنخ) التي ترجع لعهد الملك (بيبي الثاني – الأسرة السادسة) وبرفقته زوجته يستمعان للموسيقى وكلبهما (خخ أف) أسفل الكرسي يتناول قطعة من اللحم خير تمثيل لهذه المكانة المتميزة .

وفي الحضارة الصينية القديمة كان يعتقد بقدسية دماء الكلاب، وكانت تستخدم في قسم الولاء وختم الإيمان وكان الأباطرة يتركون مكاناً على العرش لكلبهم.. وفي المحيط العربي قديماً جاء تعريف الكلب: "كُلُّ سَبُعٍ عَقُور" أي مفترس لهذا لا نستعجب من قبائل عربية حملت اسم "بنو كلاب" وأفرادها "كلب" و"كليب" وذلك بدافع إظهارالقوة أو لبث الخوف والرعب في نفوس الأعداء أو تفاؤلاً بأول حيوان بري تصادفه المرأة حين مخاضها ومنها الكلب .

وفي الأديان السماوية وعلى رأسها الإسلام جاء ذكر كلب "أهل الكهف" في قوله تعالى في سورة الكهف: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا

وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (**18**)). واسمه "قطمير (يعني القشرة الرقيقة بين النواة والثمرة أو بين التمر و بذرته)" أو "حمران" وقد ورد في كتب المفسرين القدامى أنه كان كلب صيد لأحدهم، وقيل كان كلب طباخ الملك، وكان على دينهم فخرج معهم في سبيل الله وبصحبته كلبه .

وفي واقعنا المعاصر.. مَن منا لا تجذبه تلك المشاهد والصور التي فيها يعانق الكلب صاحبه ويقضيان العطلة سوياً بعيداً عن البشر! خيار الابتعاد عن الناس والضوضاء يبدو محبباً لكثير منا في عالمنا الحالي المكتظ بالضغوط والتحديات والصراعات سعياً وراء السلام النفسيّ معتبرين أن الكلاب تملك وفاء فريداً وعزيزاً نفتقده في نفوس بعض البشر..

تشير الدراسات العلمية التي أجريت لتفسير هذا الوفاء وهذه الصداقة المتينة بين الكلاب والبشر أنّ الكلاب حينما تنظر إلى أصحابها وترافقهم في فيافي الحياة تشعر بهدوء واطمئنان مبعثه تحفيز إطلاق هرمون "الأوكسيتوسين **Oxytocin** "بواسطة الفص الخلفي للغدة النخامية والمسمى هرمون "الحب والعاطفة والإحتضان والثقة" في أدمغة كلا الطرفين علاوة على انخفاض مستويات الكورتيزول (هرمون التوتر الأساسي المسبب لارتفاع مستوى السكر في الدم) وضغط الدم تماماً كشعور الطفل الصغير وهو يحبو ويلعب بجوار أمه ناظراً لها فيزداد نفس الهرمون المسمى هرمون "الحب" بينهما.. فيما لا نجد مثيلاً لذلك في علاقة الإنسان بالذئاب مثلاً .

الحقيقة وبينما أطوف بين ربوع التاريخ الإسلامي لم أجد شخصية قط وهبت حياتها للكلاب على الرغم من بساطة حالها على نحو ما فعل "أبو الخير الكليباتي"..

فهو رجل قصير يعرج بإحدى رجليه يجلس عند باب زويلة وفي يده عصا فيها حلق "خشاخيش أو شخاشيخ" ويربط خشباً على يديه ورجليه ويتعرى من ملابسه أحياناً ويرتديها تارة أخرى وأحياناً يجلس لأيام في بيت الخلاء في ميضأة جامع الحاكم نادماً منكساً رأسه ومؤدباً لنفسه بالقول: "تستاهلي يا خبيثة" وكان الناس يقصدونه في قضاء حوائجهم بإذن الله وقد حسبوه من الصالحين ولا نزكي على الله أحداً.

كان "أبو الخير الكليباتي" شديد العطف على الكلاب لا يفارقها في غدوه وترحاله حتى وإن ذهب للجامع أو الحمام وحدث أن أنكر عليه أحد الأشخاص طول مصاحبته للكلاب فقال له "أبو الخير": وكأنما كان على بصيرة من دخيلة نفس الرجل وأنه في حقيقته الخافية عن الناس شاهد زور: "رح وإلا جرسوك على ثور" وبالفعل لم ينقض النهار حتى قبض على هذا الرجل وهو يدلي بشهادة زور وجرس على ثور أمام الناس! وفي واقعة مشابهة اعترضه قاضٍ وهو يدخل الجامع بصحبة كلابه فقال له: "هؤلاء لا يحكمون باطلاً ولا يشهدون زوراً" وفي نفس اليوم رمي القاضي بالزور وجرس في السوق على رؤوس الأشهاد وعزل ومات ممقوتاً.

هنا نتوقف لنسأل سؤالاً مشروعاً ألا وهو لماذا كان "أبو الخير" لا يبالي بما يؤاخذ عليه من اصطحابه كلابه للجامع؟! هذا طبعاً بفرض أن الرجل كان بكامل عقله ويمتلك أهلية كاملة وليس مجذوباً وقادر على استخدام أدلة شرعية يجادل بها ومنها مثلاً ما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (كَانَتِ الكِلَابُ تَبُولُ، وتُقْبِلُ وتُدْبِرُ في المَسْجِدِ، في زَمَانِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمْ يَكونُوا يَرُشُّونَ شيئًا مِن ذلكَ.) فدل الحديث على أن مجرد مرور الكلاب

في المسجد لا يـمنع الصلاة فيه، ولا ينجس المسجد طالما لم تبُل فيه. وليس فقط اعتماده على التجليات وإرهاب الآخرين عبر كشف سرائرهم والاطلاع على مكنون نفوسهم.. واعتقد أنّ هذه الاحتمالية الأولى من فرض الحجة تبقى واردة وإن لم تذكر في نصوص الأثر عنه .

كان "أبو الخير" يشترط على كل من جاءه يطلب حاجة أو مسألة أن يشتري لأحد كلابه رطل لحم مشوي وبعدها تقضى الحاجة والمسألة بإذن الله لدرجة أن ظن بعض الناس أنها ليست كلاباً حقيقية بل هي جن مسخر بأمر الله لقضاء حوائج الناس! نتوقف هنا عند اتهام قد يراودك عزيزي القارئ ويطرق باب نفسك الحائرة من أنّ نموذج "أبي الخير" ومن على شاكلته حتى يومنا هذا يعتمدون على كوننا مخلوقات بصرية، وبالتالي يمكن بسهولة خداعنا عبر تطويع أبصارنا لقبول حيلهم ببعض المران والتدريب وأجيب عن هذا بأن هناك من الناس من يمتلك بالفعل قدرات خارقة للطبيعة دون أسباب علمية واضحة وهؤلاء كانوا في الماضي وفي حاضرنا الحالي وسيكونون في المستقبل لذلك يمكن أن نتقبل مثل هذا القصص التاريخي في خطوطه العريضة بحرص ونختلف حول بعض مبالغاته.. كما يمكن قبول أن الرجل على تواضع معارفه عرف حاسة الشم القوية لدى الكلاب من طول ملازمته لها فطوعها في البحث عن أشياء الناس الضائعة والمسروقة والمفقودة على نحو ما تقوم به الكلاب البوليسية في العصر الحديث .

نعود لأبي الخير مرة أخرى ولا تحدثنا عنه كتب التاريخ بأكثر مما ذكرناه سوى أنه توفي ثالث جمادى الآخرة عام **909**هـ(**1503**م) أي في زمن السلطان المملوكي "الأشرف أبو النصر قانصوه بن بيبردي الغوري" ودفن في هذه الزاوية التي أقامها

الشيخ الإمام العلامة القاضي "شرف الدين (الصغير) موسى بن عبد الغفار المالكي" ناظر الدولة وكاتب وثائق ومستندات السلطان الغوري في العام نفسه قيل بمبادرة ذاتية وقيل بأمر "الغوري" نظراً لمكانة صاحبها الذي سار في جنازته الأمراء ورجال الدولة والقضاة.

واعتقد أن باعث هذا الشيخ لو انطلق من ذاته سيكون انتصاراً لمذهبه المالكي الذي جسده "أبو الخير" وانفرد فيه من أن الكلب "طاهر العين" لأن "الأصل في الأشياء الطهارة فكل حي طاهر، وكذا عرقه ودمعه ومخاطه ولعابه".. المفارقة النادرة أن هذه الزاوية التي شيدت للرجل المحب للكلاب كانت بجوار جامع "الحاكم بأمر الله" الخليفة الفاطمي الذي أمر بقتلها في الماضي، فقتل ما يربو على ثلاثين ألف كلب، لترشيد استهلاك الحبوب لمواجهة أزمات القمح الملحة والمتلاحقة لأنها تزاحم البشر في أكل الخبز المصنوع من القمح! حل من خارج الصندوق في زمنه لكنه لو استمر لهدد التوازن البيئي في مصر في المقابل. جاءت الزاوية لتحتل زيادة بناها "الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي" ابن الحاكم بأمر الله وأضيفت للجامع في عهد الصالح "نجم الدين أيوب" والمعز أيبك ولم تسقف لتكون في النهاية من نصيب صاحبنا المحب للكلاب "أبو الخير الكليباتي" ويجتمع النقيضان جنباً إلى جنب في مكان واحد وفي صفحة واحدة من التاريخ وهذا من أعجب ما يمكنك أن تشاهده من دوران الدهر وصروف الأيام التي تقصها آثارنا العظيمة في خلود وشموخ .

الطريف أنّ مكانة "أبي الخير" لم تنتهِ بزوال العهد المملوكي ودخول العثمانيين مصر فقد أقام "خاير بيك" أول حاكم لمصر في العهد العثماني خاتمة في مقام "أبي الخير"

في ذكراه مهدياً ثوابها للسلطان "سليم الأول" وذلك في شهر جمادى الآخرة عام **924**هـ(**1518**م). وبحسب "علي مبارك" في خططه التوفيقية فقد ساد الاعتقاد لدى النساء أن البئر بداخل الزاوية فيها صوالح من الجن فكن يلقين فيه السكر ويغسلن أطرافهن فيها أملاً في الاستشفاء.

7- جامع الطباخ

يقولون: "أقصر طريق إلى قلب الرجل معدته"، مقولة بلا شك قديمة ولعلّ أصلها يعود لأشعب والذي نقل عنه صاحب العقد الفريد "ابن عبد ربه الأندلسي": "قيل لأشعب: ما أحسن الغناء قال: نشيش المقلي. قيل له: فما أطيب الزمان قال: إذا كان عندك ما تنفق. وكان أشعب يغني: وكان الحب في القلب فصار الحب في المعدة" ولكن من الصعوبة بمكان اعتبارها قاعدة علمية صماء ومع ذلك تبقى مطلة بتطبيقاتها العملية العديدة وبلا حدود عبر التاريخ لذلك حينما نقلب في حلقات التاريخ المملوكي لا نستغرب علاقات خاصة تربط الأمير المملوكي أو السلطان بطباخه وصانع طعامه فهو علاوة على كونه المؤتمن على صحته وحياته فهو أيضاً يتفنن في صناعة ما يشتهيه الأمير أو السلطان فيروي ظمأه ويلبي نداء بطنه الجائعة في كل وقت وحين وبأي مكان .

وشهوة الأمير أوالسلطان المستمرة للطعام لها ما يبررها أيضاً إذ إنّ طبيعة الحياة المملوكية المتقلبة وغير المستقرة والمليئة بالخطوب والأهوال تدفع نحو زيادة هرمون "الكورتيزول (هرمون ستيرويد تنتجه الغدد الكظرية)" مما يزيد الشهية وتناول الطعام ويزيد الوزن في المقابل لتراكم الدهون ..

لكن في حلقتنا هذه.. العلاقة بين الأمير والطباخ لم تكن على نحو ما أفردنا له في التقديم بل كان عنوان العلاقة هي "جامع" شيده "الأمير" وأعاد بناءَه "الطباخ !"

أما عن الأمير المنشئ فهو "جمال الدين آقوش بن عبد الله الأشرفي" كان من مماليك السلطان "أبو المعالي الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي النجمي ولقبه أبو الفتح" ثم ألحق بخدمة ابنه "السُّلْطَان الْملك الْأَشْرَف صَلَاح

الدّين خَلِيل ابْن الْملك الْمَنْصُور سيف الدّين قَلَاوُونَ الألفي العلائي الصّالِحِي النجمي" وإليه ينسب وقد ولاه نيابة "الكرك (مدينة بالأردن)" والتي استمر بها قرابة العشرين سنة بين عامي **690** هـ-**709** هـ، حتى غلب عليه لقب "نائب الكرك" وصار يعرف به وكان معاضداً للسلطان "الملك ناصر الدين أبو المعالي محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي" وفي خدمته وقت إقامة الأخير بالكرك ومع مباشرة السلطان "الناصر محمد" لصلاحيته بشكل تام ولاه نيابة دمشق عام **711** هـ، بدلاً من الأمير "سيف الدين كراي المنصوري"، ثمّ عزله في العام التالي وعيّن بدلاً منه الأمير "سيف الدين تنكز الحسامي الناصري"، وما إن وصل "جمال الدين" مصر حتى قبض عليه وظل معتقلاً حتى عام **715** هـ، ثمّ أفرج عنه وأصبح يجلس في مجلس السلطان الناصر "رأس الميمنة" محتلاً منزلة خاصة لديه فكان يقوم له إذا قدم مميزاً له عن غيره من الأمراء وقد صار بينهم الأكبر سناً ومقاماً .

وفي ذلك يقول: "صلاح الدين الصفدي" في كتابه "تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب": "ثمّ أتى آقوش نائب الكرك.. ولم يقم بربعها حتى ترك. وكان من بعد كبير الدولة.. زينها بصونه والصوله. إذا أتى قام له السلطان.. فيزدهي بذلك الإيوان. ثمّ استحال بعد ذا عليه.. ولم يكن ملتفتاً إليه."

من مآثر الأمير "جمال الدين آقوش" عنايته بالمدرسة الصالحية (تعود للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب الملقب بأبي الفتوح بناها **641**هـ/ **1243**م لتضاهي المدرسة المستنصرية التي شيدها الخليفة المستنصر العباسي قبلها بنحو عشر سنوات) وكانت أول مدرسة بمصر تقوم بتدريس المذاهب الفقهية السنية الأربعة، فاستشار الفقهاء والقضاة في عمل منبر

بها لإقامة شعائر الجمعة عام **730**هـ، فأفتوه بذلك فعيّن "جمال الدين الغزاوي" خطيباً بإيوان الشافعية بالمدرسة براتب خمسين درهماً (الدرهم نقد فضي قيل أصله فارسي من درم الفارسي وقيل يوناني من دراخما) شهرياً، وستة مؤذنين براتب عشرة دراهم شهرياً لكل منهم، علاوة على تخصيص قارئ لقراءة القرآن، وأوقف على ذلك. وكان يتفقد المؤذنين بنفسه في جوف الليل قبل التسبيح كما تصدّق بنحو ثلاثة آلاف أردب من الغلال.

ولما أسند إليه نظر البيمارستان المنصوري عام **723** هـ، رتب أموره أحسن ترتيب وأشرف على الإصلاحات به فأصلحت الجدران وجدد الدهان والبياض ونحت ظاهر المدرسة والقبة والمئذنة بالأزاميل، كما أنشأ قاعة بالبيمارستان في شعبان عام **726** هـ، ونحت جدر المدرسة المبنية بالحجر داخلها وخارجها وأعاد طلاء الطراز الذهب من الخارج فبدا وكأنه جديد.. وكان يتفقد أحوال المرضى بنفسه وأحياناً كثيرة متخفياً ليلاً ونهاراً وقبل الفجر للوقوف على أحوال المرضى عن كثب خاصة الضعفاء والمجانين، ويسأل عن الفرش والطبيب والحقيقة أنّ الرجل كان سباقاً لما نسميه اليوم في أنظمة الجودة الصحية الحديثة ب (**Leadership WalkRounds**)والتي تقوم فيها قيادة المستشفى بالمرور على الأقسام واستطلاع آراء القائمين على الخدمة من الممارسين الصحيين في أماكنهم، وكذلك آراء المرضى في الخدمة المقدمة لهم بما يسهم في تعزيز سلامة المرضى وتطوير الخدمات المقدمة. والواضح أنه كان من المؤمنين بعلاج المجانين بالموسيقى حيث أحضر لهم مجموعة من الجواليقية أي الموسيقيين (جمع جوقة) كما كان صارماً في

وجوب خروج المريض من البيمارستان بمجرد شفائه، وهذا ملمح آخر من ملامح الجودة عند الرجل إذ في ذلك تجنب للازدحام الشديد دون داعٍ. كما استبدل حوضاً كانت تنبعث منه الروائح الكريهة عند باب البيمارستان بسبيل للماء العذب يشرب منه الناس وتحمل تكلفة ذلك من ماله الخاص دون مساسٍ بمال الوقف، وكأن الرجل قد سبق عصره في هذا الملمح أيضاً إذ في ذلك تطبيق لأساليب مكافحة العدوى.

كما أمر بعمل خيمة أو مظلة تقي الباعة بسوق "القفيصات" من حر الشمس وكانوا يفترشون تجاه شبابيك القبة المنصورية لبيع الأساور والخلاخيل للنساء .

في مقابل هذا الوجه الإصلاحي المنشد للتغيير كان لدى الأمير "جمال الدين آقوش" وجه آخر في منتهى القسوة والبطش ولا يعرف الرحمة قط، فعنده الذنب الصغير كالكبير سيان يعاقب على كليهما عسفاً وجوراً حتى كان يضرب ألف عصا وأكثر مما أهلك خلقاً كثيراً ومن غريب عاداته أن كان يتردد على معبد بالجبل الأحمر منفرداً بنفسه يومين أو ثلاثة وكان ينتقل من داره (كانت بين الخرنفش وباب سر البيمارستان المنصوري) إلى الحمام برداء غير مصقول حاملاً مئزره وطاسته لا يعاونه أحد من غلمانه ويخرج منه عرياناً وحدث أن رآه أحد الناس على هذا الحال فعرفه وأراد معاونته فأخذ الحجر وحك رجله وغسله بالسدر و"جمال الدين" يكظم غيظه ولا ينبس ببنت شفة.. وكما يقولون في المثل الشعبي: "خيراً تفعل شراً تلقى" وهذا المثل الذي يتعارض مع روح الإسلام لا يخيب في العادة مع المماليك أو ربما صمم ليناسب جزاء المعروف الشعبي في أزمنتهم فما أن وصل

"جمال الدين" لداره حتى استدعى الرجل وطرحه أرضاً وضربه قائلاً: "أنا مالي مملوك، ما عندي غلام، مالي طاسة حتى تتجرأ عليّ أنت".

وكان قد قام على عمارة جامعه الذي نحن بصدده بظاهر الحسينية والغريب أنه لم يوقف عليه وكان يدخل ليتفقده وحده فإذا وجد تراباً تحت حصيره أو بقناديله استدعى المنوط به العمل وضربه، وحدث ذات مرة وهو بمفرده في الجامع أن آتاه جندي كردي من الحسينية ومعه طعام قصعة (وعاء) لبن ورقاق في وسطها وأراد أن يضايفه وابتدره بالقول: "بسم اللّه" وقد بسط سفرته فدهش "جمال الدين" وقال: "من دلك عليّ أو أعلمك بي؟ "قال الجندي: "واللّه ولا أحد". فسر منه وطلب مماليكه وأكلوا جميعاً وأمر بصرف ستمائة درهم له.. الواضح أنّ هذا التكريم أطمع جندي كردي آخر أن يحذو حذو زميله فكان جزاؤه ستمائة عصا !...

هذه الشدة المبالغ فيها أقحمته في خلافات مع السلطان كان في حل منها فقد حدث أن ثار خلاف على الميراث بين ابنته وكانت زوجة "بكتمر الحاجب" وزوجة بكتمر الأخرى (جارية السلطان) فضرب الزوجة الأخرى ستمائة عصا حتى ماتت، وفي ذلك إيثار عنيف لابنته وذنب فادح، ولو كانت على حق. كما ضرب "بازدار (كلمة فارسية مشتقة من طائر الباز وتعني المختص بالصيد)" من "بازدارية" السلطان ألف عصا حتى مات بعد يومين أو ثلاثة وهو رقم مهول وذلك لأنه رآه عند باب اللوق وقد شتم سقاء له وشتم أستاذه (أي جمال الدين نفسه وطبعا دون قصد). وكان يقول له وهو يضربه: "والك أنت والسقاء تخاصمتها، أنا أيش كنت في الوسط؟! (أي ما شأني بتخاصمكما حتى أُشتم)".

ويبقى أعجب جانب في حياة الأمير "جمال الدين" ألا وهو تأشيراته الغريبة على الأوراق ومنها: "الاجتماع مقدر"، وذلك رداً على ما كتبه مملوك يطلب الحضور بين يدي "مولانا ملك الأمراء" في دمشق ومنها أيضاً: "من كان يومه بخمسين وليلته بمائة ماله حاجة بالجندية"، وذلك تعليقاً على أحد موسري دمشق، وقد طلب إقطاعاً ومنها أيضاً: "إن تصبر على أذى أولادهم وإلا فاخرج من بلادهم" وذلك تعقيب على شكوى مملوك من إيذاء الصبية له ومن أغرب هذه التعليقات على الإطلاق قوله لأحد المماليك وربما كان على شفا معصية أو ربما اقترفها: "قد أحصيناك وإن عدت إلى مثلها أخصيناك ".

ومع ذلك كان رجلاً ذا رأي وحنكةٍ رأيناها فيما سبق ذكره من أحداث وأدوار اضطلع بها ونراها في نصائحه أيضاً للأمير "تنكز" والذي كان مديناً لجمال الدين في بقائه في النيابة إذ نصحه أن يأخذ حذره من تقلبات السلطان قائلاً: "أما أنا فقد أمسكت، ولكن خذ أنت حذرك منه" كما أوصاه بعدم قبول الهدايا التي تقدم له؛ فغاية قيمتها لن يتعدى خمسين ألف دينار، بينما عطاء السلطان السنوي مائة ألف دينار في السنة.

وقد أدخلته معارضاته وأفعاله الموتورة في صدامات مع السلطان الناصر "محمد بن قلاوون" وحتى يتخلص الأخير منه ولاه نيابة طرابلس بالشام عام **734** ه، ومع إلحاحه في الاستعفاء والرغبة في الإقامة بالقدس أمره السلطان بالتوجه لدمشق وهناك تلقاه "تنكز" بالترحاب وأقام له سماطاً بدار السعادة حضره الأمراء، ثم قبض عليه وذلك عام **735** ه، وأودع قلعة دمشق، ثمّ جرى نقله لبرج بقلعة "صفد" ومنها لسجن الإسكندرية بعدها بعامٍ، ومات فيه عام **736** ه، ويقال في سبب

موته أن كان برأسه "سلعة" أي "زيادة" في البدن أو الرأس كالندبة تتفاوت في حجمها بين الحمصة والبطيخة فقطعها بعد استئذان السلطان فتسببت في وفاته .

ها قد انتهينا من خبر الأمير وحان وقت رحلتنا مع الطباخ الذي أعاد البناء وهو "علي بن الطباخ أو الحاج علي الطباخ" والذي رافق السلطان "الناصر محمد" في مصر، ومن ثمّ الكرك، ثمّ عاد معه لمصر حينما استتبّ الأمر له، وأصبح "خوان سلار" أي كبير رجال المطبخ السلطاني مشرفاً على مآكل السلطان ومآدبه ومسؤولاً عن المطبخ السلطاني بصلاحيات كاملة وأيادٍ مطلقة لفرط ثقته به ..

تجمعت لعلي ثروة طائلة خلال عمله حيث كان يتولى منفرداً أمر إعداد المهمات والأعراس والأفراح والمآدب والولائم للوجهاء من الأمراء، وما يتبقى منها من بقايا كرؤوس الغنم والبقر والأكراع والكروش وسقط الدجاج والأوز وأعضائها يبيعها لحسابه الشخصي .

وحدث أن كان قد انتهى لتوّه من تجهيزات فرح ابن "بكتمر الساقي" على ابنة الأمير" تنكز" نائب الشام وبحوزته بقايا شتى يستعد لبيعها وهذه البقايا لا تحتمل أن تبقى طويلاً، وقد تتلف فإذا بالسلطان "الناصر" يقطع عليه طريق بيعته ويستدعيه آخر النهار ليعد له أكلة شعبية من طعام الفلاحين (خروف رميس ملهوج) فعبس الحاج "علي" في وجهه. فصاح به السلطان غاضباً: "ويلك مالك معبس الوجه؟" فقال "علي": "كيف لا أعبس وقد حرمتني الساعة عشرين ألف درهم نقرة (أي أضعت عليّ فلوساً بالقيمة المذكورة في الساعة التي استدعيتني فيها)"، وراح يعدد ما تجمع لديه من بقايا كان يستعد لبيعها وتأخيرها حتى ينتهي من الطبخ له يتلفها ويضيع عليه ربحاً مضموناً .

الغريب أن "الناصر" لم يعاقب طباخه على هذه الجرأة وهذا التربح غير الرسمي من عمله على الملأ، بل وعده أن يعوضه قائلاً بابتسام: "رح أطبخ وضمان الذي ذكرت عليّ" وبالفعل أوفى السلطان بوعده وأمر والي القاهرة ومصر بحمل البقايا التي بحوزة الطباخ وبيعها نيابة عنه فبلغ ثمنها ثلاثة وعشرين ألف درهم نقرة أي أكثر مما قدر الطباخ.. تصور معي هذا إيراد بيعة واحدة ليوم واحد!

وقد قدر ما كان يتحصل عليه يومياً من المطبخ السلطاني بخمسمائة درهم نقرة ولولده "أحمد" ثلاثمائة درهم نقرة، ومع هذا الدخل الضخم ظلّ على مكانته لدى "الناصر" وأولاده من بعده (الملك المنصور سيف الدين أبو بكر - الملك الأشرف علاء الدين كجك - الملك الناصر شهاب الدين أحمد - الملك الصالح عماد الدين إسماعيل) ولم تستطع الوشايات أن تنال منه ومن مكانته أو أمواله التي تضخمت بشكل غير مسبوق إلى أن آل الأمر للملك "الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون" فصادر أمواله عام **746** هـ، وقد تضمنت خمساً وعشرين بيتاً على النيل وقد استحوذت أم السلطان على بعض هذه الدور المصادرة الفارهة؛ فأخذت داره العظيمة على البحر وأنقاض داره التي بالمحمودية من القاهرة، كما عوقب ابنه "أحمد" بالضرب وتعطلت عملية تجديد الجامع ولم تقم فيه الصلاة .

لا نعرف حجم العلاقة بين الأمير "جمال الدين آقوش" والطباخ "علي" رغم المعاصرة بينهما فهل كان معروف سابق للأمير هو الذي جعل "الطباخ" يجدد ما شيده "الأمير" رداً للجميل أم أنها وصية أو ربما لقرب الجامع من أحد قصور "الطباخ" أو ربما بأمر السلطان "الناصر"؟!

نأتي لموقع الجامع الحالي وهو شارع "الصنافيري" بعابدين نسبة لضريح الشيخ "إسماعيل الصنافيري" وكان الشارع يحمل قبل هذا الضريح اسم "باب اللوق" وكان الجامع بجوار بركة الشقاف وقد جدد الجامع في عهد السلطان العثماني "سليمان القانوني" في عام **949** هـ/ **1542** م، ثمّ أخيراً في عهد الملك فؤاد عام **1931**م، حيث أوكل تصميمه الأخير للمهندس الإيطالي "ماريو روسي"، وكان هذا المهندس قد جرى استقدامه إلى مصر بدعوة من كبير معماري القصور الملكية "أرنستو فروتشي" عام **1921**م، وقد أسلم بعد ذلك وأشهر ذلك في جامع (أبو العباس المرسي) وهو الجامع الذي بدأ تشييده عام **1933**م في تصميم مشابه لقبة الصخرة بالقدس.

القسم الثالث

حكايات من الأرشيف في رمضان

1- قضايا المجتمع في رمضان من أرشيف الصحافة المصرية الرمضاني قبل مائة عام مجلتا (مصر الحديثة- الدنيا المصورة)

ستظل الصحافة المصرية وأرشيفها الممتد مرآة عاكسة لواقع المصريين على اختلاف أطيافهم على مدار التاريخ ومعيناً لا ينضب أمام الباحثين عن حياة العوام من الناس، خاصة في العصر الحديث وهو التاريخ الذي لم يكتب حتى الآن، ولما كان التاريخ في رمضان غالباً ما ينصب على أخبار أولى الأمر وصفوة المجتمع ونجومه، وبعض الغرائب في أيامهم؛ كان لزاماً في المقابل إماطة اللثام عن قطوف من حياة الناس البسطاء وحلقات مفقودة من شكل قضاياهم الاجتماعية في مطلع القرن المنصرم حتى تكتمل الصورة، لذا كان انتخابي لبعض طرائف هذه القضايا التي تكشف بجلاء عن صور مختلفة ومتباينة عما ظنناه مثالياً في الماضي المنصرم ..

القضية الأولى:

قال تعالى في سورة الإسراء الآية **23**: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) فأوجب على الأبناء إظهار العطف والمودة نحو الوالدين وبرهما، والتكفل بحاجتهما لكن في المقابل أوجب الدين اشتراطات على الوالدين لاستحقاق هذا البر.. ومن المشهور ما يروى أنّ رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يشكو إليه عقوق ابنه فأحضر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنه وأنبه على عقوقه لأبيه، فقال الابن: يا أمير المؤمنين، أليس للولد

حقوق على أبيه؟ قال: بلى، قال: فما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: أن ينتقي أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه الكتاب (القرآن). فقال الابن: يا أمير المؤمنين إنه لم يفعل شيئاً من ذلك: أما أمي فإنها زوجة (وقيل زنجية) كانت لمجوسي، وقد سماني جعلاً (جعراناً)، ولم يعلمني من الكتاب حرفاً واحداً. فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل، وقال له: "أجئت إليّ تشكو عقوق ابنك، وقد عققته قبل أن يعقك، وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك". هذه القصة وإن كانت مجهولة السند إلا أنها تتفق في خطوطها العريضة مع عدد من الأحاديث الضعيفة التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "حَقُّ الولدِ على والدِه، أن يُحْسِنَ اسمَه، ويُحْسِنَ مَوْضِعَه، ويُحْسِنَ أدبَه" وعنِ ابنِ عباسٍ قال: "قالوا يا رسولَ اللهِ قد علِمْنا حقَّ الوالدِ فما حقُّ الولدِ قال أن يُحسنَ اسمَه ويُحسنَ أدبَه"

والحقيقة أنّ عظات قصتنا التي سنسردها فيما يلي تصب في هذا المنحى، ففي مجلة "مصر الحديثة المصورة" العدد ٣٤ في ٢٦-٢-١٩٣٠م (٢٧ رمضان) أنّه وفي نحو عام ١٩٠٠م تزوج عم "حسن" بائع الحلوى بباب الشعرية من "زينب السيد أحمد" وأنجب منها "زكي" فلما تزوج بأخرى غضبت وقررت الانتقام منه، فتركت له ابنه في المحل، فحرر لها محضراً في قسم البوليس، وهناك تنكرت لبنوة الطفل فطلقها.. كبر "زكي" والتحق عام ١٩١٦م بمصنع العلب بفابريقة "ملكونيان انبلاس" وكان مرتبه ٣٥ قرشاً أسبوعياً، فطمعت الأم أن يكون لها قسم من دخل ابنها والواضح أنه لم يكن يبرها في الكبر رداً على قسوتها معه في الصغر، فذهبت للمحل الذي يعمل به ابنها وطلبت مقابلة المدير أو الخواجة "الكومنده" وراحت تبكي وتندب قائلة:

"جعانة يا سيدي الخواجة يخلصك وابني عندكم قد الدنيا؟! "فاستدعى المدير "زكي" والذي أنكرها قائلاً: "أمي؟! أبداً أنا معرفكيش إنت كدابة اللي ما شفتك قبل كدا أبداً"... لكن دموع الأم جعلت المدير يلزمه بدفع عشرة قروش أسبوعياً من راتبه لصالحها، فخرجت تدعو للخواجات ومستنزلة اللعنات على ابنها البخيل قاسي القلب ..

ومع زيادات مرتبه راحت تطالبه بزيادات مقابلة حتى وصلت بنصيبها المقتطع من راتبه لثلاثين قرشاً أسبوعياً ..

في عام ١٩٢٢ تم استدعاء "زكي" للخدمة العسكرية، فساومته أمه على الاعتراف بأنه يعولها حتى يحصل على الإعفاء مقابل أن يدفع لها عشرة جنيهات أي نصف قيمة البدل !..

دفع "زكي" مجبراً ثلاثة جنيهات على أن يسدد الباقي لاحقاً، لكنه نكث وعده فتقدمت ببلاغات لوزارة الحربية بأنها أثبتت بيانات غير صحيحة من أن ابنها يعولها، وأنه خدعها كما تقدمت ببلاغ للبوليس تتهمه بعدم الإنفاق عليها، فأحضر إيصالاً بمبلغ ثلاثين قرشاً موقعاً منها وأن مثل هذا المبلغ يدفعه لها أسبوعياً..

حاولت الأم أن تستميل ابنها للعيش معها وربما كان ذلك لتدفع عنه تأثير أبيه، لكنه أبى وصمّم على الإباء فقررت الانتقام منه بأن ادعت أمام نيابة الموسكي أن ابنها كسر ذراعها وأسنانها مستغلة ليونة إحدى يديها كدليل على الادعاء الذي حفظ لعدم كفاية الأدلة ..

في عام ١٩٢٧م حينما استقل ابنها وفتح محلاً للحلوى رفعت قضية نفقة عليه وحصلت على الحكم من محكمة الجمالية الشرعية بمبلغ تسعين قرشاً شهرياً وخمسة عشر قرشاً كسوة وثلاثين قرشاً مسكناً، ثم أعقبتها بدعوى أخرى لزيادة النفقة شطبت لعجز الابن عن الوفاء بذلك.. لكنها لم تستسلم فأقامت دعوى أمام محكمة الوايلي تطالب بمبلغ ٨٦٠ قرش والمصاريف وحصلت على أمر بالحجز التحفظي على ابنها، فلما أظهر الابن إيصالات بالمخالصة شطبت الدعوى في جلسة ٢٩ ديسمبر ١٩٢٩م، فأعادت الكرة وتم الحجز بمبلغ ١٠٨٠ قرش في ٨ فبراير ١٩٣٠م، فقدم "زكي" إيصالاته مجدداً ليصبح مجموع البلاغات والقضايا أربعاً وأربعين!

هذه القضية ذكرتني بقضية شاعت وقت ثورة ٢٥ يناير عام ٢٠١١م حول الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك، وقد كنت سمعتها وأنا صبي من أحد الموظفين بالمخابرات وكان يزور والدي بحكم صداقة قديمة بينهما..

حيث تناقلت الصحف المصرية والعربية وموقع "مصراوي" نقلاً عن جريدة (الفجر) المصرية في عددها الأسبوعي والتي نقلت بدورها عن المحامي "نبيه الوحش" من أنّ السيدة "نعيمة محمد مرسي مبارك" المقيمة في قرية كفر مصيلحة، ومحلها المختار مكتب الأستاذ عبد المنعم أحمد المحامي أقامت دعوى نفقة رقم (**20** لسنة **1960**) في **4** مايو **1960**م، أحوال شخصية محكمة شبين الكوم الجزئية على ابنها السيد "محمد حسني السيد مبارك" رئيس الجمهورية الأسبق وكان حينها يشغل رتبة نقيب بالقوات الجوية براتب يتعدى الخمسة عشر جنيهاً، حيث أنّ والده المرحوم "السيد إبراهيم مبارك" توفي في العام نفسه تاركاً لها أربعة أبناء وهم

(سامية، أحمد سامي، فوزي، وعصام)، ومعاش المتوفي المتواضع لا يكفي القيام باحتياجاتهم ولا يفي بضروريات الحياة، وأنّها استنفدت كافة الطرق الودية في جعل ابنها يساعدها في الإنفاق على أشقائه. الطريف أنّ الدعوى جاءت مواكبة لعيد ميلاد "مبارك" الثاني والثلاثين. وتم التصالح في الدعوى بشكل وديّ خاصة أنّ خسارته للدعوى مؤكدة في ظلّ ظروف والدته الصعبة وتم التصالح على أن يدفع "مبارك" لوالدته ثلاثة جنيهات وأربعين قرشاً شهرياً. ولو صحت هذه الرواية فلا أخاله وهو ينظر في المحكمة من خلف القضبان نظرته الشهيرة إلا متذكراً ومستغفراً هذا العقوق.

القضية الثانية:

قال تعالى في سورة النساء الآية **29**: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ)..

تعد قضايا النصب من الأمور الشائكة في المجتمع ولعلّ أغربها في أرشيف الصحافة المصرية الرمضاني قبل اثنين وتسعين عاماً مضت، وتصلح تفاصيلها أن تكون عملاً درامياً بامتياز إن لم تكن خيوط منها قد استخدمت بالفعل في أعمال سينمائية أو تليفزيونية أو مسرحية سابقة.. هذه القضية من مجلة الدنيا المصورة في ٣ فبراير ١٩٣٢م (٢٦رمضان) وقصة "حسن عبده خضر" من أهالي الدقهلية عمره ثلاثة وثلاثين عاماً ويعمل مدرساً في مدرسة الرشاد في المنصورة.. كان "حسن عبده "يمتلك من المؤهلات الشخصية ما سهّل له الصعود السريع، فقد كان قويَّ الشخصية، ذا نفوذٍ كبيرٍ على محيطه، متوقد الذكاء، واسعَ المطامع، علاوة على إجادته للغة الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية بشكل مدهش، وكانت هذه الإجادة للغات المختلفة من أسباب نجاحه فسرعان ما أصبح سكرتيراً لدولة

"محمد محمود باشا" أثناء رحلته لأمريكا للاتصال بالمستر "فولك" عضو مجلس الشيوخ الأمريكي الذي انتدبه الوفد المصري للدفاع عن القضية المصرية في أمريكا، ثمّ أصبح سكرتيراً شرفياً للمفوضية البريطانية في جدة وأخيراً سكرتيراً لشركة "نترات الشيلي" في مصر. كان لحسن صديق من موظفي إحدى المفوضيات الأجنبية زوجته إيطالية حسناء ولها شقيقة لا تقل عنها جمالاً وحاصلة على شهادة التجارة العليا.. لما رآها "حسن" هام بها وأخذ يوهمها أنه موظف كبير يتقاضى مرتباً باهظاً وراح يغدق عليها الهدايا والعطايا حتى وقعت في شباكه ومما زاد من حبها وإعجابها به درجة بلاغة خطاباته الإيطالية التي ترتقي أن تكون من نفائس الأدب الإيطالي فاعتنقت الإسلام وتزوجت به زواجاً شرعياً.. إغداق "حسن" للمال الوفير على زوجته الحسناء كان أحد أسبابه للجوء للنصب إذ كان من المحال بمكان أن يوفر له راتبه البسيط كل هذه المتطلبات فراح يستغل وظيفته في الشركة للكسب غير المشروع فأوهم البعض بقدرته على توظيفهم في الشركة نظير "سمسرة مالية" تدفع له ومن بين من خدعهم شخص يدعى "زكي أفندي سمعان" دفع له عشرة جنيهات ليلحقه بالشركة وراح يماطله فتسرّب الخبر إلى الشركة والتي اتخذت قراراً بفصله بسبب أعماله التي أساءت لسمعتها .

عن طريق حماته التي أرادت مساعدته في الحصول على سمسرة. تعرف "حسن" على وجيه فلسطيني من موظفي الحكومة المصرية يقيم في "يافا" ويمتلك عزبة في جوار أهرام الجيزة يريد بيعها ليشتري أرضاً في فلسطين التي أصبح يقيم ومستقراً فيها بعد خروجه من الخدمة .

حتى يحكم "حسن" الفخ حول صيده الجديد فقد ذهب إلى "أحمد أفندي خيري" وكيل شركة "نترات الشيلي" وأوهمه أنه يعمل لصالح شركة إنجليزية جديدة في مصر ويريد مساعدته في إجراء معاينة لعزبة وإعداد تقرير عن مساحتها وحدودها وحالتها وقيمتها من الباطن دون إخبار صاحب العزبة حتى لا يضيع عليه مبلغ السمسرة إذا عرف صاحب العزبة الشركة الجديدة، واتفق معها مباشرة. فتحمّس "أحمد أفندي خيري" لهذه المهمة وهو يظن أنه يسدي معروفاً ومساعدة لمرؤوسه الذكي السابق تشجيعاً له في عمله الجديد ..

وفي الوقت ذاته أوهم "حسن" صاحب العزبة الذي حضر خصيصاً من فلسطين بأنّ شركة "نترات الشيلي" ستشتري العزبة بثمنٍ كبيرٍ، وستوفد كبير مهندسيها الزراعيين "أحمد أفندي خيري" لمعاينة العزبة، فابتلع الرجل المسكين الطعم حينما رأى "أحمد أفندي خيري" يعاين العزبة بالفعل ويعد التقرير عنها.. نجحت خطة "حسن" الماكرة وراح يحصل على المال من صاحب العزبة من وقت لآخر حتى وصلت المبالغ التي حصل عليها خمسين جنيهاً موهماً إياه بأن تأخر الشركة في إتمام الصفقة ودفع الثمن هو من قبيل الروتين الموجود في كل الشركات وأنّ البيع واقع لا شك فيه .

حدث تحول كبير في مسار "حسن" وبدأ يتجه للنصب على مستويات أكبر وبحيل مبتكرة وذلك بعدما تعرف على المستر "لانج" وهو من كبار موظفي الحكومة المصرية في وزارة المالية وخرج لتوه من الخدمة فاحتال عليه وأوهمه بأنّ أحد أصحاب الملايين الأمريكيين ويدعى المستر "هارت" أراد أن يؤسس شركة كبيرة في مصر للمحصولات الزراعية المصرية عبر شراء الأراضي المصرية وزراعتها

فاكهة، وشراء أسطول من الطائرات لنقلها إلى أوروبا، وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف فقد عهد لرجل أعمال بريطاني يقيم بالإسكندرية ويدعى "جيمس كلارك" لتنفيذ هذا المشروع الواعد وأنّ الأخير بدوره اتفق مع "حسن" لعمل اللازم لتأسيس الشركة برأس مال **200** ألف جنيه.

وحتى يحكم "حسن" خدعته فقد استأجر شقة كبيرة بعمارة "بهلر (شيدها تشارلز بهلر مكان فندق سافوي التاريخي الفخم وهو رجل أعمال سويسري له استثمارات عديدة في قطاع الفنادق والعقارات بمصر)" بشارع قصر النيل إيجارها الشهري خمسة عشر جنيهاً كما اتفق مع بعض شركات الأثاث الأجنبية أن تورد له أثاثاً على أن يدفع ثمنه مؤخراً، فبدا المكتب كما لو كان لشركة بريطانية كبيرة تحمل اسم "شركة المنتجات الزراعية المصرية البريطانية" باللغتين العربية والإنجليزية.. كما أرسل لمستر "لانج" خطابا في البريد المستعجل موقعاً باسم "جيمس كلارك" يبشره بتعيينه مديراً عاماً لفرعها في مصر براتب سنوي قدره ألف جنيه، ثمّ ثلثمائة جنيه مقابل تعيينه عضواً في مجلس إدارة الشركة علاوة على ثلاثين جنيهاً شهرياً لمصاريف انتقاله.

سال لعاب مستر "لانج" لهذا العرض السخي وابتلع الطعم تماماً وهو يشعر بعظيم الامتنان لوساطة "حسن" فيه وأصبح أشبه بآلة في يد "حسن" يستخدمها في النصب تحت ستار شركته الوهمية المزعومة ..

راح "حسن" يغري أصدقاءَه من الموظفين على ترك وظائفهم والالتحاق بالشركة الكبيرة بمرتبات تتراوح بين **20**و **50**جنيهاً، ويحصل من كل واحد منهم على

عمولة لنفسه مقابل ذلك ومن بين ضحاياه مستخدمة في جريدة "الاجبشيان ميل" بمرتب ستة جنيهات عرض عليها العمل بالشركة مقابل ثمانية جنيهات .
كما انطلق في المديريات لشراء العزب والأراضي أو استئجارها للشركة بأسعار كبيرة ويحصل على سمسرة لنفسه فكان يعرض إيجاراً سنوياً يتراوح بين خمسة عشر جنيهاً وعشرين جنيهاً للفدان للواحد بعقود لمدة ست سنوات في وقت كان الفدان لا يؤجر بأكثر من أربعة جنيهات.. طبعاً أصحاب الأراضي ومنهم مطربة مشهورة تمتلك مائة وستين فداناً في مديرية الدقهلية ودكتور شهير اعتبروا "حسن" ملاكاً هبط عليهم من السماء ودفعوا له مبالغ باهظة سمسرة له ..
بدأ المستر "لانج" يرتاب في أمر الشركة مع تأخر الرواتب فحاول "حسن" طمأنته بأنه استلم تلغرافاً من المستر "جيمس كلارك" المدير العام بأنه أرسل تحويلاً مالياً بمبلغ خمسة آلاف جنيه على أحد المصارف لدفع مرتبات موظفي الشركة لكن المستر "لانج" احتد على "حسن" فخرج الأخير غاضباً، ثمّ عاد أدراجه مرة أخرى ليخبره أنّ المستر "كلارك" أرسل برقية يدعوه وكبار موظفي الشركة لمقابلته في فندق "البيت الحديد أو **Eastern Exchange Hotel** (عرف بهذه التسمية لأنه شيد من أعمدة وكمرات حديدية وبه مصعد كهربائي، وأقامت عليه القوات البريطانية مضادات للطائرات ومحطة راديو لاسلكى فترة الحرب العالمية الأولى للتصدى للتهديدات الألمانية)" في بورسعيد ليدفع لهم "كلارك" رواتبهم عن بضعة شهور مقدماً وليتعرف بهم ويبلغهم تعليماته ورؤيته الحالية والمستقبلية.. لم يكن أمام المستر "لانج" سوى تصديق "حسن" للمرة الأخيرة فسافر من فوره وبرفقته موظفو الشركة، وطبعاً لم يجدوا لمستر "كلارك" المزعوم أثراً.. في هذه الأثناء

تقدمت شركة الأثاث ببلاغ للبوليس لعدم سداد المبالغ المستحقة لها فيما حجز صاحب المنزل الذي يقع فيه المكتب على الأثاث وفاءً لقيمة الإيجار المتأخر.. هنا انكشف أمر الشركة للجميع فأسرع المستر "لانج" بتقديم بلاغ للنيابة هو الآخر...

حكم على "حسن" بالسجن الغيابي مدة عامين، ثمّ قبض عليه في أحد المقاهي بمعرفة مأمور قسم عابدين .

الطريف أن قصة "حسن" لم تنتهِ عند هذا الحد، فبينما يقضي الأشهر الأخيرة الباقية من سجنه بلغه خبر وفاة ابن عمه "عبد العزيز خضر" المقيم في جنوب أفريقيا، وقد أوصى له بتركته المقدرة بمائة وثمانين ألف جنيه مودعة بأحد المصارف وقد حضر محامٍ هنديّ خصيصاً لمصر أقام في فندق "الكونتنتال" للبحث عنه إلى أن علم بأمر القضية، وأنه نزيل سجن الإصلاحية رجال فتم إبلاغه بواسطة مسؤولي السجن بأمر الثروة التي هبطت عليه من السماء، وذلك بحسب ما جاء في العدد **996** من مجلة اللطائف المصورة في **12**مارس **1934**م .

لكن ما الذي دفع ابن عمه أن يخصه بهذه الثروة؟!

قدمت اللطائف المصورة تفسيراً لذلك بأن "حسن" كان قد سافر إلى إنجلترا للتخصص في التربية والتعليم، ثمّ عاد إلى مصر عام **1912**م، وأهلته لغته الإنجليزية الطليقة أن يعمل سكرتيراً لمدير قسم الضبط بالداخلية "جورج موريس بك" وفي هذه الآونة اقترف ابن عمه المذكور جريمة فسهّل له "حسن" بحكم منصبه سبيل الفرار من القاهرة إلى محل مجهول سافر بعده واختفى أثره.. والواضح أنّ هذه المسألة بقيت طي الكتمان، ولم تؤثر على مستقبل "حسن" الوظيفي

في الداخلية إذ أصبح سكرتيراً لمحمد بدر الدين بك مدير الأمن العام ورافقه إلى تركيا وسويسرا وإيطاليا للتحقيق في حادث الاعتداء على الخديوي السابق عباس حلمي الثاني عام **1914**م.

والجلي أنّ "عبد العزيز" كان ينتظر الفرصة ليرد الجميل لحسن، فانتظر حتى تأتي ساعة نهايته ليهدي "حسن" هذه الثروة الطائلة من بعده ..

وعلى الرغم من ذلك كان هناك توجس لدى الصحافة من أن تكون حيلة جديدة من "حسن" لكن لماذا؟! وماذا سيجني منها ولازال في الحبس؟!

هذا ما صمت عنه أرشيف الصحافة المصرية للأبد وذلك في حدود بحثي المتواضع.

ولأنّ الشيء بالشيء يذكر وعلى هامش هذه الحلقة نتحدث عن تجربة فيلمية طريفة سبقت مسلسل "سر الأرض" الذي كنا متعلقين به في التسعينيات والذي كان يدعو المصريين للعودة من الغربة لزراعة الأرض ويعطي نصائح مهمة للمزارعين بأسلوب شيق وطريف ففي الماضي وتحديداً عام ١٩٣٧ م، تم عرض فيلم "نترات الشيلي" وهو من أوائل أفلام الفنان عماد حمدي ومن إنتاج بنك التسليف الزراعي لشرح فوائد السماد الصناعي ومنها "نترات الشيلي" وهو من إخراج "جمال مدكور".

2-يوميات محمد أفندي فتحي في رمضان

جلس "محمد أفندي فتحي" جلسته المعتادة في غرفته الأثرية التي عادة ما يهرب فيها من الواقع .

ربما تختلف الطقوس في رمضان لكن تبقى هذه الغرفة محببة لقلبه فهو يضم بين جنباتها يوماً بعد يوم أوراقاً تاريخية وكتباً نادرة وصحفاً ومجلات عدة ومفكرته الخاصة.. عادات أحبها وارتبط بها ويجد دوماً فيها سلواه.. وفي رمضان يطول مكوثه بها لساعات بعد أن ينتهي من صلاة التراويح وحتى موعد السحور..

وجاء اليوم الأول من رمضان فجلس مسترخياً على وسادته وراح يحدث نفسه: "من يصدق أننا في عام **1966**م وغدا **13** ديسمبر أول أيام شهر رمضان المبارك.. أين المستقبل الذي حلمنا به في العشرينيات وحتى الخمسينيات؟! وأين نتاج وثمار الحراك الثقافي والمجتمعي؟! فأنا الآن مدرسٌ في مدرسة ليسيه الحرية (أنشأتها البعثة العلمانية الفرنسية عام ١٩٠٩م)"..

كان لدى "محمد أفندي" قناعة أن "محمد علي باشا" لم يكن أبداً مؤسساً لمصر الحديثة.. وأن كل ما فعله هو استيلائه على الأوقاف وقتل الشهامة في نفوس الناس ومصادرة حرياتهم والتضييق على أقواتهم بالضرائب والمصادرة وإحكام قبضته على ثروة البلاد الزراعية والتأسيس لإمبراطورية له ولأولاده سعى أن تكون في ظلال الدولة العثمانية أو على حسابها.. وأنّ عصر "إسماعيل" هو البداية الحقيقية للنهضة في مصر على كافة الأصعدة ولولا تورطه في الديون لكان له ذكر أفضل في التاريخ.. وأصدق ما قيل عن الفترة ما قبل "إسماعيل" إلى أواسط عصره ما قاله

الشاعر والكاتب النرويجي "هنريك يوهان ابسن" عن مصر سنة **1869**م حينما زارها في نظم شعري خلاصته أنّ مصر "أشبه بجثة محنطة ترقد بكبرياء وغرور داخل كفنها المتحجر وقد نسيت عناق الشمس". وأنّ الملك فؤاد أكمل طريق أبيه في النهضة، ولكن بشكلٍ أكثر تعقلاً وبتقليل الحاجة للمزيد من القروض الخارجية..

وراح يتذكر ذكريات عمله بالسودان وهو يتفحص مقتنياته ومنها كتاب "أصول الترجمة الابتدائية لتلاميذ المدارس السودانية" تأليف "عبد الله العربي" ناظر مدرسة واد مدني الأميرية الطبعة الأولى ١٩١٢م طبع مطبعة المقتطف بمصر ...

كان "محمد أفندي" من المؤمنين بوحدة وادي النيل حزيناً على هذا التفريط بعد الثورة وترك "السودان" للانفصال متوقعاً أنّ هذا سيكون له أشد الضرر مستقبلاً، وأنّ "السودان" ستصبح عرضة للتمزق والحرب الأهلية وقد يؤدي ذلك إلى تمكن "الحبشة" من الإضرار بحصص مصر والسودان من مياه النيل.. راح "محمد أفندي" يتذكر ما كان في العهد الملكي من دفاع عن هذه الوحدة وهو يقلب بين يديه صفحات كتاب "مصر والسودان في نظر العلم والتاريخ وخطب عبد العزيز عزت باشا (شغل منصب وزيرًا مفاوضًا لمصر في لندن ثمّ وزير الخارجية) تأليف الدكتور أحمد فؤاد اختصاصي في الأمراض الباطنية وعضو المجمع العلمي الألماني لمقارنة المدنيات ١٩٣٠ م".. والذي يخلص فيه كما جاء بالخاتمة من أنه بالدليل القاطع والبرهان الناصع أن وادي النيل كان من أقدم عصور التاريخ بلاداً واحدة جنساً ولغة وديناً وعوائد وأن فارق اللون ينشأ عن اختلاف الإقليم فمن سكن أعالي النيل وتعرض لحرارة شمس خط الاستواء المحرقة لفحته أشعتها فاسودت بشرته

وعلى العكس من قطن الأقاليم الشمالية من الوادي ابيضت بشرته وأن هذا لا يعني اختلاف الجنس كما يزعم دعاة الاستعمار من الإنكليز دون دليل.. ويستند إلى أقوال الأستاذ "اليوت اسمت" وهو أكبر ثقة في علم فحص العظام في البلاد الإنكليزية وتقريره بعدم وجود فارق بين الهياكل المصرية والسودانية من حيث الجنس وأنّ جميعها أفريقية ..

بالتأكيد كان العصر الملكي عصراً زاهراً بتدريس اللغات وقواعدها فهذا كتاب "سفينة البلغاء" تأليف "الأخ بلاج" -طبع في مطبعة الروضة ١٩٠٧م وتتصدره أبيات رائعة تقول: "يا طالباً علم البلاغة إنه.. تاج العلوم وحلية الأقوال. يعطيك من سحر البيان فصاحة.. ومن البديع روائع الأمثال. وإذا جلست بمجلس متكلماً.. جاء الكلام مطابقاً للحال."

وهاك كتاب "الأساس في الأمم السامية ولغاتها وقواعد اللغة العبرية وآدابها.. تأليف الدكتور "علي العناني" و"ليون محرز" أستاذي اللغات السامية بدار العلوم العليا و"محمد عطية الأبراشي" المفتش بالوزارة - طبعة وزارة المعارف العمومية ١٩٣٥م بالمطابع الأميرية ببولاق ويحتوي على مقرر دار العلوم في اللغة العبرية وآدابها والموازنة بينها وبين اللغة العربية. "

وبينما يتجول "محمد أفندي" في المدرسة في صباح اليوم التالي وهو صائم راح يتحسر على الزمن الماضي وهو يرى إهمال حديقة المدرسة.. وعادت به الذاكرة إلى ورقة تاريخية شاهدها تحمل ختم "علي باشا مبارك" في ٢٣ مارس ١٨٩٠م، وفيها إجابة طلب ناظر مدرسة جديدة بجوار قسم الدرب الأحمر بغرس عشرة أشجار لبخ

في الحوش لمنع درجة حرارة الشمس وأن تكون من الشجر الغليظ لأجل الحصول على فائدة ظلها في أقرب وقت بما أن "هذا الفصل وقت نقل الأشجار" ..

"محمد أفندي" من المقدسين لعبارة "إن فاتك الميري اتمرمغ بترابه" ومع ذلك فهو معجب ولكن من بعيد بمرتادي "العمل الحر" لكنه لا يؤيد أبداً الخروج المبكر من التعليم من أجل العمل لذلك فقد رفض ما جاء في مجلة "النهضة الفكرية (فلسفية أدبية علمية أخلاقية أسبوعية ونصف شهرية مؤقتاً مدير المجلة ورئيس تحريرها الدكتور محمد غلاب) العدد الحادي والعشرين "في ١٥ مارس ١٩٣٤م حيث عرضت المجلة قصيدة نظمها "محمد خليل الخطيب" من علماء الأزهر الشريف يبارك فيها ما قام به "إسماعيل أفندي إبراهيم صالح" والذي حصل على شهادة الدراسة الثانوية وضاقت يده فترك المدرسة وولى وجهه شطر "الأعمال الحرة" فاشترى صندوقاً لبيع الحلوى وحمل بجانبه شهادته فلامه أخوانه، ولكنه لم يلقِ إليهم بالاً.. تقول القصيدة:

"لاموه إذ اتخذ الحلاوة متجرا.. عميا. ولو نظروا رأوها مفخرا

أفمن يتاجر للمعاش مكرما.. فرضا يذم وفرضه أن يشكرا

أعرض عن اللوام لا تحفل بهم.. وتله عن قول أراه مفترا

لو قوم التعليم من أخلاقهم.. لوجدت منهم يا عصام مؤزرا

وإذا المدارس لم تقم معوجنا.. فالعلم فيها حقه أن يهجرا"

طبعاً "محمد أفندي" كان منطقه أن عمل الفتي بجوار تعليمه لا ينتقص منه أما تركه الدراسة بالكلية من أجل العمل فهو ما يرفضه تماماً .

كانت الدولة تولي اهتماماً كبيراً نحو التعليم في عهد الملك فؤاد مع جهود المجتمع اليقظة لضرورة نشر التعليم وليس أدل على ذلك من الخبر الذي نشرته صحيفة "الأهرام" التي كان يحتفظ "محمد أفندي" بأعدادها في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٤م (عدد مقتل السردار "السير لي ستاك") حول التعليم في "توشكى" حيث أنشأت وزارة المعارف مدرسة أولية هناك فتبرع بالمكان حضرة "محمد نور الدين أفندي" من الأعيان وعينت الوزارة حضرتي الشيخ "حسن محمد عثمان" ناظراً لها والشيخ "محمد علي الطويلة (أو الطوايلة)" معلماً وجعلت التعليم والأدوات بالمجان وقد شكر الأهالي من النوبيين الوزارة والمتبرع وكذلك حضرة "مختار حسن أفندي" عمدة البلدة وكذلك حضرة صاحب العزة "محمد زكي صالح بك" مدير أسوان.. وقبل أن ينهي "محمد أفندي" مطالعته للخبر من أرشيفه لمح خبر مقتل الأستاذ الفاضل الشيخ "محمد محمد عيد أفندي" المعروف عنه الجد والعناية بالزقازيق في ١٨ نوفمبر وكان يشغل مفتش التعليم الأولى بوزارة المعارف على يد "فراش" مكتب التفتيش بعدة طعنات والسبب أن الأستاذ المرحوم نبهه في ذلك اليوم إلى الاستقامة وأنذره إن لم يستقم فأسرها له في نفسه وقتله .

"يا ليت الأخلاق تعود لتسود!!" هكذا حدثته نفسه وتذكر حينما لبى نداء جيش "الفضيلة والخلاص" وانضم إليه وبدأ يستعيد الذكرى مع العدد ٣١٦ من "اللطائف المصورة" في ٢٨ فبراير ١٩٢١م ويتذكر حضرة "زغيب أفندي ميخائيل" وتأسيسه أول فرقة لجيش الخلاص لمحاربة الرذيلة تلبية لنداء الأستاذ "نجيب بيك شقرا" المحامي نظراً لما وصلت إليه الحالة الأخلاقية في مصر من تدنٍ وضمت الفرقة في البداية طلبة مدرسة الطب، ثمّ استقطبت بعد ذلك تلاميذ المدارس العالية

ويتذكر شرح زميله طالب الطب "فؤاد واصف" لأهداف الفرقة والذي أوردته المجلة فأعاد أشجانه: "أولاً: مقاومة كل نقيصة فينا وثانياً: كل نقيصة في أصدقائنا ومعارفنا وثالثاً: الصور القبيحة ومن يتاجر فيها" وغرق "محمد أفندي" في ذكرياته حول هذه الفرقة ولا زال يرن في أذنيه قول "فؤاد" أنّ "الاستقلال الأدبي ليس بأقل أهمية وأدنى مرتبة من الاستقلال السياسي فلندافع عن أخلاق أمتنا بكل قوانا ولكنّ جنوداً مخلصين في جيش الفضيلة".. وتذكر تبني السيدة "لبيبة أحمد" للفكرة ومساهمة السيدات بالمشروع... يااااه كم تمر السنوات سراعاً... وكان قد توقف في مصحفه عند قوله تعالى في سورة آل عمران: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (**104**)).. راح يسترجع "محمد أفندي" ذكرياته مع "الأخلاق" حينما التحق بالخدمة في الجيش والصاغ "السيد عبد العليم" بسلاح المدفعية الملكية وهو يلقي عليهم الدروس الدينية وحقائق الإسلام وأنّ خرافات "الزار والعفاريت" لدى النساء وزيارة القبور ليست من الدين غارساً فيهم أنّ الدفاع عن الأوطان شعبة من الإيمان، وهو فرض عين ومذكراً بعظة الموت فمهما عاش الإنسان "إلى الموت صائر ومهما تجبر فلابد إلى القبر سائر" وهيهات أن يشتري لحظة واحدة بعد انقضاء الأجل "ولو بأموال قارون".. بحث "محمد أفندي" عن هذا الكتاب القيم للصاغ "السيد عبد العليم" تحت عنوان "الإسلام (خطأ الأسلام على الغلاف) -رسالة إسلامية لرجال الجيش المصري تصدر كل ثلاثة شهور مجاناً- مطبعة التوكل ٣٣٤ شارع الخليج المصري الجماميز مصر" وبدأ يقلب صفحاته وقد تصدرت صفحاته صورة الملك فاروق وأعلاها "مليك النيل يا رمز المعالي.. مليك النيل يا ذخر

الأماني" وبعده إهداء "إلى القائد الأعلى إلى فاروق الناصر لدين الله ملك مصر والسودان.. مولاي.. لكم همم لا منتهى لكبارها وهمتك الصغرى أجل من الدهر.. أرفع إلى مقامكم السامي ذلك الكتاب الذي يضم مجموع ما ألقيت من محاضرات للجنود كنت أستوحي في التوجيه الديني والحماسي والأخلاقي والاجتماعي من عبقريتكم المتقدة.. المستظل برايتكم وخادمكم الأمين صاغ السيد عبد العليم بسلاح المدفعية الملكية ".

كانت نداءات "أميرة هانم" زوجته "أم نور" داعية له للنزول لجلب "الخبز" لتحضير السحور فمر في طريقه على صيدلية "عيسى أفندي قسطندي" جاره الفاضل (كان من الماسون الأحرار) فتذكر كم كانت الدنيا في الماضي بخير فالرجل تبرع بصرف تذاكر المرضى الفقراء الذي يأتون إلى صيدليته بنصف الثمن للأدوية المجهزة وبالثمن الأساسي بدون ربح للأدوية المستحضرة وتذكر "محمد أفندي" الخبر الذي نشرته "اللطائف المصورة" في عددها ٤٨٧ في ٩ يونيو ١٩٢٤م، عنه وأنه كتب للأستاذ الأعظم "سيد باشا علي (يقصد الفريق السيد علي باشا الأستاذ الأعظم للمحفل الأكبر الوطني المصري)" فجاءه الرد بحسن التقدير لهذه الخدمة الجليلة.. مصمص "محمد أفندي" شفتيه قائلاً لنفسه: "ياااه.. أيام الشكر على المعروف وما أقله وما أندر عارفيه" ..

وقف "محمد أفندي" ينتظر الخبز وبعد وقت طويل خرج صاحب المخبز ليعتذر أن الحصة لا تكفي وعلى المنتظرين العودة مجدداً في الظهيرة..

سأل "محمد أفندي" المعلم "قاسم" صاحب المخبز لماذا لا تتقدمون بشكوى؟!.. قال "قاسم" في حسرة: وهل تجدي شيئاً؟! غاية ما نستطيع فعله هو الضغط بتسريح

العمالة وغاية ما تفعله الدولة أن تصم آذانها.. أتدري يا "محمد أفندي" في ٧ أبريل عام ١٩٢٠م صدر قرار بتخفيض الإضاءة بمقتضى الأمر العسكري من "أدمند هنري هينمن فيكونت اللنبي، أو إدموند هنري هاينمان ألنبي" قائد مارشال قائد عام قوات جلالة الملك في القطر المصري والقرار الخاص من مجلس الوزراء بسبب نقص الوقود وما تبع ذلك من تدابير ترمي لتخفيض الإنارة في القاهرة والإسكندرية، وهو ما اضطر أصحاب التياترات والملاعب والمطاعم والقهوات (المقاهي) وكنت منهم للشكوى لصاحب السعادة محافظ العاصمة حول تقصير مدة السهر وما ينتج عنه من قلة الأشغال، وبالتالي الاضطرار لإخراج عددٍ كبيرٍ من خدمة محلاتهم.. ولا حياة لمن تنادي، والتاريخ يعيد نفسه في مصر، وقد استوعبت الدرس ولم أعد أشتكي والشكوى لغير الله مذلة ..

عاد "محمد أفندي" حزيناً وسرح ذهنه بعيداً وتساءل أين "التجربة اليابانية" التي تحدثوا عنها في الماضي وصناعة الخبز من الأرز المطحون؟! إنه لا زال يتذكر أنّ هذا الحديث كان في "رمضان"! ظنّ لوهلة أنّ ذاكرته قد خانته، فعاد يقلّب في أرشيفه فوجد عدد "المصور" في ٢٨ أكتوبر ١٩٣٨م وكان في "رمضان" بالفعل، وقد حمل خبراً أنّ محصول الأرز قد فاض في ذلك الوقت عن حاجة السكان وأربى عن الضعف مما اضطر الزراع والتجار أن يصدروا منه إلى الخارج ومع ارتفاع سعر دقيق القمح مع الأزمة الدولية في ذلك الوقت فكرت محافظة العاصمة (القاهرة) في خلط القمح بالأرز بنفس المقادير، والنسب المتبعة في خلطه بالذرة وما ينتج عنه من خبز أكثر بياضاً ونقاءً علاوة على كونه شهياً لذيذاً.. زيادة محصول الأرز في ذلك العام دفعَ الاقتصاديين للتفكير لصنع الخبز من الأرز المطحون والاستعاضة

بدقيقه عن دقيق القمح في حالة استمرار ارتفاع سعره وبدلاً من استيراد القمح الاسترالي مستلهمين ذلك من "اليابانيين" الذين يستخدمون خبز الأرز منذ عشرات السنين ..

ثمّ عادت نفسه تحادثه مرة أخرى وتتساءل: "وأين نتيجة تجارب الدكتور "علي حسن" أستاذ الفسيولوجيا المساعد في كلية الطب؟!" والذي وجد أنّه بالإمكان صناعة الخبز من الذرة والحلبة وبإجراء التجارب على الفئران وجد وزنها يزداد وتنمو ويكبر حجمها مقارنة بالتي تأكل الخبز المصنوع من الذرة فقط.. لكنّه اصطدم بكون الخبز المصنوع من الذرة والحلبة طعمه مر ورائحته ليست على ما يرام والزلال (البروتين) به قليل فأضاف إليه بعضاً من القمح وبعد ثلاث سنوات من البحث توصل لتركيبة مناسبة من الخبز على النحو التالي: ٦٠٪ من الذرة- ٣٧٪قمح - ٣٪حلبة بما من شأنه أن يوفر مليوني جنيه علاوة على كونه صحياً أفضل وأسهل في الهضم، ونشر ذلك في العدد ١٨٧ من مجلة الدنيا المصورة في ١٧ فبراير ١٩٣٢م ..

أين أوجه استخدام هذه التجارب المحلية والدولية وغيرها وطرق الاستفادة منها في حل مشكلة الخبز؟! أم أنّ البحث العلمي لا فائدة منه في مصر ولا محل له من الإعراب فيها.. والباحثون فيها يلهثون خلف السراب!

لما كان اليوم الثاني من رمضان وبعد الإفطار جلس "محمد أفندي" يحتسي مشروبه المفضل من "السوبيا (شراب لذيذ يقدم بارداً ويتكون من الشعير أو الزبيب أو بقايا الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض ويُضاف له قليلٌ من القرفة، يُنقع ثمّ يصفى ويحلى بالسكر)" وراح يقلب في صفحات مجلة "آخر ساعة" التي يحبها في العدد ٩٢٠

في ١١-٦-١٩٥٢م، وتحت عنوان "موسم لجرائم القتل.. قتل بالجملة ولأتفه الأسباب" راح يطالع جرائم فظيعة وكأنّ مسلسل الدماء لا يتوقف في مصر ففي ٩ أبريل وجدت الطفلة "إكرام محمد علي" مخنوقة الجهة (ديرب نجم -المنصورة) المتهم "معتمد موسى عبد العاطي" والسبب الانتقام من والد الطفلة وفي ٢٤ أبريل قتلت "سندس محمد أبو الوفا" ظل مخدومها الطبيب يضربها ويعذبها ويمنع عنها الطعام والشراب حتى فاضت روحها الجهة (العياط) وسبب القتل العصبية..

وفي العدد ٩٢١ في ١٨ -٦-١٩٥٢م راح يطالع أغرب قضية جاسوسية ضد مصر والمتهم فيها "علي سعيد الخلفاوي" من أهل غزة (تحدثنا عنه في كتاب "تاريخ حائر بين بان وآن") حيث ضبط متلبساً في بيته في "منشية البكري" بالقاهرة وهو ينقل بخط يده وثيقة خطيرة من وثائق الجيش من تشكيل رئاسة المشاة في الميدان، وعثر في دولابه على مبلغ خمسمائة جنيه، وجاء في اعترافاته أنه أوهم بالعمل لصالح قلم المخابرات البريطانية وأنّ نيته كانت لصالح مصر، وبحسب زعمه أنّ الاحتلال كان ينتوي بعد الجلاء أن يتخذ من منطقة "فايد" وقطاع "غزة" قاعدة له بدلاً من قناة السويس! وكانوا يريدون منه معرفة كل شيء عن قطاع "غزة" وسعته لتحمل معسكرات جنودهم! وأنّ نقطة الاتصال بينه وبين شبكة الجاسوسية الكبيرة عن طريق فتاة تدعى "نورا" وقد تم الإيقاع به حيث كان يتردد على عدد من ضباط المخابرات المصرية فارتابوا في أمره ونصبوا له كميناً حيث سربت له من جانبهم وثائق مزورة لينقلها للجانب الإسرائيلي، وبداخل العدد نفسه راح يطالع تفاصيل حادثة تزوير مثيرة في شهادة "ماجستير" من كلية الهندسة بجامعة فؤاد صاحبها طالب عراقي يدعى "بكر عمر يحي" حيث اكتشفت الواقعة بالمصادفة البحتة

حيث كان الملحق الثقافي في مفوضية العراق بالقاهرة في زيارة لعميد كلية الهندسة وفي اللقاء تباهى بأنّ أحد طلبة العراق قد حصل على درجة الماجستير من الكلية وهو ما آثار دهشة عميد الكلية وإنكاره، وتم إحالة المسألة للتحقيق حيث تبيّن أنّ الطالب حصل على درجة "البكالوريوس" فقط من الكلية وليس "الماجستير" والطريف في أقوال الطالب أنه ألقى باللائمة على موظف الآلة الكاتبة الذي أخطأ في كتابة الشهادة بفعل السرعة!

تحسر "محمد أفندي" على هذا الزمان الذي فيه مثل هذا التلاعب وراح يتذكر رحلته المبكرة مع طلب الدراسات العليا في مجاله وهو يطالع خطاباً تاريخياً عثر عليه من أحد الباعة (نورده على سبيل الاستئناس) من "حسن أبو العلا" مدرس بمدرسة فاقوس الابتدائية في ١٠ أغسطس ١٩٢٣م موجهاً لصاحب السعادة رئيس مجلس مديرية الشرقية ملتمساً فيه للمرة الثانية (المرة الأولى في مايو ١٩٢٣م) المساعدة في الموافقة على نقله إلى إحدى مدارس وزارة المعارف بمصر رغبة منه في الانتساب إلى القسم الليلي من مدرسة المعلمين العليا طبقاً لقانون نظام المدارس وهي الرغبة التي لا يمكن تحقيقها إلا إذا كان موظفاً بإحدى مدارس القاهرة الأميرية أو غيرها متمنياً أن يكون في تأديته لخدمته بجد وإخلاص مدة عشر سنوات ما يشفع له في طلبه.

مرّ في مخيلة "محمد أفندي" رحلة الرفض التي واجهها حينما أبدى الرغبة نفسها في استكمال دراسته العليا ووجه بسيل من الرفض التام من قبل رؤسائه بدعوى حاجة العمل وعدم وجود أوقات للتفرغ.. وبينما يقرأ "محمد أفندي" نهاية الخطاب وتهديد المدرس بالاستقالة بكل لطف بقوله: "فإذا لم يتيسر ذلك فلي الشرف بأن

ألتمس بكل خضوع إخلاء طرفي وإعفائي من وظيفة المجلس ابتداء من أول سبتمبر الآتي حتى تكون هناك فرصة يتمكن فيها المجلس من البحث عن مدرس آخر يقوم بالأعمال واعتباري في حكم المستقيل من أول سبتمبر ١٩٢٣م".. تمنى "محمد أفندي" لو عادت به الأيام وتحلى بنفس شجاعة هذا المدرس وحسم قراره ولم يخنع للضغوط ويتخلى عن حلمه ويبقى موظفاً كما هو طيلة هذه السنوات دون إحراز أي درجة علمية إضافية ..

ومنها راح يقلب في العدد ٩٢٣ في ٢-٧-١٩٥٢م وتصريحات "حسين سري باشا" بعد تشكيل وزارته والدعوة لشد الحزام على جميع البطون وانتهاج سياسة "التقشف" طويلة المدى واتجاه الحكومة لتوزيع المواد الغذائية ببطاقات وبشكلٍ متساوٍ بين الأغنياء والفقراء فراح "محمد أفندي" يندب حظه أنه من أبناء هذا الوطن الذي يعيش فقراؤه في ضنكٍ أبد الدهر والحزام لا يفارق بطونهم الجائعة.. وبداخل العدد نفسه بدأ يطالع قضية "الحشيش" في مصلحة السل وبطلها "مصطفى البري" المريض الذي يعالج مرضى مصحة فؤاد الأول للأمراض الصدرية بألماظة بالحشيش وحرقه على الجوزة واستغاثة مديرها الدكتور "محمد شريف" بمكتب مفتش إدارة المخدرات.. ما أثار اندهاش "محمد أفندي" أنّ استخدام "الحشيش" لم يكن بقصدٍ ماديٍّ فحسب، بل عن قناعة لدى المرضى بأنّ "الحشيش" يخدر الميكروب الذي ينهش صدورهم، ثمّ تناول عدداً قديماً من مجلة "المصور" وراح يطالع تقريراً لها عن حالة مصحة فؤاد الأول بألماظة عام ١٩٤٩م، وفيه رصدت أوضاعاً مأساوية للحالة الصحية لمرضى السل، ٨٥٠ مريض، يخدمهم طبيب واحد وسط نقص شديد

للغذاء والدواء في المصحة، وهو ما تأكدت منه المجلة على الرغم من نفي مدير قسم الأمراض الصدرية لصحة شكاوى النزلاء حول هذا النقص ..

ومن "آخر ساعة" و"المصور" لصحيفة "الجمهور المصري" صاحب الامتياز ورئيس التحرير "أبو الخير نجيب".. العدد ٧٦ في ١٦ يونيه ١٩٥٢ م في ٢٣ رمضان وتحت عنوان "الدين الدين يا وزير المعارف".. راح يطالع ارتداد الآنسة "خديجة إسماعيل" المدرسة بمدرسة كفر الدوار الابتدائية بعد أن فقدت أعصابها بتأثير بعض المدرسات وناظرة المدرسة والزائرة الصحية وسكرتير المدرسة وأحد المدرسين وبعد التحقيق من جانب حضرة مساعد مراقب التعليم تم نقل اثنين فقط ممن اشتركوا في الحادث..

وفي اليوم الثالث من رمضان وبعد صلاة التراويح جلس "محمد أفندي" على كرسيه الدوار الوثير المصمم بشكلٍ احترافيّ ليراعي "**Ergonomics**" وراح يفرز ما تجمع لديه من مشتريات تاريخية منذ بداية الأسبوع... الأولى: صورة لجنديٍّ أجنبيٍّ متوسط القامة ذي شاربٍ كبيرٍ يتكئ على بندقيته والصورة بحسب ما كتب عليها من الخلف تعود إلى عام ١٩١٤م، فدفعه الفضول لقراءة ما جاء خلف الكرت ونظراً لأنّ الكتابة مطموسة بفعل مرور الزمن إلا أنّه استطاع أن يلمح كلمة واحدة "**niuoj**" فبحث طويلاً حتى كشف له زميله بالمدرسة أنّ اللغة المستخدمة هي "الإسبرانتو" والتي وضعها "لودفيغ أليعزر زامنهوف" في أواخر عام **1870**م، وبدايات عام **1880**م، وهي تستخدم الأبجدية اللاتينية . وعلى الرغم من الفضول الذي اعترى العرب لمعرفتها في بداياتها وهو ما لاحظه من سؤال "فؤاد أفندي يوسف سليم" على صفحات مجلة "المقتطف" في مايو ١٩١١م عن كتاب عربي أو إنجليزي

لتعلمها وقد جاءت إجابة المجلة عن عدم معرفتها كتب بالعربية عن هذا إنما توجد العديد من الكتب باللغة الإنجليزية ناصحة إياه بالطلب من أحد "الكتابين" أن يشتري له كتاباً عنها من "بلاد الإنجليز".. الواضح أنّ المجلة لم تستقصِ الأمر بشكلٍ جادٍ، حيث اكتشف "محمد أفندي" من خلال مطالعته لمجلدات "الهلال" لديه عام ١٩٠٩م، أن "القس جبرائيل حداد" وضع كتاب أصول لغة "الإسبرانتو" وطبع في رومية على نفقة "الأباتي يوسف الخازن" وهو كتاب بالعربية لتعليم هذه اللغة ..

بعدها بدأ "محمد" يطالع "ألفباء فاروق (الخط الفاروقي الثالث) لمؤلفه إلياس عكاوي" واقتراحه الحروف "الفاروقية الجديدة" وهي عبارة عن حروف غلب عليها شكل الحرف العبري تتضمن هيئة الحرف العربي مضاف إليه التشكيل بجوار الحرف بشكل شديد التعقيد ولولا شروح "عكاوي" لها لما أمكن فهمها.

وبينما يطالع "محمد أفندي" العدد ٥١٩ من "اللطائف المصورة" في ١٩ يناير ١٩٢٥م أخذه الحنين فتاريخ" ١٩ يناير" هو ذكرى ميلاد "محمد أفندي" لذا كان دائماً ما يضع الصحف الموافقة لذكرى عيد ميلاده بأعوام مختلفة في ركن خاص بمكتبته ويعيد ويزيد في قراءتها بتمعنٍ وكأنه يقرؤها للمرة الأولى فهذا "السيد منيب درهللي" من أعيان مدينة "يافا" بفلسطين تفصله الحكومة الفلسطينية من وظيفته في إدارة "البوستة" في "يافا" لاكتشاف رسائل متبادلة بينه وبين "بشير عبد الرحمن السوداني" المقبوض عليه في قضية "السير لي ستاك" بعد خدمة سبعة سنوات.. يااااه ذكرى مقتل "السيرلي ستاك" ذلك الحدث الذي أطاح بحكومة "سعد زغلول باشا" والوجود المصري بالسودان (راجع "تأملات بين العلم والدين والحضارة الجزء الأول").

كما راح يترحم على زمن الدقة الصحفية ولو بخصوص "صورة" بجريدة.. حينما وقع ناظراه على عنوان "بيان حقيقة" بالصفحة الأولى من المجلة إذ نشرت المجلة توضيحا قائلة: "نشر في صدر العدد ٥١٨ من اللطائف الغراء صورة للرئيس الجليل "سعد زغلول باشا" ونشر بجوارها أنّها أخذت بواسطة الآنسة "لانا ولمز" والحقيقة أنّني تشرفت بزيارة دولته في مينا هاوس يوم الجمعة ٥ ديسمبر ورافقني في هذه الزيارة حضرة "أحمد أفندي فتحي حافظ" وسمح له دولته بأخذ صورته.. ولا صحة مطلقاً لما نشر خلافاً لهذا.. "محمود حلمي".. وجاء تعقيب اللطائف: "لم نكتب مع الصورة التي نشرناها في العدد الماضي إلا ما نقلناه حرفياً من خطاب موقع بإمضاء (محمود حلمي) ويسوؤنا أنّ الذي أرسله لنا لم يثبت الحقيقة فخدعنا وخدع الجمهور وهذا عذرنا "..

ومن ذلك انتقل إلى خبر "صالح أفندي محمد علي" مهندس الري بخزان أسوان الذي أوفدته وزارة الحربية إلى إنجلترا لدراسة هندسة أركان الحرب والمدفعية في كلية "أركان الحرب والمدفعية" في كلية "ولوتش" الشهيرة "فعلي الطائر الميمون".. وتحسر على المليك السابق "فاروق" الذي أوفد إلى نفس الكلية بناء على إلحاح السير "مايلز لامبسون" على والده الملك فؤاد وهناك حضر جنازة الملك "جورج الخامس" ملك بريطانيا والذي توفي في العشرين من يناير ١٩٣٦م، والطريف أنّ بعدها بعدة أشهر توفي الملك فؤاد ملك مصر وعاد "فاروق" دون أن يستكمل دراسته ويتعلم شيئاً من الحزم والوقار اللازمين لملك مصر المقبل!

قطع حبل أفكار "محمد أفندي" إعلان وجدته "أم نور" عن "سخان ماء" وقد أخذت تلح عليه في شرائه، فهو فرصة بحسب الإعلان وراحت تقرؤه عليه: "سخان ماء

سريع للمنازل والعيادات وصالونات الحلاقة.. يا بلاش! استهلاك الغاز حوالي ٣٧ لترا / دقيقة.. أي مليم واحد لكل ٥ لتر ماء ساخن .. ٥ لتر ماء ساخن بدرجة ٤٥ في الدقيقة.. أسعار خصوصية ١٥ جنيهاً و١٨ جنيهاً.. الكميات محدودة" ولأنّ "محمد أفندي" يعلم ما بالإعلانات من مبالغات وأنّ الكميات لا محدودة ولا شيء فقد أصم أذنيه كعادته عن هذه المطالب التي تأتي مع نهاية الشهر وتهدد قولونه بالتوتر.. وهو الذي توقف حديثاً عن دواء "الليبراكس أو **Librax** يتكون من **(Chlordiazepoxide+Clidinium bromide)** " خشية أن يدمنه وكان مرخصا لتوه من الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٦م !!..

دائماً ما يكون "المال" عنواناً لكل جرائم البشرية.. خاصة "مصر" الممتحن دائماً شعبها بالفقر وبينما هو يفكر امتدت يده لعدد أبتاعه في الأسبوع نفسه من عم "مرقص" صاحب محل بيع الصحف والمجلات القديمة وهو العدد ١٩٥٠ من جريدة الجهاد (صاحبها وطابعها وناشرها محمد توفيق دياب) في ١٠ يناير ١٩٣٧م وقضية سرقة بالإكراه اتهمت فيها "سرية مصطفى" بسرقة مبلغ جنيه وقرشين ونصف من فتاة بالإكراه وعاقبتها محكمة جنايات الزقازيق برئاسة صاحب العزة "عثمان نجيب بك" رئيس المحكمة وعضوية صاحبي العزة "نجيب مرقص بك" و"محمود منصور بك" المستشارين وتولى أعمال النيابة الأستاذ "حسين فهمي" رئيس نيابة الزقازيق بالحبس لمدة سنة.. الطريف أنّ المحكمة ذاتها في نفس التوقيت كانت تنظر قضية "سنهوا" الانتخابية الكبرى... شعب جائع يسرق ويقتل وصفوته على كراسي البرلمان يتنازعون .

لم يكن مصدر "محمد أفندي" للكتب فقط باعة "الكتب القديمة" بل لاح له في الأفق مورد آخر وهو أول معرض للكتاب حضره أقيم في عهد وزارة "إسماعيل باشا صدقي" في ٢٠ يونيو ١٩٤٦م في دار الجمعية الزراعية الملكية وافتتحه وقتها وزير المعارف "محمد حسن العشماوي".. لاحظ "محمد أفندي" غزارة المعروض من الكتب العربية من جانب دور النشر والذي وصل لعشرين ألف كتاب لكن لم يجد من بينها بغيته وضالته من مؤلفات علمية حديثة وقيمة ووجد أغلبها من عهود ماضية بعضها لم يعد مسايراً للعصر، وكان هذا محور انتقاد الصحف وقتها للمعرض .. بعد الثورة حضر "محمد أفندي" "أسبوع الكتاب العربي" في الفترة من ١٩ أكتوبر وحتى ٢٦ أكتوبر عام ١٩٦٣م والذي دعا إليه الدكتور "محمد عبد القادر حاتم" وزير الثقافة والإرشاد وضم ٢٧ داراً مصرية و٤ دور نشر عربية فقط من لبنان والعراق والأردن واليمن ...

سرح "محمد أفندي" في الوظيفة التي أفني حياته بها وانصرف بها عن العمل الخاص آخذاً بوصية أبيه "إن فاتك الميري اتمرمغ في ترابه" وراح يتأمل مصيره الذي ينتظره بعد سنوات عمله الطويل في الوظيفة.. وراح يضحك ضحكاً كالبكاء وهو يطالع جريدة "العلم الأخضر (سياسية جامعة صاحبها ورئيس تحريرها محمد مصطفى متولي تأسست بالإسكندرية ١٩٣١م)" في عددها ٧١٨ بتاريخ ٢٦ أكتوبر ١٩٥٠ م تحت عنوان "ما قولكم" ومجموعة من أبيات نظمها الأستاذ م.ت.أ (أشبه بالفلاح الفصيح في مواجهة فرعون) مهندس بالورش الأميرية بالقاهرة خدم ستة وعشرين عاماً باستقامة وتقوى بشهادة وزير الأشغال "عثمان محرم باشا" والذي يرفع له شكواه فهو لم يفز بالترقية التي "لا يفوز بها إلا محسوباً أو منسوباً" ولازال

بالدرجة الخامسة وأولاده سبقوه لذا فقد قدم في أبياته طلباً بالإحالة على المعاش إذ يقول :

"نحن بالله عزنا.. لا بجاه ومنصب.
وفي البحر قد عملنا.. فوق شلال بملهب (مأمورية تعلية خزان أسوان).
ومحطة للقوى أدرنا.. وسهرنا لصبح ومغرب (ذكرني بأيام الجودة وأحد البرامج لتشغيل المعمل بأحد المراكز المتخصصة وكنت أواصل العمل مع المهندس نهاراً وليلاً لإنجازه بشكل احترافي بشهادة القاصي والداني ولم يتم دعوتي عند افتتاحه).
وفي بعثة قد درسنا.. كل فن محبب.
وبعدها قد جلسنا .. على خازوق مدبب (كلنا سواء في هذا المصير سابق ولاحق).
ستة وعشرون أعوام لنا .. في جحيم ومكرب.
فما لجديد قد دنا .. وقديم مرسب.
والأمر سواء بيننا..لا سباق بملعب.
وإذا شكونا أمرنا .. فإلى وزير مجرب .
خفنا عليه ظلمنا .. بتقديم لمحسب.
والله يعلم أننا ... نكره الظلم من أب.
ربنا قد مسنا .. ظلم بجور مركب.
فإليك نشكو ضرنا .. لا لعضو منوب (عضو مجلس نواب).
نحن على الله رزقنا .. بعد معاش مقضب (معاش ناقص)"

ومن الوظيفة والعمر الضائع فيها ومعها.. سرح ذهن "محمد أفندي" تجاه حبه الأول.. "سنية" الذي أعطته درس عمره في الحب حينما وثق بحبها وهي كالأفعى

تدور على مجالس المحبين فإذا به يعثر بين جنبات العدد ٧١٧ من مجلة "الاثنين والدنيا" في ٨ مارس عام ١٩٤٨ م على قصة مماثلة لكن مع "تبادل الأدوار" فبطلتها كانت "فتاة" آمنت بحبها وانخدعت بصدقه ودفعت ثمن ذلك حياتها.. تحت عنوان "صوت الحب الكاذب" تحدثت المجلة عن انتحار "فتاة" من كوبري قصر النيل عام ١٩٤٧م والعثور على عدة رسائل تلخص محنتها في مراحل متعاقبة على النحو التالي:

مرحلة التقرب والتسلل:

-"معبودتي ع.. وددت لو أراك بين ذراعيّ ساعة واحدة أفتديها بعمري وأبثك فيها غرامي.. وإن أبيت فواحسرتاه على شباب ستلفه أمواج اليم بين طياتها لقاء قسوتك.. ش".

مرحلة المؤانسة والضغط العاطفي:

-"ع.. أتراك تخافين الحب أم أنت غير مؤمنة بغرامي وهنالك على صدقه شهود عدول.. النجوم اللوامع عندها حساب الليالي التي أترقبك فيها مسهداً.. تلك شهود صامتة ولكنها تنطق فرحاً بلقيانا.. ش".

مرحلة التعود عند المرأة والتملك عند الرجل والبحث عن مؤنسات آخريات:

-"ع.. تعتبين عليّ أني لم أراسلك منذ فترة طويلة.. إنك ما زلت طفلة صغيرة تعتقدين ما تعتقده الكثيرات من فتيات هذا العصر في أن مقياس حب الفتى هو عدد الخطابات الغرامية وكلمات الشوق والهيام.. ش"

مرحلة التمرد والسقوط في بئر الهوى السحيقة:

-" بابا.. يعلم الله يا أبتِ أني حفظت شرفك ولقبك.. ولكن التقاليد البالية التي عفا عليها الدهر.. أن الزواج ما هو إلا شركة مالية.. يتعاون فيها الزوجان على

ادخار المال.. كنت تود أن تزوجني من.. ابن عمي فؤاد.. لا لشيء إلا ثروته.. وها أنا أغادر منزلك حزينة باكية إلى حيث يناديني صوت الحب.. ع"..

النهاية المتوقعة:

-"ش.. إني لا أكاد أصدق أنك أنت الذي تركت من أجله أبي وأهلي.. كنت كاذباً مخادعاً حينما كانت شفتاك تردد ألفاظ الحب والهيام والآمال.. فما إن ملكتك نفسي حتى انتهت آمالك بانتهاء نزوة دنيئة مجرمة ولفظتني بعدها لفظ النواة.. ولست أطلب منك الآن إن شئت تكفيراً عن ذنبك إلا أن تجثو باكياً ذليلاً على قبري إن وجد لي قبر على وجه الأرض.. ع" وبينما "محمد أفندي" يتنقل ذهنه بين هذه المراحل أفصحت نفسه عن مكنونها الشرير في لحظة ضعف وتمني لو عاد به الزمن فصفع "سنية" مثل هذه الصفعة عدة مرات لكنه عاد لهدوء نفسه قائلاً لها: "يا بخت من نام مظلوم ولا نام ظالم"..

طبعاً كثيراً ما يؤلم "محمد أفندي" الجرائم التي تترتب على العلاقات العاطفية وفي المرة التي تطرق فيها لهذه المسألة مع "مخلص أفندي" على المقهى و"مخلص أفندي" يستصغر أثرها وأنّ العلاقات العاطفية كالندبات العابرة تزول بسرعة.. صمم "محمد أفندي" أن يصطحبه لمنزله وأن يبرز له مجلة "المصور" في عددها ٢١٠ في ١٩ أكتوبر ١٩٢٨م ليحتكما لها في هذه المسألة وخبران متجاوران الأول عن طعن "عبد المقصود محمد" الموظف السابق بدائرة صاحبة السمو "أم المحسنين" (رفت منها لسوء سلوكه) لعشيقته الرومانية السيدة إيفودكيا ريزانوب" واعترف أنه كان يحبها ويعاشرها، لكنّه لاحظ في الفترة الأخيرة أنّها تقصيه وتتردد على رجل آخر؛ فانتقم منها بقتلها والخبر الثاني عن طعن المدعو "عبد التواب السيد حسن" العسكري

بفرقة مطافئ مركز الواسطى لشقيقته الفتاة الريفية "دهبا بنت سعيد" بعدة طعنات بجهة دير النحاس بمصر القديمة تخلصا من العار لأنها اتهمت بالحمل سفاحاً وكانت الفتاة قد فرت مع والدتها من الواسطى إلى العاصمة هرباً من انتقام شقيقها ..

ولما كان اليوم الرابع من رمضان طارده ألم شديد من شرب "السوبيا" فذهب للمستشفى فوجد أنه سينفق وقتاً طويلاً في الانتظار وسط نسوة ضاقت بهن المقاعد ولم يجدن غير افتراش الأرض سبيلاً فعاد للمنزل.. نفس التدني في الخدمات الصحية ونفس المشكلات مع مقدمي الخدمة الصحية وخاصة الأطباء ومنهم من أناح الإنسانية جانباً وغفلوا عن رسالتهم التي أقسموا عليها ومضوا يحسبون خدماتهم بقيمة المال المقدم والتأكد من قدرة المريض على بذل المال ودفع الثمن الطاق طاقين ومن لا يجد، فالموتُ خيارٌ ممتازٌ له.. لقد رأى "محمد أفندي" بأم عينيه هذا التدني الأخلاقي أثناء أزمة صحية طارئة لوالدته.. حيث حملها لمستشفى حكومي عام فوضعوها في الانتظار بلا أدنى رعاية وحينما ذهب لدكتور الطوارئ أجاب في استهتار أن دوامه انتهى ولا يعرف من يعقبه؟! (انسى) **hand off** وأنّ عليه أن يراجع مدير الطوارئ والذي سأل عنه إحدى الممرضات التي أخذت مالاً مفروضاً مقابل إجابة أي سؤال ومقابل توصيله لسطح المستشفى حيث يجلس مدير الطوارئ يلعب "الدومينو" مع بعض عمال وأطباء المستشفى الآخرين فلما سأله عن من يرعى حالة والدته؟! قال له في برود: "انزل للدكتور (ح.) الموجود وقل له يتصل بالدكتور (م.) ليأتي ويتسلم الحالات".. فلما نزل "محمد أفندي" وجد الطبيب (ح.) قد غادر والطبيب (م.) قد أتى بعد وقت طويل من الاتصال به

وجلس ينظر للسقف ولا يعبأ بتوسلات أحد.. وإحدى الممرضات تفاوض "محمد أفندي" على بذل مزيد من المال لتوفير بطانية لوالدته المريضة !

بدأ "محمد أفندي" يحاول نسيان هذه الذكريات المؤلمة بمطالعة المزيد من صحف أرشيفه فإذا به يقع بين يديه العدد ١٢٤٠ من مجلة "المصور" في ١٦ يوليو ١٩٤٨م "عدد شهر رمضان" لتعود الأشجان تطارده مع شكوى من "حسام الدين أحمد صالح" من "طنطا "موجهة لنقابة الأطباء حيث حدث أن اتصل الرجل تليفونياً بالدكتور (....) بطنطا في الساعة الثامنة مساء بينما كان يقضي وقت فراغه في النادي بين اللعب والسمر يدعوه لزيارة مريض يرقد في حالة سيئة فراح يسأله الطبيب عن اسم رب الدار ويعلمه أن أجره في المساء ثلاثة جنيهات مما أحزن صاحب الشكوى وأفقده الثقة في الرسالة الإنسانية للأطباء في تلبية النداء في أي مكان وأي حين.. حي الزمالك أو حتى عشش الترجمان.. واختتم الرجل رسالته بالقول: "إنّ الفقير في بلادنا قد حرم من كل شيء حتى رحمة الأطباء "..

وراح يقلب مجلة "الصباح" في ١٣ يونيه ١٩٢٧م وأخبار "عصفورة الصباح" عن "(قنصلتو) ولكن لا لمعرفة داء المريضة بل للتحايل على مداعبتها ومضاحكتها! فضيحة جديدة في عيادة طبية "حيث شعرت إحدى مريضات القلب بتحرش بعيادة طبية من جانب بعض الأطباء فنهضت وبصقت وعلا صوتها (راجع رواية "ساعة عدل").

جاء الخامس من رمضان وفيه تعاقد "محمد أفندي" مع أحد أولياء الأمور على درس منزلي بموافقة المدرسة.. كان "محمد أفندي" بلحيته موضع احترام أولياء الأمور لهذا كان محل ثقتهم، وقد كان "محمد أفندي" مفتوناً بشخصية الدكتور

"محجوب ثابت" لدرجة أن أطلق لحيته وهذب أطرافها على نحو ما كان يفعل الدكتور "محجوب" وقد اشتهر عن الأخير أنه أطلقها زهداً عام **1903** م مستلهماً نمط "الأتراك" فقد كانت تمنحهم ملامح الرجولة والوقار والاحترام.. ولما كان الدكتور "محجوب ثابت" معروفاً بإضرابه عن الزواج لذا أثار اندهاش "محمد أفندي" في أرشيفه من الصحف القديمة ما جاء في مجلة "المصور" في ٣ أبريل ١٩٣٧ م تحت عنوان "وأخيراً الدكتور محجوب ثابت!".. "تحدد اليوم الساعة الخامسة مساءً لعقد قرانه على ربة الصون والعفاف كريمة المرحوم "عبد الله" من كبار الأعيان والتجار المصريين وتقطن في شارع العباسية نمرة ١٥٠٩(غير واضح) وهي من المثقفات وكانت متزوجة من أحد السراة المصريين وتوفي عنها وهي من ذوات الثروات الطائلة". ترى هل كانت كذبة أبريل من المجلة؟! أم مشروع زواج وفشل في مهده؟!

لما جاء اليوم السادس من رمضان راح "محمد أفندي" بعد أن أكل طبقه المفضل من "الكنافة "و"القطايف" - وكانت "أميرة هانم" زوجته تسير على خطى كتاب "الطبخ المنزلي تأليف "منيرة فرنسيس" إحدى خريجات مدرسة التدبير المنزلي الأميرية.. قررت نظارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارس البنات.. الطبعة الأولى ١٩١٤م والإهداء للأميرة فاطمة هانم أفندي إسماعيل" في تحضير الولائم ومسقعة الباذنجان وباذنجان بلبن الزبادي وشوربة جوليان وشوربة روزول وفتة القرنبيط والشكرلمه وكنافة بالقشطة وهي الأطعمة والحلوى المفضلة لزوجها "محمد أفندي"- يقلب في مكتبته في ركن قديم منها فوجد كتاباً جذب انتباهه ربما اشتراه في الماضي ونسي أمره أو جاء له على سبيل الإهداء لكنه يتذكر جيداً أنه

لم يقرأه أبداً.. كان عنوان الكتاب "رسالة في المشابهة بين زواج جلالة الملك فاروق وزواج رسول الله محمد سيد كل مخلوق ويليها خطبة أول جمعة بعد تتويج جلالته واستوائه على عرش مصر ويلي ذلك بعض ما قيل من الأناشيد والقصيد، في الاحتفال بالزواج الملكي السعيد.. من عمل جمعية مكارم الأخلاق الأسلامية (من أخطاء زمان) وأنشأ (من أخطاء زمان) نائب رئيسها ومدير مدارسها الأستاذ "محمود محمود" المدرس بالمعلمين العليا سابقاً ١٩٣٧-١٩٣٨م"... راح يقلب "محمد أفندي" في أوجه التشابه.. الوجه الأول في المشابهة: إنّ الزواج الملكي المبارك الميمون كان في شهر ذي القعدة من عامنا الهجري ١٣٥٦ وكان زواج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب في شهر ذي القعدة من العام الثالث أو الخامس الهجري! ويخلص الكاتب من ذلك بقوله: "أليس هذا الاتفاق من علامات حب الله عبده الفاروق ملك البلاد! الوجه الثاني في المشابهة: جاء من أن الملك فاروق وهو "سيد المتكلمين في هذا العصر بهذه اللغة الشريفة الكريمة" غير اسم زوجته من "صافيناز" إلى "فريدة" ويعني في اللغة العربية "الجوهرة النفيسة الثمينة" وأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم غير اسم أم المؤمنين "زينب" من "برة" قبل بنائه بها إلى "زينب" وتعني "الحسنة المنظر الطيبة الرائحة" وأنّ السبب في التغيير أنّ النبيّ كره في اسم زوجته تزكية النفس وحينما نادتها أم سلمة باسمها "برة"... قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " اللَّهَ أَعْلَم بِأَهْلِ الْبِرّ مِنْكُمْ".. الوجه الثالث في المشابهة: إنّ عقد الزواج الملكي كان على يد أشرف فئة في مصر من العلماء والأمراء والعظماء وقد تليت خطبته في أرفع البقاع المصرية المحفوظة بعين الرعاية الإلهية وكان زواج النبيّ صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين زينب في

السماء لا في الأرض والذي تولاه الله فقد جاء في صحيح البخاري أن زينب رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي إذ تقولُ زوجُكُنَّ أَهْلوكُنَّ وزوَّجَنيَ اللَّهُ من فوقِ سبعِ سماواتٍ ...أليس هذا العلم الذي لا ينفع.. بالتأكيد العلم الذي يصنع خصيصاً للملوك والرؤساء يقع تحت هذا المسمى.. هكذا عقب "محمد أفندي" وقد أغلقه دون أن يتمه.

فلما حل اليوم السابع من رمضان بدأ "محمد أفندي" يبحث في بعض متعلقات والده الراحل وكان يحرص عليها تكريماً لذكراه ولا يفرط فيها ما حيا.. وهكذا كانت وصيته لبناته "نور هانم" و"أسيل هانم "و"غزل هانم".. ومن بين المقتنيات وجد كراسة قديمة محتوياتها بخط اليد فوجد "خطاب قائد العام للمديرية ١٩١٩م.. حضرة صاحب السعادة مدير أسيوط قد عمل كشف عن الغرامات التي فرضها جناب القائد على أهالي القرى وهذه الغرامات يلزم تحصيلها في بحر ثلاثين يوماً من تاريخ إعلان أهالي القرية بها.. القصد من هذه الغرامات هو تأديب الأهالي على الأعمال التي قاموا بها أثناء الاضطرابات الأخيرة وليست تعويضات عما لحق الممتلكات من التخريب سينظر فيها في المستقبل على حده.. عمد ومشايخ وأعيان البلاد مسؤولون عن جمع هذه الغرامات... إذا أرشدت قرية من القرى المفروض عليها غرامة عن عددٍ كافٍ من الذين قاموا بالحركات الأخيرة.. القائد العام سينظر في رفع جزء أو كل الغرامة المفروضة عليها... في ٢٢ مايو ١٩١٩م.. المستر "مكبرنت" المستشار القضائي في مدة السلطة "..المدهش لمحمد أفندي أن وجد اسم جده "عبد العال أحمد" نمرة **17**.. وكل ما يعرفه عن جده "عبد العال" قصصاً يرويها أبوه عن تعلقه بدون سبب واضح بقبة "العارف بالله النخلاوي" بسيناء (تاريخ سينا

القديم والحديث وجغرافيتها لمؤلفه نعوم بك شقير) وزياراته المستمرة لها. لازال "محمد أفندي" يتذكر حكايات أبيه عن هذه الثورة في الصعيد وكيف أوكل أمر المتظاهرين إلى بعض أفراد الشرطة المصرية من قساة القلوب أعوان الاحتلال ومنهم البكباشي "محمد شاهين" بالمنيا والذي أطلق عليه "سفاح المتظاهرين" في ثورة **1919**م فقد قتل بنفسه **23** مصرياً وكان يربط بعضهم في سرج جواده ثم يجره حتى يصرعه..

فلما كان اليوم الثامن من رمضان راح يتأمل تجربة "الجامعة الشعبية" التي أُنشئت عام ١٩٤٥م بقرار من "عبد الرازق السنهوري باشا" وزير المعارف بناء على فكرة الأستاذ "أحمد أمين" الذي كان يشغل منصب مدير الإدارة الثقافية بوزارة المعارف، ثمّ تحولت بعد ذلك بمرسوم ملكي عام ١٩٤٨م إلى مؤسسة "الثقافة الشعبية" وبعد ثورة ١٩٥٢م أطلق عليها جامعة "الثقافة الحرة" وفي عام ١٩٦٦م تغير مسماها بقرار من وزير الثقافة ثروت عكاشة إلى "الإدارة العامة للثقافة الجماهيرية" (راجع نزهة الألباء في مطارحات القراء حول دور "سعد كامل")..

وفي اليوم التاسع من رمضان وبينما يطالع أعداد قديمة من مجلة "العروسة" وفي العدد ١٣٦ في ٧ سبتمبر ١٩٢٧م وقع بصره على صورة الآنسة "جولييت ملكي" والتي كانت من طالبات المدرسة السنية الفائقات وأرسلتها وزارة المعارف إلى جامعة برستول بإنجلترا للتخصص في الآداب والعلوم العالية وهي تجيد اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية إجادة تامة وقد سافرت إلى إنجلترا في ٢٩ أغسطس ١٩٢٧م كما تناولت يداه مجلة "المصور" وصورة للآنسة "جرترود نسيم" كريمة الأستاذ "لبيب نسيم بك" مكتشف الحديد الخام في أسوان وهي أول فتاة مصرية تخصصت

في الكيمياء والجيولوجيا وأول من اكتشف معدن النيكل أثناء تحضيرها لدرجة الماجستير عام ١٩٤٠م وذلك بمنجم قديم استخدمه قدماء المصريين وكذلك شركة إنجليزية منذ عام ١٩٠٤م في الحصول على النحاس فقط.. وهي بحسب المجلة تقضي أيام الشتاء في الصحاري المصرية بحثاً عن المعادن والصيف بين المعمل وإدارة مصانع والدها.. صحيح "بنت الوز عوام" وليس ابنه فقط.. وهنا أطلق "محمد أفندي" العنان لخاطره وما قرأ من شائعات ومخاوف كانت على عهد الخديوي إسماعيل باشا لمجرد أنه أقدم على تعليم الفتيات حيث تحدث الناس أنه أمر تلميذات "مدرسة السيوفية "أن يخرجن مكشوفات الوجوه وعلى رؤوسهن "البرانيط" في عربات كثيرة يتفسحن في أرجاء المدينة وقد خشي الناس من ثمرة هذا الغراس في شيوع علة "البغاء" وأن هذا التوجه انطلق من مصر إلى أمصار أخرى مما دعا أحد أمراء المسلمين أن يرسل خطاباً مطولاً لإسماعيل يلومه وينهاه عن إدخال عادات الإفرنج بين قومه !"ترى لو وضع صانع القرار مثل هذه الشائعات الرجعية نصب عينيه في حينها لما تحركت المرأة المصرية وأثبتت ريادتها في كافة المجالات اليوم؟!" هذا ما جال بخاطر "محمد أفندي"..

وفي اليوم العاشر من رمضان راح يفكر في سؤال ثقيل دائماً ما يتطرق إلى ذهنه: "هل مصر فرعونية أم عربية إسلامية؟!" وهو يتفحص في مكتبته كتاب "مصر تحت ظلال الفراعنة "لمحمد صابر" ١٩٣٧م ويتصدره إهداء إلى "أعظم من جلس على عرش الفراعنة فخر مصر مليكنا المحبوب فاروق الأول أعزه الله.. أرفع كتابي الجديد من أدب الفراعنة.. المخلص الأمين محمد صابر" وخطاب "شكر سامي" من ديوان كبير الأمناء في ١٨ فبراير ١٩٣٧م... والإجابة التي توصل لها "محمد أفندي" من

حصاد مطالعاته أن مصر لم تحدد لنفسها هوية ثابتة وهذا هو سر شقائها ومشكلتها الحقيقية فتارة "فرعونية" لدى بعض مفكري الوفد وتارة "إسلامية" لدى من يريدون عودة الخلافة كفؤاد وفاروق وتارة "قومية عروبية" كما أراد لها "عبد الناصر".. وأمة بلا هوية محددة.. بالتأكيد أمة تائهة بماضٍ مذبذبٍ وحاضرٍ أعرج ومستقبل مجهول..

ماذا تصنع مصر إذا عادت لهويتها الفرعونية؟! لن تجني شيئاً من هوية مطموسة المعالم وحضارة غامضة انتهت ولا أحد فهم مغزى حوادثها إلا من نقوشها التي تعكس وجهة نظر أصحابها وحدهم.. حتى لغتها انطمست بالكلية.. ولم تترك أي أثر ثقافي أو حتى عسكري ذات شأنٍ في محيطها الخارجي وبالتالي لن يدين لهذه الهوية سوى مصر.. وستصبح مصر متحفاً كبيراً ليس إلا.. متقوقعة ويزيد انعزالها والعالم من حولها ينظر بإكبارٍ لها كقطعة "أنتيكة" قديمة دون إسهام فعلي في المسار الإنساني الواقعي.. وإذا اختارت مصر هويتها "الأفريقية" فستغرق في مستنقع من التأخر والجمود كشأن باقي دول القارة السمراء المريضة ولو انطلقت صوب هويتها "العربية" فستغرق في مستنقع مشاكل عربية لا تنتهي ولن يتعدى دورها هذه المساحة الضيقة من بلدان تتصارع من أجل الزعامة ولا تعترف بعروبة مصر إلا على مضض ولا تعترف أيضاً بزعامة مصر التاريخية ولا تريد لها أن تقوم لها قائمة.. والحل أن تبرز مصر هويتها "الإسلامية" بشكل صريح وأوحد وأن تكون "جمهورية مصر الإسلامية" فهذه الهوية الشاملة الواسعة هي مظلة رشيقة تحمل رسالة مصر "الأزهر" لشتى ربوع العالم الإسلامي الممتد في مشارق الأرض ومغاربها وتجعل منها محوراً عالمياً وكياناً مميزاً لا تنطفئ شمسه أبد الدهر.. مرت

هذه الخواطر في ذهن "محمد أفندي" وهو يطالع لقاء في "بنك مصر" جمع مندوب مجلة "الاثنين في" بالأسطى "وديع شنودة" "البراد" بورشة السكة الحديدية بمهمشة (بحي الشرابية بالقاهرة) أو صاحب الجلالة "حتوبسينا الأول" كما أطلق على نفسه وذلك في العدد **674** في **12** مايو **1947**م وتبدأ قصة الرجل أثناء دراسته في إحدى مدارس "الأمريكان "عام **1929**م وفي درس من دروس الدين موضوعه قصة النبي "موسى" وكيف أن "فرعون" أراد قتله فوضعته أمه في صندوق وألقت به في اليم .. فثار "وديع" مستنكراً في وجه المعلم قائلاً: "أنا لازم أغسل عار الوصمة دي من تاريخ الفراعنة" ومن يومها اتخذ لنفسه زيّاً فرعونياً معدلاً ليلائم تقلبات الفصول.. بدلة كاملة من الصوف مكونة من بنطلون عادي بدون "ثنية" وصديري فتحته جانبية وجاكته "بوليرو" بدون "ياقة" ويحيط بأطراف هذه القطع الثلاث شريط من "القيطان الأبيض" ليكسبها المظهر الفرعوني.. أما لباس الرأس فهو "القلنسوة" المصنوعة من لباد الصوف الأبيض التي كان يلبسها الفراعنة.. والحذاء هو "الصندل الفرعوني" أما عن الاسم الذي اتخذه فالشق الأول منه "حتوب" وهو أشهر "كبابجي" أيام الفراعنة وهو يحب الكباب بشدة و"سينا" نسبة لشبه جزيرة سيناء حيث مملكته هناك.. وهو يطمح أن يتزوج امرأة من أصل فرعوني دمها فرعوني غير مكون من كرات بيضاء وحمراء بل كرات فسدقي وبنفسجي وحول سبب زيارته لبنك مصر فمن أجل مقابلة المدير وإقناعه بهدم البنك وإعادة بنائه على الطراز الفرعوني طبقاً للتصميم الذي وضعه بنفسه! وهو ينوي أن يقيم حفلة فرعونية كبيرة تضم جميع الدول الأوروبية، يغني فيها "عبد الوهاب" وترقص فيها "تحية كاريوكا" ويقوم بينهم خطيباً مدافعاً عن "فرعون" ليحصل له على البراءة ..

ولأننا أتينا على سيرة الزواج فقد كان زواج "محمد أفندي" من "أميرة هانم" بحسب اليوميات في ٣٠ أغسطس ١٩٤٦م الموافق ٣ شوال وهو يحتفظ بالصحيفة في هذا اليوم وهي عادة لديه أن يحتفظ بصحيفة اليوم الموافق لأي مناسبة لديه والصحيفة التي تؤرخ لهذا اليوم هي "نداء الوطن (صاحب الامتياز "مصطفى عبد الهادي" - العدد الثامن)" وقد تناولت الصحيفة اجتماع مناسبات رمضانية نادرة تدل على هذا التنوع في "الهوية المصرية" الذي أشرنا له آنفاً.. واجتماع: "الجمعة اليتيمة" و"ليلة القدر" مع احتفال المصريين بعيد "وفاء النيل" مع ذكرى "سعد باشا زغلول".. ومن عادات الاحتفال أن تقام ليلة الجمعة اليتيمة في جامع "عمرو" وفي المساء يقام سرادق كبير للاحتفال بليلة القدر في جامع "عابدين".. وفي هذا العام أناب "فاروق" صاحب الدولة "إسماعيل صدقي باشا" رئيس الوزراء في حضور الصلاة بجامع "عمرو" وسعادة محافظ القاهرة "محمد السيد شاهين باشا" لحضور الاحتفال بليلة القدر في جامع "عابدين".. أما احتفال "وفاء النيل" فقد أحياه المصريين في المراكب الشراعية فيما احتفلت الأحزاب بذكرى "سعد باشا زغلول" حيث زار أعضاء الكتلة الوفدية وشباب الحزب ضريح "سعد" ومن بينهم "مكرم باشا عبيد" و"محمود فهمي النقراشي" وألقى سعادة الأستاذ "محمود سليمان غنام" كلمة رفعة "النحاس باشا"..

كانت ذرية "محمد أفندي" من البنات لذلك لم يتوسع في إحراز المال بقدر ما اهتمّ بما يتركه من إرثٍ علميّ ثقافيّ يحفظ اسمه وذكراه متذكراً ما آلت إليه تركة "مصطفى باشا فهمي" رئيس وزراء مصر الأسبق والذي لم ينجب ذكوراً وقد توفي في حياته شقيقه "علي زكي بيك" القاضي بمحكمة بني سويف الأهلية وذلك في فبراير

1904م.. وتزوجت بناته الثلاث: الأولى "صفية" من "سعد باشا زغلول" والثانية من "محمود صدقي باشا" مدير "محافظ" القاهرة الأسبق والثالثة من الضابط والمؤرخ "إسماعيل سرهنك باشا" مؤلف كتاب "حقائق الأخبار عن دول البحار" وبوفاة "مصطفى باشا فهمي" عام **1914** م آلت تركته الكبيرة لبناته الثلاث ومنهن زوجة "إسماعيل باشا سرهنك" وتشاء الأقدار أن ترث عائلة "سرهنك" كل تركة "مصطفى باشا فهمي" إِذْ لم تنجب "صفية" ولا شقيقتها الأخرى زوجة "محمود صدقي باشا" فيما أنجبت زوجة "إسماعيل باشا سرهنك".. وسبحان من له الدوام و"يا وارث مين يورثك" والعاقل من يأخذ من سير ودروس من رحلوا ويتركها لله وحده ويراعي الله فيما يكسبه من مال ويعدل فيما يتخذه من قرارت، فحاول "محمد أفندي" أن يكون أول العاقلين ويكتب بشكلٍ مستمرٍ للصحف والمجلات ويصدر بعض الكتب أيضاً التي تحمل فيضاً من مقالاته الكثيرة في شتى بحور الدين والأدب والتاريخ والعلوم..

لما كان اليوم الحادي عشر من رمضان انكب "محمد أفندي" يكتب مقالاً جديداً، فقد كان يراسل الصحف في هذا الوقت، فكتب في العديد من الصحف كالأهرام وروزاليوسف وكانت له أبحاثه الخاصة.. فمثلاً هو يرى أنّ "العتبة الخضراء" لم تكن "زرقاء" في أي وقت مضى وتحول لونها وكان يتابع في شغف ما جاء بالعدد ٨٧٥ من مجلة "آخر ساعة" في ١ أغسطس ١٩٥١م، حول صراع ورثة قصر "العتبة الخضراء" مع الحكومة للحصول على مستحقات متراكمة، قيمتها عشرون مليون جنيه.. فقصر "العتبة الخضراء" المبني عام ١٨٤٠م، بتكلفة بناء وتأثيث مليون ونصف مليون وعتبته من الزمرد الأخضر ووصفه "علي مبارك" بأنه لم يكن يشابهه إلا

قصور السلاطين من آل عثمان! كان واحداً من ثلاثة قصور امتلكها "أحمد طاهر باشا" الذي قلده "محمد علي باشا الكبير" حاكماً على الوجه القبلي اثنين وعشرين عاماً، وكان له أيضاً قصر "شبرا" الذي أصبح مدرسة شبرا الثانوية وقصر "الحلمية" الذي بناه بجوار بيت القاضي.. كان "أحمد طاهر باشا" متزوجاً من عشر زوجات، وكان له خمسون جارية، وفي أواخر أيامه أوقف كل ممتلكاته ومنها قصر "العتبة الخضراء" وعين زوجته الأخيرة السيدة "خديجة هانم خاتون" ناظرة على هذا الوقف.. اشترت "بمباقادن (لاحظ أن المجلة اخطأت في تعريفها بأنها زوجة محمد علي باشا! ووالدة الخديوي عباس.. راجع "منافح الأيك في مساجلات النخب") سراي "الحراملك" بمبلغ كبير من السيدة "خديجة هانم خاتون" ثمّ استأجرت سراي "السلاملك" مدة ستين عاماً بمبلغ خمسة آلاف كيس من الذهب سنوياً (كلّ كيس يحتوي على خمسة جنيهات ذهبية) أي ما يعادل ٢٥ ألف جنيه في العام الواحد .

نزلت "بمباقادن" عن إيجار "السلاملك" للخديوي إسماعيل ولما حدثت الأزمة المالية وضعت الحكومة المصرية يديها على جميع أملاكه وكان من بينها قصر "العتبة الخضراء".

بعد وفاة السيدة "خديجة" تولت وزارة الأوقاف نظارة وقف طاهر باشا وفي سابقة الأولى من نوعها رفعت دعوى ضد وزارة المالية بأنّ مدة الإيجار تنتهي عام ١٩٠٠ م، وتطالب بالمستحق عليها.. أي وزارة تقاضي وزارة أخرى في نفس البلد.. تصور! ظلّ النزاع بين الوزارتين سنتين كاملتين وانتهى ببطلان الدعوى التي رفعت من وزارة ضد وزارة !

سرعان ما دخل الورثة على الخط فأقام "كرم بك طاهر" عام ١٩٠٧م دعوى الأولى من نوعها أمام محكمة مصر الابتدائية ضد وزارة المالية يطالبها بقيمة المبالغ المتأخرة عليها من عقد الإيجار وفي عام ١٩٢٤م صدر الحكم بوقف الدعوى لحين الفصل في ملكية العين حيث أدعت وزارة المالية أن القصر آل إليها ضمن ممتلكات الخديوي إسماعيل، واكتسبت ملكيته بمضي المدة الطويلة، بينما قام ادعاء الورثة أنّ المالية لا تملك القصر إنما هي حلت محل الخديوي كمستأجر فقط.. طبعاً هذا النوع من القضايا يطول أمده فقد مضى ٥١ عاماً أجلت فيها القضية أكثر من ستين مرة وترافع فيها العديد من المحامين من بينهم "حافظ رمضان باشا" بين أعوام ١٩٢٤م-١٩٣٨م.. والورثة بحسب عدد المجلة الذي وضعه "محمد أفندي" على مقربة منه هم: "يوسف حسين طاهر بيك" سكرتير صاحب السمو الملكي الأمير "محمد علي" و"يوسف إبراهيم طاهر بيك" سكرتير خاصة جلالة الملك و"إسماعيل طاهر" الرياضي المعروف و"خليل طاهر" مراسل وكالة الأنباء العربية..

لمعت عينا "محمد أفندي" وهو ينظر لهذا الخبر وحجم الثراء الذي ينتظر هؤلاء الورثة لو حسم الصراع القضائي لصالحهم وراح يمصّ شفتيه وهو يتذكر النصف فدان الذي ورثه أبوه عن جده وراح الورثة يتنازعون عليه مدار ربع قرن حتى آل إليه في النهاية ربع قيراط منه !

لما كان اليوم الثاني عشر عثر "محمد أفندي" بمكتبته التي يعيد اكتشافها يوماً بعد يوم على بلشور لفيلم "أبو حلموس" الذي عرض للمرة الأولى في ٢٧ أكتوبر ١٩٤٧م وشارك فيه نجمه المفضل "عباس فارس" إذ كان "محمد أفندي" يشتري العديد من

المقتنيات التاريخية ولا يفحصها وقتها ويتركها حتى تحين اللحظة المناسبة وهو يحتفظ بالعدد ٢٥ من مجلة "مصر الحرة" والذي يحكي بدايات "عباس فارس" والذي كان عضواً في جمعية "الفيضيين" أي كان مبشراً إسلامياً فكان يخطب في قطارات السكة الحديد وعربات السوارس وحتى بارات وجه البركة وحدث أن أراد أن يمنع شاباً من دخول إحدى بيوت الحظ فاعترضته ربة البيت وانهالت عليه هي وزميلاتها ضرباً بالشباشب ذات الكعوب وتحكي المجلة أنه لازال متديناً على الرغم من زواجه من راقصة إنجليزية وهو يسير في الطريق حليقاً "متقبعاً" مطوقاً ذراع زوجته ومن ورائهما كلب "سلوقي" طائع بينما في أصابع يده الأخرى "سبحة" وإذا كان يوم الجمعة ذهب إلى المسجد بحي المتولي ليلقي خطبة الجمعة ويصلي بالناس إماماً، وبحسب المجلة أنّ "الجلالة" كانت تأخذه أحياناً، فكان يخلط في خطبته وقد يخيل له أحياناً أنه يمثل "دوراً" أو يلقي "منولوجا" فيعلو صوته كالرعد قائلاً: "يا قوم ويحكم سوقوني إلى السجن أذيقوني ألوان العذاب ولكنكم لا تستطيعون أن تنتزعوا مني عقيدتي" وفي إحدى المرات في خطاب ديني بمناسبة الخلافة قال: "يا كلاب أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم سحقاً لكم ولآبائكم" بالطبع كان وقع هذه الخطب على المستمعين بين ضحك وإنكار.. لكن سرعان ما رجت ضحكة "محمد أفندي" أرجاء المكان على نحو أنكرته "أميرة هانم" فأتت إليه مستغربة فحكى لها عما قرأه بنفس المقال عن "عبد الحميد أفندي علي" والذي استدعي للشهادة بالمحكمة الشرعية فسأله القاضي عن مهنته فقال: "رئيس أوركسترا".. فقال القاضي مستفهماً: "وها هو ذلك الأوركستر؟!" قال عبد الحميد أفندي: "رئيس فرقة موسيقية" فقال القاضي: "إذاً فهمت يعني مزيكاتي.. اسمع يا

ابني لا المثلاتي ولا المزيكاتي ولا القرداتي تجوز شهادتهم.. روح بيع دقيق وتعالى نسمع شهادتك"

جاء اليوم الثالث عشر و"محمد أفندي" على عاداته لا تتبدل وجلسته المعتادة وسط كنوزه التراثية وبينما ينفض عن بعضها الغبار وجد "كارت فرح (على سبيل الاستئناس": "بسم الله الرحمن الرحيم.. حرم المرحوم السيد زايد وحرم خميس أبو عوض يتشرفان بدعوة حضرتكن لحضور عقد قرآن كريمة الأول (صفية) على نجل الثانية (فتحي) وذلك يوم الجمعة ٢٧ من ربيع الثاني سنة ١٣٧١ هجرية الموافق ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢م في تمام الساعة السابعة مساء والعاقبة عندكم في المسرات.. العنوان النادي الأرمني ٢٦ شارع النبي دانيال أمام مدرسة الفرنسيسكان".. فاندهش أن الدعوة من سيدتين في سابقة لم تمر به من قبل أو ربما كانت الدعوات النسائية بكروت عائلية مخصصة من ربات البيوت أما سرادق الرجال بدعوات أخرى.. وقال في نفسه وقد ابتسم لتاريخ الكارت: أعلم أن اسم "فتحي" محظوظ كحظ أبيه "فتحي" ولكن ليس لدرجة أن تكون الصباحية مواكبة لحريق القاهرة في اليوم التالي! ودعا الله من قلبه أن يكون قد أسعد أيامهما.. وقد كان "محمد أفندي" نقياً محباً للخير أن يعمّ الجميع..

حزن "محمد أفندي" وهو يطالع أعداد مجلة "التحرير" الفترة التي أعقبت ثورة ١٩٥٢ م وهو يرى أن "محمد نجيب" كان مسؤولاً عن الحملة التي شوهت "فاروق" والأسرة العلوية ونالت من شرفهم بشكل لا يخلو من التجني وقذف المحصنات بشكلٍ فجٍ وغير عقلاني في كثير من الأحيان وهو يرى "محمد نجيب" ديكتاتوراً لم يأخذ فرصته ولم يكن أبداً منحازاً للديموقراطية في أي وقت والدليل أنه أعدم

"محمد مصطفى خميس" و"محمد عبد الرحمن البقري" وهما عاملين بمصنع الغزل والنسيج في كفر الدوار، قاما بإضراب ووقفة احتجاجية سلمية بالمصنع في **12** أغسطس **1952** مع زملائهم مطالبين بزيادة أجورهم وتحسين ظروف العمل. لذا فلا حقيقة أن خلاف "نجيب" مع باقي أعضاء مجلس الثورة كان في سبيل قضية الديموقراطية إنما كانت مناورة منه للاستقواء بالمجتمع المدني في مواجهة أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين أحكموا قبضتهم على مفاصل البلاد من دونه فأصبح في مهب الريح . وسرعان ما تحولت السهام التي أطلقها "نجيب" تجاه الأسرة المالكة السابقة لتطعنه هو ذاته وتنال منه جزاءً وفاقاً.

يرى "محمد أفندي" أنّ المسؤولين عن الإجهاز على الديموقراطية في مصر بعد "محمد نجيب" هم "علي ماهر باشا" و"سليمان حافظ" والدكتور "عبد الرازق السنهوري" وقد جمعهم عداء تاريخي مع "الوفد" وأقطابه فزينوا للضباط سرعة إنهاء الحياة الديموقراطية خشية عودة الوفد للحكم.. وسبحان الله جميعهم دفع الثمن غالياً واكتووا بنيران الديكتاتورية فعلي ماهر باشا أطيحت بوزارته وبقي في الظل حتى مات و"سليمان حافظ" (راجع رأي "فاروق" عنه في "نوستالجيا الواقع والأوهام" والطريف عنه أنه كان يؤمن بتناسخ الأرواح وأنّ النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم بعث في شخص "محمد نجيب" وأنّ صحابته "جمال عبد الناصر" هو "أبو بكر" و"عبد الحكيم عامر" هو "عمر بن الخطاب" و"صلاح سالم" هو سيدنا "علي"!) اعتقل عام ١٩٥٦م بعد العدوان الثلاثي والدكتور "السنهوري" ضرب ضرباً بالغاً في مظاهرات **29** مارس **1954**م المعادية للديموقراطية وحمل مدثراً بسجادة من خارج مكاتب مجلس الدولة بالجيزة..

بدأ "محمد أفندي" يطالع العدد ٧٤ من مجلة "التحرير" في ١٤ سبتمبر ١٩٥٤م حيث تحكي المجلة عن الأميرة "فاطمة إسماعيل" ابنة الخديوي إسماعيل التي تزوجت في شبابها من الأمير "محمد طوسون" ابن الوالي سعيد باشا وتصفه المجلة بالأهبل والمعتوه والذي فشل أن يشعرها بمتعة الحياة الزوجية وما إن مات حتى فرحت بالترمل أكثر مما فرحت بالزواج وأنها سرعان ما أحبت "الحوذي الأرمني" الذي يقود عربتها وتزوجته وأنجبت منه طفلة تدعى "جويدان" زوجتها من ضابط تركي وأنجبت منه "محمد علي رؤوف" الذي تزوج الأميرة "فائزة" شقيقة "فاروق" التي أطلقت عليها المجلة "الأميرة العارية".. بحسب المجلة فقد جاء "محمد علي رؤوف" إلى مصر عاطلاً ومعدماً فخصّص له "فاروق" راتباً شهرياً من أموال الأوقاف قدره خمسمائة جنيه كان ينفقها كلها على موائد القمار مما جعل الملكة "نازلي" تختاره ليتزوج ابنتها "فائزة" والتي كانت قد بلغت السادسة عشرة من عمرها وشديدة الميل للنزوات والمغامرات العاطفية ومنها ما تحول إلى فضيحة عجلت بفاروق لتزويجها ذلك أنها تعرفت بأمير روسي وسيم وفارع الطول يدعى "نقولا رومانوف" وفي إحدى سهراتها معه في مقهى "الأوبرج" بالهرم وقد أسرفت في احتساء الويسكي والشمبانيا راحت تعبث بحمالات فستانها وقد أحست بالدفء في جسدها فتعرى ثدياها فحاول ضابطان من حرس "فاروق" تغطية صدر الأميرة وكاد الأمر يتطور إلى مشادة مع الأمير الروسي لولا حكمة الضابطين.. احتوى "فاروق" الفضيحة بإبعاد العشيق لكن "فائزة" حاولت اللحاق به والهروب معه عبر طائرة فأرسل "فاروق" رجال حرسه بقيادة "أحمد كامل" مدير بوليس القصور لإعادتها بالقوة.. لم تتوقف المجلة وفي العدد نفسه عن تشويه "فائزة" ففي موضع آخر تتابعها في

"نابولي" ناعتة إياها بالأميرة "الثملة" وأنها راحت تخلع ملابسها في الشارع لتسبح في ماء النافورة وسط تجمع المارة لمشاهدتها في دهشة فيما حملها أحد رجال البوليس عبر سيارة أجرة لفندق "امبادور" حيث تقيم وتنقل عن أحد خدم الفندق أنها تفطر على كأس من الويسكي بدلاً من الشاي والقهوة وضمن أمتعتها حقيبة في حقيقتها "بار" أمريكاني كامل به زجاجات الخمر وكؤوسها!

الأمير "يوسف كمال" صاحب الحس الفني نال نصيبه أيضاً من التشهير، فهو مثلي الجنس بحسب بعض الادعاءات ويحب مطربة غجرية تدعى "وداد الغازية" بحسب ادعاءات (يقال إنّ أغنية "على حسب وداد" نسجت نسبة لهذه القصة) وغير قادر على المعاشرة الجنسية بحسب ادعاءات أخرى ففي العدد ٧٨ في ١٢ أكتوبر ١٩٥٤م من مجلة "التحرير" راح "محمد أفندي" يطالع أن في "إسطنبول" تعيش "توفيقة" كريمة "محمد عباس حليم" شقيق الصدر الأعظم "سعيد حليم" وأنها متزوجة من الثري "عباس جلال" الذي يملك سوقاً تجارياً وقصراً فخماً على بحر مرمرة وتقيم معها بحسب وصف المجلة القاسي شقيقتان "عانستان" هما "زينب" التي فرت من مصر لخلاف بينها وبين "فاروق" و"وجدان" التي اقترنت بيوسف كمال "الإقطاعي السابق بحسب وصف المجلة" في غضون الحرب الأخيرة وطلقها بعد مضي أسابيع قليلة دون أن يعاشرها معاشرة الأزواج!

"هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!" وهل ينسينا الخلاف أن نتذكر المعروف الذي قامت به الأميرة "فاطمة إسماعيل" التي تبرعت ب ٢٦ ألف جنيه تكاليف بناء الجامعة المصرية فضلاً عن مجوهرات بقيمة ٧٠ ألف جنيه لتشغيلها وهل تنسينا الكراهية جهود الأميرة "فائزة" في جمعية الهلال الأحمر ومبرة محمد علي باشا الكبير

بل وخلافها مع أخيها "فاروق" والذي وصل إلى حد وضعها وزوجها قيد الإقامة الجبرية وتنبؤها بالثورة قبل وقوعها عبر فيلم منزلي! كل هذه الخواطر دارت في خلد "محمد أفندي" وهو يطالع المزيد والمزيد من هذه الدعايات القاسية والمتجنية والمؤسفة معتبراً أن النظام الذي يسرف في الكيد لسابقيه لن ينجح أبداً في تطوير واقع أو بناء مستقبل.

جاء اليوم الرابع عشر من رمضان وكان ضيف "محمد أفندي" على الإفطار خاله "عاصف".. كان "محمد أفندي" يضيق ذرعاً بحكايات خاله وكان متلافاً للمال يرتاد البارات والحانات وكثيراً ما كان يقضي وقته في "بار" بشارع المهدي المجاور لشارع "وش البركة" وكان يفاخر أنه رأى فيه الأمير "أحمد فؤاد" قبل أن يصير ملكاً، وكذلك شهد فيه خناقة شهيرة بين "شريف بيك بن علي شريف باشا التركي (أخو حرم عدلي باشا يكن)" وبين الأديب "محمد المويلحي" وصلت لحد صفع "شريف بيك" له وهي الحادثة التي استغلها "علي يوسف "صاحب "المؤيد" للانتقام من "المويلحي" وأسماها (عام الكف.. راجع كتاب "على هامش التاريخ والأدب") وكان "عاصف" يتحدث عن إعجابه بشريف بيك وكم كان سكيراً وينفق على امرأة فرنسية جميلة كانت تحمل في حقيبتها منه ما لا يقل عن عشرين جنيهاً ذهبياً ..

ويحكي "عاصف" عن مغامراته المبكرة في مرحلة الفتوة في دور الفسق واللهو مثل دار "عزيزة الصرصارة" و"فردوس قطط" التي تستقطب طلبة المدارس ودار "نعيمة الظباطي" المغرمة بالضباط الشبان وتغني لهم "يا حاطط على السترة نجمة"..

حزن "محمد أفندي" على "البغاء" الذي كان مستشرياً في مصر في فترة الاحتلال البريطاني لمصر وما كان يتبعه من قضايا قتل للمومسات وكان لمحمد أفندي مبحثاً

في ذلك من أن قضايا قتل النساء وخاصة المومسات كان سابقاً بكثير على العصر الحديث واستخلص حوادث مشابهة لحادثة "ريا وسكينة "من التاريخ المملوكي (راجع "نوستالجيا الواقع والأوهام") وأن قضية "ريا وسكينة" ساعد على انتشارها ورواجها أنها حدثت فترة عام ١٩١٩م أثناء الثورة كما أن نجاح المتهمين في إضفاء طابع السرية على جرائمهم صنع أسطورتهم في عالم الجريمة إذ كان انكشاف أمرهم حينما أرسلت عظمة عثر عليها بالصرف الصحي لسيدني سميث طبيب التشريح الإنجليزي ليتبين أنها بشرية فكانت نقطة الانطلاق للكشف عن حفرة لنساء مومسات قتلى.. والسر في اتجاه هذه الجرائم إلى هذا النوع من النساء الساقطات هو أن ثروتهن كانت من المصاغ والحلي الذي يتزين به وبالتالي سهولة الاستيلاء عليه علاوة على كونهن بلا أهل يسألن عليهن عند غيابهن فهن إما من الهاربات من أسرهن أو أهلن توفين وهن في عمر مبكر فغرقن في مستنقع الشارع والرذيلة.. كما سجل "محمد أفندي" في دراسته أنّ هذه الجرائم لم تنتهِ ولم تكن لتنتهي أبداً في هذا المناخ الآسن حتى ولو اشتدت العقوبات ضد القتلة وها هو يمسك وهو يكتب باللطائف المصورة في ١ مايو ١٩٢٢م وصور لمجموعة من المومسات منهن المصرية "زكية الطنطاوية" (قتلت في أواسط أبريل) والأفرنجية "لوسيل" في القاهرة (قتلت في مارس) اتهم بقتلهن "عطا الله رزق" طمعاً في حليهن والطريف في هذه الحوادث الطريقة التي استعملها الجاني في القتل بالكلوروفورم.. و"الكلوروفورم" من المواد المستخدمة قديماً في العمليات الجراحية ويعود الفضل في استخدامها للمرة الأولى لطبيب أمراض النساء الإسكتلندي "جيمس يانج سمبسون"عام ١٨٤٧م (بعد اكتشافها بستة عشر عاماً على يد ثلاثة كيميائيين هم

الفرنسي "يوجين سوبيران" والألماني "جوستوس فون ليبيك" والأمريكي "صموئيل جوثري").. محاولات "سمبسون" والذي أصبح "باروناً" وطبيباً للملكة البريطانية جوبهت بمعارضة شديدة حتى استخدم للملكة "فيكتوريا" أثناء ولادتها لابنها "ليبولد" ومن وقتها اعتمد رسمياً مسكناً للألم ومخدراً عاماً.. طبعاً مع الوقت تم الاستغناء عن "الكلوروفورم" كمخدر وذلك لتأثيرات سامة على القلب والكبد والكليتين والربط بينه وبين السرطان، لكن في عالم الجريمة كان للكلورفورم استخداماً رائداً، فهو سائل عديم اللون، غير قابل للاشتعال، سهل التطاير، له رائحة مميزة ووضع منديلاً مبللاً بمادة "الكلوروفورم" على أنف الضحية لعدة دقائق (ليس لثوانٍ كما بالأفلام الأبيض والأسود) كفيلاً بإفقادها وعيها ومن ثم الإجهاز عليها وسرقتها ...

ولا يخلو حديث "عاصف" من بعض النوادر والأقاصيص عن نوادر "الخديوي عباس حلمى الثاني" وأنه كان يتحدث العربية ويستمتع بالنكات البلدي ولهذا أحاط نفسه بحاشية من الشيوخ المسنين ممن عاصروا جده "إسماعيل" وهم: "أبو سعيد الجنايني (البستاني)" في حدائق قصور إسماعيل والشيخ "عيد" المفصول من الأزهر لاستهتاره ومجونه في النوادر و"أحمد قبودان" صياد السمك ..

وبعد ذلك راح يحكي عن نوادر صديقه "خليل خير الدين" القاطن في شارع "خيرت" وكان ضعيف الإبصار لدرجة العمى مما جعله مستحقاً لمعاش أبيه وفقاً لقانون معاش "سعيد باشا" والي مصر السابق وأنه ذات يوم وبينما هم مع "حسين" الترزي مر بهم "شحاذ" يطلب إحساناً فدعا لخليل قائلاً: "الله ينورهم" فإذا بحسين

الترزي ينهره غاضباً قائلاً: "أمشى الله يخيبك أنت عاوز تقطع عيشه" فقد خشي "حسين" الترزي أن يستجيب الله فيبصر زبونه ويخسر معاشه ورزقه هو منه ..

انتصف الشهر الفضيل فأخذ "محمد أفندي" الحنين لبيتين من الشعر يعلقهما بمكتبه.. الأول: من شعر "زهير بن أبي سلمى" يقول: "سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِش ثَمانينَ حَولاً لا أَبا لَكَ يَسأَمِ " والثاني من شعرِ "أَبِي اَلطَّيِّبْ أَحْمَدْ بْنْ اَلْحُسَيْنْ اَلْجَعْفِي اَلْكَنَدِيّ اَلْكُوفِيّ المعروف بِالْمُتَنَبِّي " في رثاء جدته يقول: " وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كأَنَّ نُفُوسَنَا.. بها أَنَفٌ أن تَسْكُنَ اللّحْمَ والعَظْمَا"..

وكان البيتان علاوة على تذكيره بزهد الدنيا يذكرانه بزميله الشاعر "فخري أبو السعود" وقد تعرفا وقت أن كان يعمل "فخري" مدرساً بمدرسة الرمل الثانوية وكان مهتماً بالأدب والشعر.. تخرج "فخري" من المعلمين العليا وعمل بالصحافة وأغلب كتاباته كانت بمجلة "الرسالة" ثمّ مجلة "الثقافة" ثمّ ابتعث من جانب وزارة المعارف في جامعة إكسترا في إنجلترا وهناك تزوج من زميلة إنجليزية ولما عاد لمصر عمل بالتدريس في المدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية.. مأساة "فخري" كانت في نفس عام سعده عام ١٩٣٩ م والذي منحته فيه وزارة المعارف جائزتين في حفل أقيم بدار الأوبرا المصرية عن كتابيه "محمود سامي البارودي" و"الخلافة الإسلامية" كما حصل على دراسة صيفية بجامعة جرينوبل.. في هذه الآونة سافرت زوجته إلى إنجلترا بصحبة ولده منها وقيل كان له ولدان حيث اندلعت الحرب العالمية الثانية مما حال بينه وبين عودة زوجته وولده أو ولديه وقيل إنّه فقد الولد أو الولدين في باخرة ترحيل الأطفال الإنجليزية لأمريكا وقيل كندا التي أغرقها الألمان وقيل إنّ جريمة قتل غامضة حدثت فتملكه اليأس وانتحر فيما نفت أسرته ذلك وأنه مات

ضحية رصاصة طائشة أثناء إصلاح مسدسه.. وأياً كان السيناريو فقد حزن "محمد أفندي" على هذا المصاب الفادح الذي لحق بزميله وأسرته والأدب العربي بفقده.. تمتم "محمد أفندي" حزيناً آسفاً بشعر لفخري يقول فيه: "أفم صاغراً وأرغم حياتك وشقها ... فإنك مصري وإنك مسلم"..

كان "محمد أفندي" يحتفظ أيضاً بصورة من شاهد أحد المقابر يقول: "سنة **1305** هـ-**1360** هـ. في حياتنا المشتركة نحن الزوج والزوجة المدفونان تحت هذا الحجر رأينا كل سرور وهناء في عرش السلطنة العثمانية وذقنا كل ألم وبلاء في أيام الهجرة (يقصد الاغتراب في مصر).. وفي حياتنا الزوجية التي امتدت خمسة وخمسين سنة عشنا راضين كل الرضا مطمئنين كل الاطمئنان بعضنا ببعض.. أيها الزائر المحترم إذا أهديت لروحنا الفاتحة فليجزك الله خير الجزاء.. أحمد ذو الكفل".. وتعرف "محمد أفندي" من مسؤول المقبرة عن شخصية صاحب الشاهد وزوجته كما تجمع له من بحثه أنّ "أحمد ذو الكفل" هذا هو ابن المشير "إسماعيل حقي باشا" وقد تم زواجه من السلطانة "صالحة" أو "صالحة سلطان" ابنة السلطان العثماني "عبد العزيز الأول" من زوجته الأولى "دورنوف كادين" في أبريل **1889** م وأثمرت الزيجة عن طفل مات في السادسة من عمره والطريف أنها كانت في طفولتها مخطوبة لإبراهيم حلمي ابن الخديوي إسماعيل وأحد مشيري الدولة العثمانية لكن السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني" عند جلوسه على العرش وبدافع من كراهيته لإسماعيل فسخ الخطبة.. وسبحان الله تهيئ الأقدار لصالحة سلطان وزوجها أن تطأ أقدامهما أرض مصر رغماً عنهما بعد زوال دولة الخلافة العثمانية وتفرق أفرادها بين البلاد بلا عائل ولا سند ولا غطاء مالي غير الصدقات والدعم

الحكومي البسيط تحت حرج "ارحموا عزيز قوم ذل".. وقد توفيت "صالحة سلطان" وزوجها "أحمد ذو الكفل" في نفس العام في المعادي بالقاهرة عام **1941**م .

لما كان اليوم السادس عشر من رمضان وبينما "محمد أفندي" عائد من عمله للبيت وجد كتابات على الحوائط ضد الثورة.. كثيراً ما كان يغتاظ "محمد أفندي" كلما مر بحوائط قريبة من بيته ووجد دعايات سياسية عليها وأحياناً بعضاً من العبارات غير المهذبة.. وهو يراها عادة قديمة كان على الثورة أن تنشئ الجيل الجديد على اجتيازها وعدم ارتياد دربها.. وأقدم ذكر لهذه العادة يجده "محمد أفندي" في كتابِ "أَبِي العَبّاسِ تَقِيُّ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ القَادِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ المَقْرِيزِيِّ" "درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة" عن صديقه "شمس الدين محمد المغيربي أو محمد بن فهيد المصري الشيخ شمس الدين المغيربي" الذي كان له "معرفة بسياسة أموره، وخبرة بأمر دنياه" والظاهر أنه كان من مسؤولي أوقاف الحرمين وموضع تقدير "الظاهر برقوق" وحدث أن تعرض له أحد أهل المدينة المنورة، يدعى "أبو الطيب محمد بن نور الدين الفوي" باتهامات في ذمته تتعلق باختلاس أموال وقف الحرمين الشريفين وسوء التصرف. ونشر ذلك الادعاء على حيطان القاهرة والفسطاط والقرافتين كاتباً: "لعن الله محمد بن فهيد المغيربي آكل وقف الحرمين".

وفي كتابه "السلوك لمعرفة دول الملوك" يورد واقعة أخرى في وقائع سنة **803**هـ/ **1400**م، أنه "نودي ألّا يقيم بديار مصر عجمي، وأجلوا ثلاثة أيام، وهدد من تأخر بعدها. فلم يتم من ذلك شيء. ولهج الناس بالكتابة على الحيطان: من نصرة الإسلام قتل الأعجام". ويقصد بالأعجام جواسيس "تيمورلنك" من الفرس وهو جزء من الشحن الشعبي المؤازر للسلطة المملوكية ضد خصومها . شعر "محمد

أفندي" بإيذاء روحي وهو يقرأ كلمة "شرموطة" المكتوبة على الجدران متأسفاً أن يصل التأثر بالثقافات الوافدة في البذاءات عند هذا الحد، ذلك أنّ الكلمة ربما كانت مشتقة من الكلمة الفارسية "سارموزة" وتعني "رأس الخف، وتطلق على نعال النساء" وانتقلت للمصريين عبر العبيد المجلوبين إلى مصر، وتحولت على ألسنة المصريين إلى دعاء "بشر موتة" للبغايا ..

وما إن اقترب "محمد أفندي" من بيته حتى رأى البلاعة مفتوحة كالعادة في منتصف الشارع وتطوع بعض الأهالي بوضع بعض الأخشاب للفت أنظار المارة خشية السقوط فيها.. تذكر "محمد أفندي" ما قرأه في "غازيته بوليسيه" نمره ١٢٦ في ١٨ أغسطس ١٩٢٧م وسرقة غطاء البكابورت التابع لمصلحة التنظيم وهو من الظهر مربع الشكل وطول كل ضلع منه ٦٠ س.م وثمنه ٨٠ قرشاً، وذلك نهاراً من شارع الملكة نازلي أي بالتأكيد على مرأى من الناس ومن قلب القاهرة.

لما هل اليوم السابع عشر من رمضان صعد "محمد أفندي" إلى سطح المنزل وراح يشاهد الحمام الطائر متذكراً تلك الهواية التي جمعته في الماضي بالحمام واشتراكه في "الجمعية المصرية للحمام الزاجل" والتي أسسها عام ١٩٤٥م "عثمان باشا رامز" من الأعيان حيث اشترى كميات هائلة من الحمام الزاجل من أحد الهواة الإنجليز المقيمين بمصر ومما سمعه "محمد أفندي" يدور على الألسنة من حكايات وأشهرها أن سلاح الإشارة التابع للقوات البريطانية المرابطة في مصر كان بحاجة ماسة للحمام الزاجل فاشترى كل ما كان بحوزة "عثمان باشا رامز" وذلك لتدريبه على نقل الرسائل بين القيادة في مصر والقوات البريطانية العاملة في الصحراء الغربية خشية أن تقع تحت سمع وبصر المخابرات الألمانية إن أرسلت بالراديو.. الطريف أن

"عثمان باشا رامز" قدم ما لديه من سلالات جيدة من الحمام الزاجل دون مقابل على سبيل التذكار الرمزي لجنود الاحتلال! وهو الصنيع الذي قابلته قوات الاحتلال بالمودة بعد انتهاء الحرب العالمية بأن منحت الباشا كل ما في معسكرها بالمعادي من حمام زاجل لينتقي منه ما يشاء وبدوره أهدى ما حصل عليه من حمام زاجل من المعسكر الإنجليزي لجمعية الحمام الزاجل المصرية لتقيم به مزاداً علنياً اشترى منه الهواة المصريون ومنهم "محمد أفندي" الذي حمل ما اشتراه فرحاً إلى بيته وما إن مرّت عدة شهور حتى ذبحتهم "أم نور" وأقامت بهم وليمة كبيرة! من فرط ما كانت "نور وأسيل وغزل" يطاردون أسرابها وينشرون الجلبة في المكان ..

في اليوم الثامن عشر حزن "محمد أفندي" على موت "إسكندر مكاريوس" اللبناني الأصل وخريج الجامعة الأمريكية ببيروت وهو يطالع عدد "المصور" **1435** في **11** أبريل **1952**م، وتذكر توقف تجربة "اللطائف المصورة" التي بدأت عام **1915**م وامتدت حتى **1940**م إذ اضطر لإيقافها بسبب سوء صحته ..

وحزن "محمد أفندي" وهو يطالع مجلة "المصور" في عددها **1626**في **9**ديسمبر **1955**م وقصة الأمير "عبد الله الجابر الصباح" مع الملكة السابقة "ناريمان" بعد طلاقها من "فاروق" وأنه كان على وشك الزواج منها وقد دعته على عشاء بالإسكندرية وبصحبتها والدتها الست "أصيلة " ولكنها لم تتفق مع متطلباته في عروسه من أن تكون هيفاء فارعة القامة علاوة على ما شعر به الأمير من تحفظ حاكم الكويت سمو الأمير "عبد الله السالم الصباح" على هذه الزيجة بقوله: "إن بنات حواء كثيرات ".وراح يقارن بين "ناريمان"و"فريدة" وهو يطالع العدد **1746**

في **28** مارس **1958** م (**8**رمضان) وأول حوار لفريدة منذ طلاقها من الملك فاروق فلم تتعرض لزوجها السابق بأي إساءة كما نفت زواجها أو أي نوايا لها نحو الزواج كما كشفت عن نبل أخلاقها حينما سئلت عن "ناريمان" فقالت إنها لا تحكم على الأشياء بظواهرها وكل إنسان له ظروفه الداخلية التي يعرفها هو وحده ومن هذا المنطلق فهي لا تحب أن تصدر حكماً على "ناريمان".

في اليوم التاسع عشر راح "محمد أفندي" يكتب مقالاً عن تجارب المصريين في الخارج واختار نموذجاً طريفاً ليكون بدايته في هذه الحلقات وهو "محمد محمود الحمامصي" شاب مصري من حارة أبي وقاص بجوار قسم "كرموز" بالإسكندرية.. سافر من ميناء الإسكندرية على متن الباخرة الفرنسية "بورتفال" إلى مارسيليا ومنها استقل القطار ووجهته النهائية مدينة "هامبورج" في ألمانيا وذلك في ٣ يوليو ١٩١٢ م..

كان هدف "الحمامصي" من هذه الرحلة تحقيق حلمه في إنشاء مقلة للحمص والسوداني والفشار في ألمانيا! هدف يبدو غريباً لكن على كل حال كان مشروعاً ومحاولة لطرق أبواب الرزق في ظروف اقتصادية أكثر رحابة من مصر..

هيئة "الحمامصي" كابن بلد يرتدي الملابس البلدية ولا يجيد سوى اللغة العربية وبلهجة خاصة أيضاً جعلت أولى محطاته في بلاد الفرنجة هي قسم البوليس حيث تجمع الناس حوله لغرابة هيئته وفشلوا جميعاً في التواصل معه..

في البوليس تم استدعاء مندوب من القنصلية التركية بحكم السيادة العثمانية على مصر آنذاك لكن مما زاد الطين بلة أن المندوب كان لا يجيد العربية.. عثمانلي أصلي !!..

شهامة أحد اليمنيين المقيمين في ألمانيا ويدعى "محمد حبحب" أنقذت "الحمامصي" فقد سهل مهمة استجوابه من جانب البوليس وتعهد خطياً بأن يقيم معه وأن يساعده في الحصول على فرصة عمل ..

جدعنة "حبحب" لم تتوقف عند هذا بل شارك "الحمامصي" في افتتاح مقلة في حديقة الحيوانات التي يملكها الثري الألماني المشهور "هاجن بك".. إذ منطقياً أنّ "الحمامصي" لم يكن لينجح بدون إجادة اللغة الألمانية وهي شديدة الأهمية لدى الألمان وعليه فوجود "حبحب" أزال عنه عقبة كبيرة هي اللغة..

افتتن الألمان بطعم الفشار والسوداني المملح وانفتحت أبواب الرزق على "المحمدين" وتضاعفت أرباحهما..

هذا النجاح دعا الهر "هاجن بيك" للتفكير في إقامعة معرض مصري ضخم على غرار المعرض الهندي الذي كان يقيمه بحديقته ليكون صورة حية لمصر القديمة والحديثة بتعدد ثقافاتها ..

كان "هاجن بيك " في الثمانين من عمره وكان قعيداً تحمله عربة صغيرة يدفعها بعض الخدم لكنه كان شعلة نشاط وتوقد عقلي جعلته من أثرياء البلاد فدعا "الحمامصي" لتنفيذ الفكرة وتعهد بتوفير ما يحتاجه المعرض من الناحية العمرانية والإنشائية فيما يتولى "الحمامصي" إحضار الأشخاص والطوائف المختلفة ومعدات العرض كالخيول والطبول والموسيقى.. وقد كان.. حيث وصل الركب الضخم ويضم ٥٦٠ شخص يتقدمهم "الحمامصي" وبصحبتهم الخيول والجمال إلى "هامبورج" وكان في استقبالهم "هاجن بيك" والذي كان تواقاً لتنفيذ فكرته وإبرازها والدعاية لها

بشكل كبير فدعا للمعرض المصري الإمبراطور "ويلهلم" وابنته والمارشال "هندنبرج "وحرس الإمبراطور..

وذلك بحسب ما ورد في العدد ٩٢١ من مجلة "الاثنين والدنيا" في ٤ فبراير ١٩٥٢م.

حان وقت العشر الأواخر وعادة ما يعتزل "محمد أفندي" الحياة كلها ويأخذ إجازة من عمله ويتخلى عن كل شيء حتى ممتلكاته الأرشيفية النادرة التي أثبتها في "مذكراته" و"يومياته" التي اعتمدنا عليها في نقلنا هذا وتحليلنا لها ويذهب إلى قرية "بركة غطاس" طلباً للعزلة التامة والخلود للعبادة حيث يمتلك قطعة أرض هناك يقضي يومه في الحقل ويصلي الخمس صلوات والتراويح بمسجد "سيدي محمد دغش" بالمنطقة، والمشهور بمسجد "الحرفة" ويعتكف هناك.. وفي تجواله آلمه مشاهدة عزبة "أمين بيك سيد أحمد" القاضي بمحكمة الاستئناف المختلطة وبعدها وكيلاً لوزارة الحقانية والذي توفي بشكل مفاجئ في عرض البحر بالسكتة القلبية وهو على متن الباخرة الفرنسية "ملبورن" في طريقه لأوروبا واحتراماً لقدره ووفقاً للقوانين البحرية فقد أبقي على الجثمان أربعاً وعشرين ساعة، ثم ألقي في البحر وابنته هي "فاطمة هانم" زوجة "إسماعيل باشا صدقي" رئيس الوزراء وصاحب القبضة الحديدية وقد توفيت أثناء ما عرف بمفاوضات "صدقي - بيفن "عام **1946**م وكان الملك فؤاد قد منحها الوشاح الأكبر من نيشان الكمال..

وقصة هذه العزبة كثيرة الطرافة إذ جاءت ترضية وإنعام من "سعيد باشا " والي مصر لمحمد سيد أحمد باشا "والد أمين" وكان "محمد سيد أحمد باشا" يجيد اللغتين العربية والتركية مما أهله للعمل لدى "سعيد باشا" في كتابة رسائله الرسمية والخاصة فحظي بمكانة كبيرة لدى "سعيد باشا" وصار من مالكي القصور الفارهة،

فكان بقصره ستون جارية ما بين بيضاء وسوداء علاوة على الخدم من المماليك الشراكسة والطهاة.. وكالعادة في أروقة القصور هناك من حاول الإيقاع بين "محمد" و"سعيد باشا" ونجح في أن يوغر صدر الأخير عليه فاعتقله من فوره في قلعة "أبي قير" دون مقدمات ودون أسباب اتهام ودون حتى تحقيق ومرت تسعة أشهر ونسي أمره.. فرتب أصدقاؤه ومحبوه لقاء يجمع "سعيد باشا" بنجليه "أمين" و"محمود" وكانا لازالا صبيين فاستغلا خروج "سعيد باشا" من قصر "رأس التين" وانكبا على قدميه يقبلانهما ويستعطفانه ودموعهما تنهمر في حرارة للعفو عن أبيهما المعتقل وكان "سعيد باشا" بإجماع معاصريه شديد الطيبة فرق لهما وأفرج عن أبيهما في الحال ومنحه تطيباً لخاطره عزبة "تسعمائة فدان" في "بركة غطاس" أي أن شهر المعتقل الواحد تقاضى مقابله "مائة فدان" تعويضاً.. أراك عزيزي القارئ تتمنى لو كنت مكانه وأظن أن هذا كان من تمنيات وتطلعات "محمد أفندي" أيضاً لو سنحت له الفرصة !

عند هذه السطور توقف مداد "محمد أفندي فتحي" وسكت عن الكلام المباح حتى حين ولربما شغلته أيام العشر المباركة على أن يتم مذكراته الشيقة ويومياته الثرية القيمة التي بين أيدينا الآن.

3-النسر المصري ونجاح أول محاولة مصرية للطيران

مثل الطيران حلماً للفلاسفة عبر العهود الماضية، فقد قام الفيلسوف الإغريقي "أرخيتاس" بتجربة آلة طائرة هي نموذج على شكل طائر مدفوعة بالبخار أطلق عليها "الحمامة" قطعت مسافة **200** متر وفي الأساطير أنّ "إيكاروس" وأباه "دايدالوس" اليوناني المعماري طارا بأجنحة من الريش والشمع مثبتة على ظهريهما هرباً من "مينوس" ملك جزيرة "كريت" الذي كان يحتجزهما وأنّ "إيكاروس" عصى أباه واقترب من الشمس فأذابت الشمع المثبت لجناحيه فسقط في البحر صريعاً وابتلعته أمواجه في المنطقة التي هي الآن تسمى ببحر "إيجة" قرب "إيكاريا".. وكذلك أظهر تحدياً كبيراً للعلماء وفي مقدمتهم العرب المسلمون والذين سعوا سعياً حثيثاً لبلوغ هذه الغاية.. ولعلّ أشهر تلك المحاولات ما قام بها "عباس بن فرناس" (**810-887** م) وقد كان عالماً في ضروب شتى من العلوم فعلاوة على الفلك الذي اقترن به ومحاولته الطيران فقد برع في الشعر والموسيقى والطب والصيدلة وصناعة الساعات أيضاً أو "الميقاتة" وهي ساعة تعمل بالطاقة المائية وهو أول من صنع النظارات الطبية بعدسات لتصحيح الإبصار وأول من صنع الزجاج الشفاف من الحجارة فكان يستخدم أحجار المور والكريستال الصلب في صناعة العدسات والمناظير الفلكية كما كان ملهماً لصناعة أقلام الحبر عبر صناعة أسطوانة بها حاوية للحبر وبنهايتها طرف مدبب للكتابة.. لقد كان سابقاً عصره بحق.. وقد ذاع صيته في العصر الأموي بالأندلس حيث عاش بقرطبة إلى

حد أن أطلقوا عليه حكيم الأندلس.. أما قصته مع الطيران فبدأت حينما تأمل قوله تعالى في سورة الملك الآية **19**: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَـنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) وتفتق ذهنه أنه لو قلد الطيور في طيرانها عبر صناعة جناحين من الريش وكساهما بالحرير بقياسات علمية دقيقة ليسر للناس طرق السفر والترحال وبالفعل نفذ فكرته ونجح في الطيران مسافة قصيرة بالقرب من قصر الرصافة عام **875**م لكنه سقط وأصيب ببعض الجروح لكنه تعافى منها.. ذلك أنه لم يعد لمسألة الهبوط عدتها وأهمل محاكاة الطير بشكل كامل فلم يصنع ذيلاً يساعده على الهبوط فسقط.. وشاع أنه مات جراء هذه المحاولة والحقيقة أنّ خلطاً قد حصل بين محاولته ومحاولة لاحقة عليه قام بها عالم لغوي يدعى "أبو العباس الجوهري" بخراسان على سطح منزله وقيل المسجد حيث صنع شراعاً خشبياً حول نفسه وفشل ومات من جرائها حوالي عام **1003**م.. أتبع ذلك محاولة غير موثقة من الراهب "إلمر المالمسبوري" للطيران بطائرة شراعية في إنجلترا بين عامي **1000-1010**م وفشلت لأنه نسي هو الآخر وضع ذيل في الجزء الخلفي..

وفي عام **1632**م قام العالم العثماني "هزارفن أحمد جلبي" بمحاولة جديدة للطيران بأجنحة اصطناعية من أعلى برج غلاطة (القسم الأوروبي) في مدينة إسطنبول إلى "دوغانجيلار" في منطقة أسكدار الواقعة في القسم الآسيوي من المدينة نفسها ويفصل بينهما مضيق البسفور وذلك وسط حضور كبير من السلطان العثماني "مراد الرابع" والصدر الأعظم والوزراء وأهالي المدينة..

تحقق الحلم الذي ساور العرب وجاهدوا في الوصول إليه ولكن هذه المرة عبر الغرب وتحديداً بواسطة الأخوين الأمريكيين "أورفيل وويلبر رايت" حينما نجحا في اختراع أول طائرة والقيام بأول تجربة طيران ناجحة بواسطة آلة أثقل من الهواء وذلك في **17** ديسمبر **1903**. وكانت أطول رحلة طيران حققها "أورفيل رايت" قد استغرقت **75** دقيقة على ارتفاع قرابة المائة متر.

لم تكن تجارب الغرب في الطيران الحديث لتمر مرور الكرام في عالمنا العربي دون محاكاتها ومنافستها خاصة بين أوساط المصريين منهم.. كانت المحاولة الأولى من جانب "حسن أنيس باشا" أول مصري يتعلم فن الطيران بشكل عملي وبحسب حديث معه بمجلة العالم في ٢٦ يوليو ١٩٢٦م فقد بدأ اهتمامه بفن الطيران عام ١٩٠٨ م بعد لقاء جمعه بباريس بزميله "هوبير لاتام" من أيام الدراسة بجامعة أكسفورد بإنجلترا وكانا قد افترقا قبلها بعامين حيث تطرق الحديث إلى مشروعات الأخير ومجهوداته في الطيران ومنها محاولته الفاشلة لعبور المانش مما آثار حماس "حسن أنيس باشا" فظل على تواصله معه وفي عام ١٩١١ م جمعهما اللقاء مرة أخرى وبدأ "حسن أنيس باشا" رحلة التمرين العملي حتى حصل عام ١٩١٢م على التصريح بقيادة الطائرة ووسام من جمعية الطيران بباريس في أواخر عام ١٩١١م في السنغال كما ساعد الطيار "مارك بورب" في الترتيب لرحلته من مصر للخرطوم ذهاباً وإياباً عام **1913**م ..

خاض حسن أنيس باشا أولى محاولاته العملية للطيران عام ١٩٢٤م وكان وكيلاً لوزارة الخارجية وأحيل للمعاش المبكر وحصل على تعويض قدره ثلاثين ألف جنيه بعد دعوى قضائية أقامها.. وسافر إلى أوروبا واشترى طائرة ألمانية أسماها "أنيسة"

وخاض رحلة شاقة من لندن في طريقه إلى مصر استغرقت ثمانية عشرة ساعة في خضم طقس أوروبي متقلب وغير آمن.. غير أنه وما إن وصل جزيرة "كريت" في نوفمبر **1924** وأصبح على مسيرة ساعات بطائرته المائية قاب قوسين أو أدنى من مدينة الإسكندرية صدرت الأوامر بمنع هبوطه بطائرته لمصر فقضى بجزيرة "كريت" أربعة أيام في انتظار باخرة تقله لأرض الوطن والحزن يعتصره ومما ضاعف من ألمه تركه لطيارته "أنيسة" بالجزيرة هذا بحسب روايته ..

ثمة رواية أخرى تناقض رواية "حسن باشا أنيس" في بعض تفاصيلها أوردها "محمد زيور" سكرتير عام ومراقب وزارة المواصلات سابقاً بمجلة المصور عام **1957** م من أن "حسن أنيس باشا" حضر بالفعل بطائرته المائية إلى مصر ونزل بها في النيل بالقرب من سراي محمود فخري باشا ضارباً عرض الحائط بأوامر وزارة المواصلات له بعدم القدوم بها حيث جرى التحفظ عليها بواسطة قوة بوليس من بندر الجيزة، ثمّ الإفراج عنها لاحقاً والسماح لحسن أنيس باشا بالعودة بها من حيث أتى.. وهكذا أجهض حلم أول طيار مصري في نيل هذا السبق الفريد..

لكن هذا التعثر لم ينل من عزيمة مصريين آخرين داعبت أنفسهم الرغبة في المغامرة وارتياد نفس السبيل الوعر ..

وفي عام ١٩٢٩م قرر الطيار "محمد رشدي أفندي طبوزادة" القدوم بطائرته الخاصة من إنجلترا إلى مصر وكان محمد رشدي أفندي من الدفعات الأولى التي درست الميكانيكا في مدرسة الهندسة الملكية بالجيزة وأوفدته الحكومة المصرية للحصول على إجازتي الطيران الخاص والتجاري وهندسة الطيران... ورغم أن الحكومة المصرية رصدت في سبيل إنجاح رحلته ثلاثة آلاف جنيه إلا أنها باءت بالفشل هي

الأخرى ذلك أن الخبيرين الإنجليزين الموكل بهما تدريبه أوصيا بعدم قيامه بالرحلة لأنه لم ينل التدريب الكافي للاضطلاع بهذه المهمة ..

أما المحاولة الفاشلة الثالثة فكانت من نصيب "أحمد حسنين باشا" حيث أرسله الملك فؤاد عام ١٩٣٠م لشراء طائرة ذات مقعدين من نوع "موث" من لندن أطلق عليها اسم الأميرة "فايقة" ابنة الملك فؤاد لتكون نواة لنادي الطيران المصري الوليد لكن سوء الطالع كان ملازماً لحسنين باشا في هذه المغامرة إذ انفجر الإطار الأمامي للطائرة على مدرج مطار "هيوستون" قبل إقلاعها ومع إعادة التجربة تعطلت في سماء إيطاليا وسقطت بأحمد حسنين باشا والذي أصيب إصابات بالغة كادت تودي بحياته ..

"أحمد حسنين باشا" لمن لا يعرفه هو خريج أكسفورد والبطل الدولي في لعبة الشيش وقد خاض عام **1920** تجربة جريئة لاستكشاف الصحراء الغربية برفقة السيدة الإنجليزية (روزيتا نوريس) حيث تمكنا من اكتشاف واحتي العوينات وأركنو للمرة الأولى ولقب بعدها بالرحالة العظيم وقد أقام له الملك فؤاد حفل تكريم بفندق سان استيفانو بالإسكندرية عام **1923** أنشد فيه أمير الشعراء أحمد شوقي أبياتاً تقول :

"أَكبَرتُ مِن حَسَنَينٍ هِمَّةً طَمَحَت
تَرومُ ما لا يَرومُ الفِتيَةُ القُنُعُ
وَما البُطولَةُ إِلّا النَفسُ تَدفَعُها
فيما يُبَلِغُها حَمداً فَتَندَفِعُ

وَلا يُبالي لَهَا أَهلٌ إِذا وَصَلوا
طاحوا عَلى جَنَباتِ الحَمدِ أَم رَجَعوا
رَحّالَةَ الشَرقِ إِنَّ البيدَ قَد عَلِمَت
بِأَنَّكَ اللَيثُ لَم يُخلَق لَهُ الفَزَعُ"

وحسنين باشا عزيزي القارئ هو نفسه رئيس الديوان الملكي في عهد فاروق والزوج العرفي لأمه الملكة نازلي زوجة الملك فؤاد الثانية! والطريف أنّ أحد شهود هذا الزواج العرفي كان فناننا الكبير "سليمان نجيب بيك" الصديق المقرب من أحمد حسنين باشا !!..

ضياع هذه المحاولات سدى لم يخفت الحلم في نفوس المصريين التواقين إلى منافسة الغرب المستعمر ومحاولة التفوق عليه..

النجاحات الغربية في هذه الآونة كانت عنصراً إضافياً في استنهاض همم المصريين في كل مرة يخفقون فيها، فالصحف وكتب الرحلات تكتب عن البلدان المتقدمة التي تستخدم الطائرات لرش الحشرة التي تصيب لويزات القطن محصولهم الاستراتيجي بمادة سامة وتقضي على كثير من أمراض النبات ومصر البلد الزراعي الرائد منذ عهد الفراعنة العظام لازالت تستخدم وسائل قديمة أو تحتاج المستعمر لحل مشاكلها.. وها هم يرون أيضاً الطيار الإنجليزي "السر آلن كوبهام" يحلق بطائرته الشراعية عام ١٩٢٨م في سماء مصر عند "أبيدوس" بسوهاج وواحة سيوة حيث قطع المسافة من القاهرة لأسوان في البحر أربع ساعات لتسقط طائرته لعطل بها في "أبيدوس" ويتجمع حوله الأهالي ويستضيفه عمدتها.. وها هو أيضاً المنطاد

الألماني "جراف زبلن" يمر بسماء مصر في مارس ١٩٢٩م دون النزول على أراضيها أو المرور بقناة السويس نتيجة للمعارضة البريطانية باعتبار المسألة أمن قومي ..

مع اقتراب شهر رمضان الكريم عام ١٩٣٠ م كان المصريون على موعد مع أول سبق لهم في مجال الطيران وبداية تحقيق حلمهم الطويل حينما غادر الطيار "محمد صدقي" مطار برلين في ١٢ يناير عام ١٩٣٠م بطيارته الرياضية الخاصة الصغيرة والألمانية الصنع ذات المحرك الواحد والمكشوفة بدون غطاء زجاجي وفي مقعدها الخلفي تمساح صغير كان يتفاءل به ووجهته مصر... كانت الطائرة تحمل اسم الأميرة "فايزة" تيمنا باسم ابنة الملك فؤاد ملك مصر آنذاك التي ولدت قبل نحو سبع سنوات من هذا التاريخ.. تحدى النسر المصري كل المعوقات التي صادفته وفي مقدمتها الطقس غير المستقر حيث قطع رحلته المثيرة والخطيرة عبر ربوع أوروبا فحلق في تشيكوسلوفاكيا، ثم إلى مملكة يوغسلافيا، ثم البحر الأبيض المتوسط الذي طار فوقه وبرنديزي بإيطاليا إلى أن وصل للسلوم داخل مصر. وبعدها واصل طيرانه إلى الإسكندرية حيث وصل مطار أبوقير في ٢٥ يناير ١٩٣٠م، ثم إلى القاهرة ليصلها يوم **26** يناير **1930**م في مطار هليوبوليس (كان المطار الوحيد في مصر وكان تابعاً للإنجليز وحل محله مطار ألماظة العسكري المصري).. حيث كان في استقباله اللواء محمد صادق يحي باشا كبير الياوران مندوباً عن الملك فؤاد ملك مصر آنذاك ورئيس الوزراء آنذاك مصطفى باشا النحاس ووزير المواصلات محمود فهمي النقراشي باشا وحسن حسيب باشا وزير الحربية والبحرية ومحمد نجيب الغرابلي وزير الحقانية والأمير عباس حليم والبارون فون شتورر وزير ألمانيا المفوض ومنذ ذلك التاريخ اعتبر يوم **26** يناير من كل عام عيداً قومياً

للطيران المدني تحتفل به مصر.. كان في طليعة المحتفين بالبطل المصري أيضاً "محمد طلعت حرب باشا" الاقتصادي المصري الكبير والذي رأس لجنة الاحتفالات لتكريم صدقي ومنحه ألف جنيه هدية والطريف أن صدقي كان أحد موظفيه في بنك مصر في الماضي وفي كلمة له في تياترو حديقة الأزبكية قال طلعت حرب: "إننا إذا احتفلنا اليوم بصدقي فإنما نحتفل به تكريماً لشخصه ولصفات البطولة التي انطوت عليها نفسه، ونحتفل به لأن ما قام به يعتبر رمزاً جليلاً على اقتدار المصري في مغالبة الصعاب والتغلب عليها ومطارحة المجد بثمن الحياة للفوز به في سبيل الوطن.. كنا قبل وصوله نشعر بنقص في استكمال أدواتنا القومية لا لعجز عن استكمالها ولكن لأسباب قهرية، وكنا نشعر بأن الأمم الأخرى أسبق منا في ميادين الطيران، ونحن أحق بأن نجاريها في استعمال الهواء كما تستعمله هي سواء بسواء، وكان يزيد ألمنا بهذا النقص أن الطيران واسطة بريئة للنقل التجاري يتقدم بسرعة هائلة، ونحن مع هذا محرومون من حق الانتفاع بهذه الواسطة في جونا الصافي، حتى ومحرومون من تحضير أبنائنا في مطارات لنا خاصة! أما وقد وصل إلينا صدقي فإن وصوله يعتبر فوزاً للمصريين ودليلاً ناهضاً على إمكان تكوين أمثاله من الطيارين المصريين وباعثاً منشطاً على تذليل الصعاب لإنشاء أسراب من الطيارات المصرية لتسهيل النقل الجوي أسوة بما تقوم به الأمم الأخرى!!" كما أعد كبار الشعراء قصائدهم إكباراً لعمله الذي أبطل "استعلاء الغرب عليهم" بحسب وصف الكاتب الروائي يحي حقي، في كتابه "صفحات من تاريخ مصر" حيث شدا شاعر القطرين "خليل مطران" بقصيدة مطلعها: "عائداً برعاية الرحمن.. النيل راضٍ عنك والهرمان"، وقال أمير الشعراء أحمد شوقي: "لِمَ لا يُفتَنُ فِتيانَ الحِمى. ذَلِكَ

الإِقدامُ أَو ذاكَ الطِماح.. مِن فَتىً حَلَّ مِنَ الجَوِّ بِهِم. فَتَلَقّوهُ عَلى هامٍ وَراح.. إِنَّهُ أَوَّلُ عُصفورٍ لَهُم. هَزَّ في الجَوِّ جَناحَيهِ وَصاح"، وكتب عبد الغني حسن: "اتخذ السماء إلى علاه مطارا.. ورمى بأجواز الفضاء وطارا".. وفي ٢٩ يناير ١٩٣٠م أقام له أول نادٍ للطيران المصري حفلة في قصر الأمير عمرو إبراهيم بدعوة منه احتفاء بأول طيار مصري حضرها صفوة المجتمع المصري وفي مقدمتهم حسن أنيس باشا الذي وصف عمل صدقي بالجريء... كما ألف الأمير عمر طوسون جمعية للاحتفال بالنسر المصري في الإسكندرية ومنحها له خمسمائة جنيه.. بقي أن نعرف من هو بطل هذه المحاولة الناجحة عن كثب والتي حولت احتفال المصريين بقدوم شهر رمضان المعظم عام ١٩٣٠ م إلى احتفالين؟! بحسب المعلومات عنه فالطيار المصري الباسل "محمد أفندي صدقي" خاله الوجيه الأديب الأستاذ "بهجت بيك البتانوني" ووقت الرحلة كان في عمر الثلاثين (من مواليد ١٨٩٩م لأب من ضباط المدفعية بحي سراي القبة) وهو حائز على دبلوم التجارة العليا ولقب الدكتوراه فيها من إحدى جامعات ألمانيا وقد أتم دراسة الطيران على يد (الهرببتر) من أعلام الطيران في مطار كاسل بألمانيا ونال شهادته عام ١٩٢٨م وقدمها إلى سلاح الطيران البريطاني في لندن ونال تصديقه عليها وزوجته سيدة ألمانية هي حفيدة الموسيقي الشهير "باخ" "(السيدة فرانسيسكا فيلهلم باخ تزوجها عام ١٩٢١م) "وله ولد منها هو "أسامة صدقي (أصبح طياراً فيما بعد)" وهذا بحسب ما جاء عنه في اللطائف المصورة في عددها ٧٧٦ في ٢٣ ديسمبر ١٩٢٩م..

وفي حديث معه على مجلة مصر الحديثة العدد ٣٠ في ٣٠ يناير ١٩٣٠ م تحدث عن الأثر الطيب في ارتياد الصعاب الذي تركه في نفسه معلم اللغة العربية في مدرسة

الناصرية إذ كان يردد: "لاستسهلن الصعب أو أدرك المنى .. فما انقادت الآمال إلا لصابر"

كما تطرق في الحديث حول مستقبله كطيار في مصر فهو كالتاجر الذي يعرض بضاعته فإذا استحسنها الجمهور وأقبل عليها فهو توفيق من الله وإن أعرض عليها فليس على المرء أن تتم المقاصد وهو يرى بصيصاً من النور مع رغبة وزارة الشعب (يقصد وزارة الوفد) وحدسه من أن ميجر "لونج" مستشار الطيران في وزارة المواصلات لن يمانع أن يكون لمصر طيارين يحلقون في أجوائها وأن تكون مصر في مصاف الدول المتحضرة.. تزعم بعض الروايات أنه سرعان ما تبخرت آمال صدقي وأحلامه وفي ٢٧ يونيو من العام نفسه، عاد من حيث أتى حيث انطلق من مطار هليوبوليس راجعاً لألمانيا، حيث شعر بعدم التقدير من جانب الحكومة المصرية التي عرضت عليه وظيفة صغيرة براتب متواضع لا يعادل ما يحصل عليه طيار في ساعة واحدة ولا يكفي للعناية بطائرته. وفي رواية أخرى أنه سافر لبريطانيا لدراسة الطيران بشكل أكاديمي متعمق ونال درجة علمية دولية في الطيران المدني ليعود بعدها عام **1936** م.. لكن وتبعاً لموسوعة "الأعلام" لخير الدين الزركلي فإن "صدقي" عمل في شركة مصر للطيران، فكان كبير طياريها. ثم اختارته مصلحة الطيران المدني مفتشاً عاماً لها. وتوفي بالقاهرة عام **1944**م.. وهو ما يمكن أن نستنتج منه أن جهود "طلعت حرب باشا" لم تتوقف فقط عند صدور المرسوم الملكي في يوم **7** مايو **1932** بإنشاء شركة مصر للطيران، بل تعدت ذلك لضم "صدقي" إلى طاقمها والذي توارت سيرته بشكل كبير ومما يروى أن

"صدقي" أهدى طائرته "الأميرة فايزة" للشركة وسجلت في السجلات المصرية عام ١٩٣٢م ..

العنصر النسائي لم يكن غائباً أيضاً عن المحاولات الأولى للطيران المصري ولنا في "لطيفة النادي" مثالاً رائداً، فقد اصطدمت الفتاة العاشقة للحرية والطيران بمعارضة والدها الموظف بالمطابع الأميرية حينما أرادت دخول عالم الطيران عقب تشجيع "طلعت حرب" للفتيات المصريات لاقتحام المجال والتدريب عليه ومن ثم العمل بشركة مصر للطيران الوليدة.. استطاعت "لطيفة" تحقيق حلمها عبر السيد "كمال علوي" (تعلم قيادة الطائرات في فرنسا، وهو صاحب أول طائرة يتم تسجيلها في مصر كان قد اشتراها وشحنها) مدير عام شركة مصر للطيران والذي رحب بطموحاتها ورتب لها عملاً كسكرتيرة بالشركة نظير راتب شهري حتى تتمكن من الاعتماد على نفسها في تدبير نفقات الدراسة واستطاعت بمهارة وفي غضون سبعة وستين يوماً أن تتمكن من قيادة الطائرة بمفردها بعد ثلاث عشرة ساعة من الطيران المزدوج مع "مستر كارول" كبير معلمي الطيران بالمدرسة في مطار ألماظة (افتتحه الملك فؤاد في **2** يونيو **1932**م كأول مطار مصري) وفي أكتوبر ١٩٣٣م وفي عمر السادسة والعشرين أصبحت أول كابتن طيار من الجنس اللطيف وصارت الطيار رقم ٣٤ في تعداد الطيارين المصريين الحاصلين على إجازة الطيران بالمملكة المصرية ومع حديث الصحافة عنها وعن نجاحها غير المسبوق بأقلام كبار الصحفيين مثل الأستاذ "فكري أباظة" في المصور والأستاذ "أحمد حسن الزيات" في الرسالة وغيرهم علاوة على تكريم مدرسة مصر للطيران لها في احتفال حضرته السيدة "هدى شعراوي" والتي أهدتها قلادة من الذهب

المرصع بالماس صنع خصيصاً لها وحجر من العقيق الأحمر عليه آية الكرسي من جمعية الاتحاد النسائي كما أهداها "طلعت حرب باشا" عشر ساعات طيران مجاناً تحمل قيمتها كل هذا جعل الأب يرضى أخيراً عن ابنته وتبدل غضبه الناتج عن خوفه عليها إلى فخر وانبهار. شاركت "لطيفة" في سباق الطيران الدولي للسرعة من القاهرة إلى الإسكندرية في ١٩ ديسمبر ١٩٣٣م.. كادت "لطيفة" أن تقترب من الحصول على المركز الأول في السباق لكن التحكيم الإنجليزي اعترض على تأهلها للمركز الأول وحجب النتيجة بحجة أنّ الطائرة لم تمر إلا على خيمة واحدة في المكان المحدد للعودة من الإسكندرية والموجود خيمتان.. لكن إعجاب المجتمع المصري بإقدامها وخاصة الملك فؤاد رائد النهضة التعليمية في مصر على جميع الأصعدة علاوة على توصية لجنة المسابقة دفع في اتجاه صرف جائزة شرفية لها وقدرها مئتي جنيه تشجيعاً لها على الاستمرار.. كما بعثت لها "هدى شعراوي" ببرقية فخر واعتزاز تقول فيها: "شرّفت وطنكِ، ورفعت رأسنا، وتوجت نهضتنا بتاج الفخر، بارك الله فيكِ".. كما دعت هدى شعراوي إلى مشروع اكتتاب من أجل شراء طائرة خاصة للطيفة تجوب العالم بها باسم مصر وسفيرة لها واهتمت الصحافة بهذه الدعوة باعتبارها أدنى ما تهديه أمة عظيمة كريمة كالأمة المصرية لفتاتها وكانت "هدى شعراوي" أولى المتبرعات بمائة جنيه.. لكنّ الجليّ أنّ المشروع لم يكتمل ربما لقلة التبرعات وإحجام أغنياء مصر عن تمويله.. حصلت لطيفة النادي على الجنسية السويسرية وتوفيت عام **2002**م بمصر.

4- بانوراما حياتية للمجتمع المصري في رمضان الثلاثينيات من القرن الماضي أنموذجاً

قراءة في أرشيف الصحافة المصرية (مجلة الجامعة)

يعد أرشيف الصحافة المصرية مرآة صادقة لواقع الحياة الاجتماعية في مصر في الماضي بكل ما يحمله من تناقضات وطرائف تحيط بصفوته ونجومه وعامة الناس أيضاً .

وسنعتمد في مبحثنا هذا لسبر أغوار هذا الواقع وكشف خفاياه على رمضان في الثلاثينيات وتحديداً رمضان بين عامي **1934**م و**1935**م حيث كان المجتمع المصري يموج بتحولات سياسية بارزة تصب في اتجاه الخلاص من المحتل الإنجليزي ونيل الاستقلال الكامل غير منقوص السيادة مما أفضى إلى توقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين الجانبين عام **1936**م.. هذه إطلالة مقتضبة على المحيط السياسي المعروف بجذافيره وتناولته مئات الكتب بالشرح والتفصيل المستفيض.. لكن ماذا عن حال الناس على اختلاف طبقاتهم؟! ماذا كان يشغلهم خاصة في الشهر الفضيل؟! وسنعتمد بعض أعداد مجلة "الجامعة" النادرة الصادرة في شهر رمضان في الفترة التي اخترناها لترسم لنا صورة ثرية عن كثب لمختلف الطبقات المجتمعية وواقعهم المتباين في الشهر الفضيل.. ونبدأ بعالم الفن وفيلم المفآجات الذي احتل اهتمام الجمهور المصري مع استمرار عرضه في شهر رمضان بين عامي **1934**م و **1935**م فيلم "شبح الماضي" إنتاج شركة "كوندرو فيلم" التي يملكها

الأخوان "لاما" وقد قامت ببطولته المطربة "نادرة" والفنانة "أمينة محمد" والفنان والمنتج الفلسطيني الأصل "بدر لاما" والطفل "عبد الله لاما" وبحسب كتاب "تاريخ السينما المصرية" لمحمود قاسم فقصة الفيلم والذي ربما احترق مع ما احترق من التركة السينمائية لأسرة "لاما" في حريق مروع: تتناول المهندس المعماري "رمزي عباس" الذي يقطن مع زوجته "دلال" بفيلا على النيل، ثمّ تجمعه قصة حب بنادرة زوجة "محمود خاطر" لكنّ الأخير يقف عقبة أمام هذا الحب ويدبر للإيقاع بغريمه حيث يدعي أنه مسافر ثم يباغت "رمزي" وهو خارج من عند زوجته "نادرة" ويلقي على ظهره حجراً ثقيلاً كسر عموده الفقري ومن ثم أصابه بالشلل، ثم دخل على زوجته وقتلها وسرق حليها ليوهم البوليس أن زوجته الخائنة، قتلها لصوص وبذلك يفلت من جريمته.. حاول "رمزي" التكتم على الحادثة خشية الفضيحة وادعى أن سيارة صدمته.. تدور الأيام بمحمود ويفقد ثروته ويعاود الانتقام من "رمزي" ولكن هذه المرة في شخص ابنه الصغير "سمير" حيث اختطفه وعذبه في جبل المقطم ثم أمر "رمزي" بالمجيء بمفرده وراح يخيره بين حياة ابنه والذي كان معلقاً على شفا جرف الهاوية أو زوجته.. في هذه اللحظة تحدث المعجزة ويشفى "رمزي" من الشلل ويقوم لإنقاذ ابنه فيما يحاول "محمود" طعنه بالسكين لكن رجله تنزلق من أعلى الجبل ويهوي منه ميتاً... الفيلم شهد مفاجأة وهي أن واضع أغانيه هو الأديب "عباس محمود العقاد" والتي غنتها "نادرة" ومنها "غازي قلوب الشعب بالكرم" و"في الهوى قلبي زورق يجري" و"يا ساعة الصفو غبت عني" و"مولدي يوم شقائي طال في المجد رجائي" و"يا حبيبي أنت ري ليس في النيل نظيره"

وهذا حدا بالبعض للغلو في مكانة "نادرة " لدى "العقاد" وأنها البطلة الحقيقية لروايته الشهيرة "سارة ."

الفيلم جاء منافساً للأفلام الأجنبية التي كانت تجتاح السينمات المصرية آنذاك وقد بادرت دار سينما "كوزمو أو الكوزمجراف الأمريكاني" بشارع عماد الدين لصاحبها المسيو "موصيري" بعرض الفيلم لإتاحة الفرصة للأفلام العربية لتأخذ فرصتها في المنافسة.. بطبيعة الحال كانت مخاطرة تحملها "موصيري" الذي آمن أن جمهوره المستهدف هم المصريون وأنّ الجمهور المصري في بلاده هو "الكل في الكل" ورعايته والعمل على تلبية رغباته أمر ضروري وسيأتي بعوائد ذلك في المستقبل القريب.

المثير أن الفيلم وبعد عرضه فجر مفاجأة جديدة حول ملكية قصته فبينما حمل الفيلم اسم "إبراهيم حسين العقاد" وإبراهيم لاما "في السيناريو والحوار فقد رفع الكاتب والشاعر "عادل الغضبان" صاحب رواية "أحمس الأول أو طرد الرعاة" قضية ضد صناع الفيلم الأخوين "لاما" يتهمهما بالاستيلاء على قصته المكتوبة بالفصحى والمجازة من إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية وتحويلها لفيلم مع تعمد إغفال اسمه وإنكار صلتهم به وتغييرها إلى العامية على غير رغبته وقد تجاهل الأخوين الأمر..

الطريف ما قدمته مجلة "الجامعة" معلقة على المسألة من أن فيلم "الوردة البيضاء" المنسوب كقصة وسيناريو وحوار وإخراج لمحمد كريم تعرض لنزاع قضائي هو الآخر حيث رفع مالك القصة ويدعى "محمد متولي" دعوى ضد "عبد الوهاب" داعية لوضع حد لهذا النوع من القضايا التي تهدر حقوق المبدعين عبر سن قانون

لحفظ حقوق المؤلفين وحقوق استخدامها. والواضح أن هذا النزاع القضائي أتى أكله وأجبر صناع الفيلم على اقتسام قصة الفيلم بشكل غريب: ففكرة القصة لمحمد متولي وإعدادها لمحمد كريم والسيناريو والحوار مقتسماً بين "سليمان نجيب" و"توفيق المردنلي".

ومن الفن إلى الرياضة ويبدو أنّ شهر رمضان حمل الكثير من المفارقات مع نجم أبطال حمل الأثقال المصري "السيد نصير" والذي قال فيه أمير الشعراء أحمد شوقي "يا قاهِرَ الغَربِ العَتيدِ مَلَأتَهُ .. بِثَناءِ مِصرَ عَلى الشِفاهِ جَميلا. قَلَّبتَ فيهِ يَداً تَكادُ لِشِدَّةٍ.. في البَأسِ تَرفَعُ في الفَضاءِ الفيلا. إِنَّ الَّذي خَلَقَ الحَديدَ وَبَأسَهُ.. جَعَلَ الحَديدَ لِساعِدَيكَ ذَليلا. زَحزَحتَهُ فَتَخاذَلَت أَجلادُهُ.. وَطَرَحتَهُ أَرضاً فَصَلَّ صَليلا. لِمَ لا يَلينُ لَكَ الحَديدُ وَلَم تَزَل.. تَتلو عَلَيهِ وَتَقرَأُ التَنزيلا.". فقد رفض عرضاً من المصارع "يوسف برزا" بطل أمريكا السابق في المصارعة الحرة والملقب بالنمر السوري لترتيب عدة مباريات يلاعب فيها "نصير" عدة مصارعين دوليين من اليونان وسوريا وتركيا تمهيداً لمباراة "لاندوز" بطل العالم في المصارعة الحرة وذلك لتواضع المقابل المادي الذي سيحصل عليه كما دخل في شجار داخل كازينو "بديعة مصابني" مع الوجيه "عطا حسني" وإخوته وأصدقائه وفشلت كل محاولات احتواء المشاجرة من جانب ضيوف الكازينو والسيدة "بديعة مصابني" نفسها. الطريف أن الوجيه "عطا حسني" لم يكتفِ بما حدث بل رأى أن الساحة الرياضية هي خير وسيلة للرد على خصمه فذهب إلى النادي الأهلي، وطلب بشكل رسمي مصارعة "السيد نصير" في الحلبة ووافق الأخير ملبياً النداء وبالتأكيد واثقاً

من الفوز. لكن مندوب النادي "حمدي أفندي" تحفظ على الطلب الذي يضمر صاحبه الانتقام لما له من عواقب جسيمة تتجاوز الأعراف الرياضية .

نأتي بعد ذلك لأرباب الأسر الراقية "الهاي لايف" وحياتهم في رمضان ونبدأ بالآنسة "حورية إدريس" ابنة خالة السيدة "هدى هانم شعراوي" والتي توالت أخبارها السعيدة فبعد خطبتها تم تتويجها ملكة للجمال في إحدى قرى لبنان أثناء إجازة الصيف بصحبة السيدة "هدى".. هذا التتويج أثار اغتباط شقيقتها الصغرى الآنسة "حوا" ورأت أحقيتها أن تكون ملكة جمال مصر فدعت لإقامة مسابقة للجمال في مصر ترعاها جمعية "شقيقات الاتحاد النسائي" والتي نشأت من الطبقات الراقية كداعم للاتحاد واعترضت الآنسة "حورية" بشدة على هذا المقترح من شقيقتها وقد فطنت لمبتغاها منه وتصاعدت الخلافات وقد حاول بعض الأعضاء تهدئة الأجواء ..

هل تخلو حياة صفوة المجتمع من حفلات الخطبة والأعراس؟! بالطبع لا.. ولا حتى في شهر رمضان والذي يستغله البعض كمناسبة تذكارية لطيفة للخطبة وعقد الزيجات.. لكن الشروط بين الزيجات تتفاوت والناس درجات وفي تطلعاتهم ما بين الغرائب والمسلمات حكايات وحكايات فمثلاً أسرة الآنسة "علوية حلمي" كريمة الأستاذ "عباس حلمي" وحفيدة معالي "محمد توفيق رفعت باشا" اشترطت لخطبتها على الوجيه الشاب "عبد العزيز كشميري" المنحدر من أصول هندية ومن منطقة تحظى بحماية بريطانية أن يحجز لعروسه بنوارا في حفلة السوارية من يوم الاثنين أسبوعياً بسينما "رويال" وأن يلتحق بصالة "سبيرو" لإتقان حركات وخطوات رقصتي الرومبا والكاريوكا!! على النقيض من هذه النزعة الليبرالية المغالي

فيها جاءت اشتراطات الآنسة "سميحة مكرم" حفيدة "السيد عمر مكرم" الزعيم الشعبي البارز ونقيب الأشراف الأسبق على خطيبها الشاب "سامي درويش" من ضرورة اجتيازه امتحان البكالوريا والالتزام بالطاعات والفروض الدينية كالصلاة والصوم وقد أهدته سجادة قيمة كما اشتملت الشروط على معاونة العريس المنتظر لها في أعمال المطبخ وإعداد طبق السلطة وتقشير الفول المدمس وتورد المجلة أن دخل العروس الشهري تسعين جنيهاً ..

نأتي لعالم الرجال والرجل المصري بطبيعته يميل للتشاؤم ويلجأ له كمبرر في كثير من مشاكله ومن طريف ما تخبرنا عنه مجلة "الجامعة" في رمضان اتهام الدكتور "محمد أمين نور" مفتش صحة السيدة زينب بكتابة وصفات طبية "روشتات" لبعض مدمني المخدرات والذي جاء متزامناً مع استقلاله سيارته الجديدة "الأوبيرن الزرقاء" بسعرها "اللقطة" إذ اشتراها ب **800** جنيه وثمنها الأصلي **1500** جنيه، أي نصف الثمن، وكانت لم تزل في معرض السيارات "الأجانس" إذ أحجم الثري المعروف "عبد الحميد الشواربي بيك" مالكها الأول عن استلامها بعد أن سدد ثمنها الأول كاملاً حيث مني في نفس يوم استلامها بخسارة فادحة بقضية له فتشائم منها .

وجاء ما حدث لمالكها الثاني لتوضع السيارة المسكينة تحت وصف "السيارة المشؤومة".

نأتي لعالم الطلبة والطالبات في رمضان ونبدأ بالطالب "عزت مدكور" صاحب النشأة الإنجليزية والطالب بالسنة الرابعة بالمدرسة السعيدية والذي لا يستخدم سوى اللغة الإنجليزية في مجالساته مع أقرانه وحتى في حصة القواعد العربية

والإنشاء لا يفهمها إلا بما يقابلها من مصطلحات إنجليزية ومع ذلك فهو دائم الرسوب في اللغة الإنجليزية! سبحان الله.. "عزت" وضع لنفسه هدفاً جلياً وهو أن يكون طبيباً وفي سبيل تحقيق هذه الغاية والتي تمكنت منه لحد تقمص شخصية الطبيب بالفعل فراح يكتب روشتات مجانية لزملائه ووصل الأمر بحسب المجلة إلى قدرته على علاج أمراض استعصى على الأطباء الناجحين علاجها .

ومن "عزت" الموهوب المزعوم ننطلق في أعتاب "الآنسة ماري سلامة" الطالبة بكلية الآداب والتي صارت حديث الصحافة في تلك الآونة بعدما قام زميل لها بإرسال خطاب لمنزلها مفعم بالحب والهيام وتفوح منه رائحة "سانك فلور" فتسلمه أخوها الدكتور "أنيس سلامة" فسلمه بدوره للعميد والذي قضى بفصل الطالب. ومن بعد الخطاب وبحسب المجلة غدت الفتاة قبلة للعرسان وسرت شائعة قوية ربما مصدرها من أسمتها المجلة سكرتيرتها الخاصة "أمينة الشعراني" أنها على وشك الخطبة وأنها ستقنع بالبقاء في المنزل بدلاً من الذهاب للكلية كل صباح! ونختتم حياة الطلبة ببريد القراء ورسالة من الآنسة "اعتدال" من شبرا والتي أحبت ابن عمها ولا زال طالباً بمدرسة الصيدلة (كلية الصيدلة) ونظراً لمعارضة والدها الزواج فهي تستشير المجلة في نية الحبيبين المفعمين بالمشاعر الجياشة والحب الملتهب على الانتحار بسم مركب يصنعه الحبيب الصيدلاني ابن العم.. جاء رد المجلة لتصف الفتاة بالشخصية الخيالية القابعة في القرون الوسطى، حيث قصص الحب التي يطغى عليها الاستهانة بالموت مع ضيق الحدود والأفق منبهة أن الحياة العصرية أصبحت أكثر رحابة واتساع للأفق من ذي قبل. ولكني أجد أن الرد كان مخيباً للظن في وجهة نظري.. إذ إن الزواج دون موافقة الأهل وتحدي ذلك

بالهروب أو الانتحار هو من الأمراض الاجتماعية الكامنة التي كان يمكن التصدي لها مبكراً بتسليط الضوء على القصص الواقعية التي تشي بهشاشة هذا الحب ووهمه في كثير من الأحيان ويستدعى ذلك البرهنة بقصة من أرشيف الصحافة المصرية تلخص لهذا النوع: إرهاصاته الحالمة ونهاياته المدمرة خاصة للمرأة ففي مجلة "الاثنين والدنيا" عام **1948**م وتحت عنوان "صوت الحب الكاذب" تحدثت المجلة عن انتحار فتاة من كوبري قصر النيل عام ١٩٤٧م والعثور على عدة رسائل تلخص محنتها.. ارجع إلى "يوميات محمد أفندي فتحي في رمضان" للاطلاع عليها..

قصص تناولتها العديد من الأفلام العربية الهادفة ولكن من للاعتبار والعظة يركض ويفوز.

سؤال على هامش الحلقة وقد أتينا على ذكر السينما في مبحثنا: ما هو أغرب عقد سينمائي في تاريخ السينما المصرية؟

الحقيقة أنني لم أجد أغرب من العقد الذي وقعته الفنانة "عزيزة أمير أو مفيدة محمد غنيم" مع المخرج اليهودي التركي الأصل "وداد عرفي" لإنتاج فيلم "نداء الرب أو نداء الله**1927**" حيث تضمن العقد الذي كتب لدى محامٍ على تكفل "عزيزة أمير" بشكل تام بالمصروفات الشخصية لوداد عرفي من حيث الأكل والملبس والمصروف اليومي وذلك كله تفصيلياً فوجبات الطعام: (الإفطار: عشر بيضات مسلوقة، وقطعة جبن بيضاء، وثلاثة أرغفة من العيش الفينو، ومربى وشاي باللبن-الغداء: دجاجة من الحجم الكبير، وطبق أرز وخضار، وفاكهة أو حلوى- العشاء: طبق أرز مع لحم مشوي) والهندام على الوجه التالي: (خمس بدل شيك –

خمسة قمصان -عشرة أطقم ملابس داخلية) ولم ينسَ أيضاً إدراج علبتين من السجائر الفخمة يومياً كما أسكنته بالدور الأرضي في فيلتها وكانت وقتها متزوجة من الوجيه "أحمد الشريعي" وكانت تعطيه مصروف جيبه أيضاً.. وبعد مضي عشرة أشهر خرج الفيلم على أسوأ ما يكون مفككاً ومهلهلاً ولا يمت للسينما بصلة بل ويسيء للمجتمع المصري ففوجئ "وداد عرفي" بأن طعام الغداء المقدم له "فول وطعمية" على غير المتفق عليه وأن "عزيزة أمير" أوكلت إصلاح ما بالفيلم من عوار خطير لصديقها الممثل "ستيفان روستي" كما غيرت اسم الفيلم إلى "ليلى" فرفع "وداد" دعوى قضائية ادعى فيها أن الفيلم من تأليفه وحجز على إيراداته ووصل الخلاف بين الطرفين لحد اتهام "عزيزة أمير" له بالشذوذ الجنسي مع صديقه الممثل اليهودي "يوسف ساسون" المشارك معه بالفيلم والمرافق معه في كل تحركاته وانتهى الأمر بالتراضي في خاتمة المطاف. الطريف أن "وداد عرفي" هو صاحب مشروع تجسيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم في فيلم سينمائي بطولة "يوسف بيك وهبي" وتحت ستار شركة فرنسية تدعى "ماركوس السيماتوغرافية" ودخل "يوسف وهبي" في مساجلات خطيرة مع علماء الأزهر الذين رفضوا بشكل قاطع هذا المشروع وأمام هذا السخط الديني تراجع "يوسف وهبي" عن القبول وقيل إنّ الملك "فؤاد" كان في صف جبهة العلماء ضده.

المراجع والمصادر

1- "خبايا القاهرة قديماً وحديثاً "لأحمد محفوظ".

2- "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" لعبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي.

3-"بدائع الزهور في وقائع الدهور" لزين الدين أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس المصري الحنفي.

4- "هوامش التاريخ.. من دفاتر مصر المنسية" لمصطفى عبيد.

5- "فقه العمران.. العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية" للدكتور خالد عزب.

6-أرشيف الصحافة المصرية.

7-مقالات الدكتور محمد فتحي عبد العال على بوابة الأهرام والأهرام المسائي.

السيرة الذاتية للكاتب والباحث والروائي محمد فتحي عبد العال

رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْـزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (القصص:**24**)

د. محمد فتحي عبد العال

من مواليد الزقازيق محافظة الشرقية بمصر عام **1982**

المؤهلات العلمية:

1-بكالوريوس "صيدلة" جامعة الزقازيق **2004.**

2-دبلوم الدراسات العليا في "الميكروبيولوجيا التطبيقية" جامعة الزقازيق **2006.**

3-ماجستير في "الكيمياء الحيوية" جامعة الزقازيق **2014.**

4-دبلوم الدراسات العليا في "الدراسات الإسلامية "من المعهد العالي للدراسات الإسلامية **2017 .**

5-شهادة "إعداد الدعاة" من المركز الثقافي الإسلامي التابع لوزارة الأوقاف **2017.**

6-دبلوم مهني في "إدارة الجودة الطبية الشاملة" من أكاديمية السادات للعلوم الإدارية **2017.**

محتويات الكتاب

من ذاكرة التاريخ
بلوغ المرام في أحداث ووقائع رمضان
د. محمد فتحي عبد العال
الطبعة الأولى
1445 هـ 2024 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد



